يوليو ٢٠١٣ / العدد ٨

النور

للدراسات الحضارية والفكرية

أسرار العبرة والتعبير في رسائل النور

- منهج النورسي في شرح أسماء الله الحسنى
- نحو رؤية جديدة للدلالة النفسية لأسلوب التكرار في القرآن الكريم
- التاريخ عند بديع الزمان سعيد النورسي دراسة في التمثل والتفسير
- قواعد وضوابط في تفسير القرآن عند النورسي من خلال إشارات الإعجاز

al-Nur

Academic Studies on Thought and Civilization

An Academic Biannual Journal (January-July)
Published by the Istanbul Foundation for Science and Culture
Year 4, Number 8 (July 2013)
ISSN 1309 4424 (En-Nur)

Annual Subscriptions (2 issues)

Turkey:	TL 20
Individuals outside Turkey:	US$ 15
Institutions outside Turkey:	US$ 30

Addresses for Subscriptions and all Communications

Istanbul Ilim ve Kultur Vakfi,
Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk. No: 6
Vefa 34134 Fatih, ISTANBUL – TURKEY
Tel : +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla.com

Abdulkerim Baybara: kerimbaybara@gmail.com
Sozler Publications,
30 Gafar al-Sadiq Street, al-Hayy al-Sabi',
Nasr City, Cairo, Egypt.
Tel. / Fax: +20 2 22 602 938

www.nurmajalla.com

ISSN 1309-4424
9 771309 442006 08

للدراسات الحضارية والفكرية

تصدر عن مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم

THE ISTANBUL FOUNDATION FOR SCIENCE AND CULTURE

صاحب الامتياز والمدير المسؤول: كنعان دميرطاش kenan@nurmajalla.com

رئيس التحرير: أ.د. عمار جيدل editor@nurmajalla.com

المشرف العام: إحسان قاسم الصالحي ihsankasim@gmail.com

هيئة التحرير

أ.د. ثروت أرماغان؛ أ.د. محمد خليل جيجَك؛

د. سعاد الناصر؛ د. محمد جنيد شِمشَك

اللجنة الاستشارية

أ.د. حسن الأمراني؛ أ.د. سليمان عشراتي؛ أ.د. عبد العزيز برغوث؛ أ.د. عبد العزيز خطيب؛ أ.د. عبد الكريم عكيوي؛ أ.د. عبد المجيد النجار؛ أ.د. عماد الدين خليل؛ أ.د. محسن عبد الحميد؛ أ. د. محمد عبد النبي؛ د. بوكاري كيندو؛ د. سمير بو دينار؛ د. محمد كنان ميغا.

الإخراج الفني

سعيد طاقطاق، حسن الحفيظي

رقم الإيداع الدولي

ISSN: 1309 – 4424 (En-Nur)

الطباعة

يوليو ٢٠١٣

Nesil Matbaacılık – Yakuplu – B. Çekmece / Istanbul
Tel: (+ 90 212) 876 38 68 pbx

المركز الرئيسي

Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk. No: 6
Vefa 34134 Fatih, ISTANBUL – TURKEY
Tel: +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla.com
www.nurmajalla.com
www.iikv.org

بسم الله الرحمن الرحيم

النور للدراسات الحضارية والفكرية

١– التعريف بالمجلة:

مجلة علمية أكاديمية محكّمة نصف سنوية (يناير– يوليو)، تصدر عن مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم.

تُعَد مجلة ''النور للدراسات'' مجلة الباحث والمفكر المجدد فضلا عن من يتمرّس بالبحث من شباب هذه الأمة، وهي منبر علمي أكاديمي مفتوح أمام كلّ المفكرين والباحثين الجادين.

تعمل المجلة على توجيه النظر إلى الجمع بين أصالة الأمة ممثلة في أستاذها الأول ''مصادر الإسلام'' (القرآن الكريم والسنّة المطهّرة) وثقافة العصر فيما لا تتعارض وحقيقة ثقافة الأمة وأصالتها، كما تعمل على الإفادة منها في التأسيس لبعث معرفي وحضاري، إنساني البعد إسلامي الروح، يسعى إلى فحص المتداول في الدرس الاجتماعي والإنساني بقصد تمحيصه والتأسيس للبديل المنبثق عن التصور التوحيدي للعالم والحياة والإنسان، وتَعَهُّد هذا الكسب (العلم المنجز) بالمراجعة والاستدراك المستمر، وتدريب المثقف الرسالي على التوقّف المنهجي والمعرفي عند ''الكونية'' التي يراد من خلالها تمرير مشاريع التحكّم في المعرفة ومن ثمَّ الهيمنة على مؤسسات صناعة الوعي في برامجها ومناهجها، والحيلولة الموضوعية دون ضياع سائر موارد القرار في مختلف مجالات الحياة.

٢– تتناول المجلة وفق الخط العام المشار إليه أعلاه:

قضايا المنهجية الإسلامية الجامعة بين مخاطبة العقل والقلب في ذات لحظة التذكير، حتى يغدو الفصل بينهما في عداد المحال المنهجي والمعرفي على السواء.

قضايا المعرفة من حيث خلفيتها النظرية، ومصادرها ونظمها وفلسفتها وإنتاجها.

العودة بالأمة إلى أستاذها الأول (القرآن الكريم)، مبعث نهضتها، ومؤسس فعاليتها في شعاب الحياة المعرفية.

الحث على البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية في إطار النظرة الإسلامية وفي كنف تكاملها مع سائر علوم الشريعة، بقصد بعث الفعالية الحضارية المنشودة.

دراسة وفحص ثم تمحيص مناهج التعامل مع الخبرة المعرفية الإسلامية (التراث) والإنسانية في مختلف مجالات التدين (العقيدة، والشريعة، والأخلاق) بالإسلام.

الإفادة من مشاريع النهضة والإصلاح في العالم الإسلامي، ولاسيما مشروع بديع الزمان النورسي المبيّن في رسائله الموسومة بـ ''رسائل النور''، سعيا منا إلى الاستفادة من هذه التجربة وغيرها من خبرتنا في مجال النهضة والتغيير، بغرض المساهمة في فهم الحاضر والتخطيط الجيّد للمستقبل.

ما تنشره المجلة يعبّر عن رأي صاحبه، وليس رأي المجلة ضرورة.

المحتويات

- كلمة العدد الثامن ..... أ.د. عمار جيدل ٣

الدراسات والبحوث

- اعتبار المآل واستشراف المستقبل عند بديع الزمان النورسي ... أ.د. عبد الكريم عكيوي ٧
- مشكلة الثقافة والحضارة في العالم الإسلامي من منظور مالك بن نبي ..... د. بوعزة عبد القادر ٢٥
- مظاهر الجمالية في المحن والابتلاءات من خلال سيرة النورسي. أ.د. عبد الله البخاري ٤٧

ملف العدد

- منهج النورسي في شرح أسماء الله الحسنى ..... أ.د. الشفيع الماحي أحمد ٦٥
- نحو رؤية جديدة للدلالة النفسية لأسلوب التكرار في القرآن الكريم: بديع الزمان سعيد النورسيّ أنموذجا ..... أ.د. عزيز محمد عدمان ٨٧
- التاريخ عند بديع الزمان سعيد النورسي دراسة في التمثل والتفسير ..... محمد بكور ١١٣
- قواعد وضوابط في تفسير القرآن عند النورسي من خلال كتابه إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ..... أ.د. مشعان سعود عبد ١٣٣

الحوار والإصدارات والمؤتمرات

- حوار مع د. مأمون فريز جرار ١٥٣
- الإصدارات: قراءة في كتاب: رسالة ماستر ١٦٥
- المؤتمرات والحلقات الدراسية:
  ١. ندوة الأردن ١٧٣
  ٢. ندوتان دوليتان في الهند ١٧٦
  ٣. الندوة العالمية الخامسة للأكاديميين الشباب الإنجليزية ١٧٩
  ٤. الندوة العالمية الخامسة للأكاديميين الشباب العربية ١٨٢
- معلومات عن النشر في المجلة ١٩٢
- الإشتراك السنوي / Contents ١٩٣

● ترتيب الدراسات والبحوث يخضع لاعتبارات فنية صرف.

كلمة العدد الثامن

أ.د. عمار جيدل

يظهر العدد الثامن بعد طول انتظار المتطلعين إلى الفعالية الإيمانية فى الروح الباعثة على تعمير الكون بالخير، نعمل متطلعين إلى هذه الروح الوثّابة لتستعيد أمتنا حضورها الذي انتظرته الإنسانية طويلا، وهى على الباب منتظرة عودة وهج الفكرة الدينية الإسلامية حضورها في الضمائر المواكبة لاستردادها في الشعائر والشرائع.

تبنّت المجلة منذ عهدها الأول هذا الخط الأكاديمى الرسالى، وما ترددت فى تبنيه لحظة، فكان العدد امتدادا لهذه الروح ومنها يستمد فعاليته، فكان العدد الثامن غنيا بهذه المعانى السامقة، فتضمّن العدد فى الدراسات، ما يؤكّد اهتمام النورسى بدفع من الإسلام باستشراف المستقبل من خلال مقال أ.د عبد الكريم عكيوي، فى دراسته الموسومة بـ ''اعتبار المآل واستشراف المستقبل عند بديع الزمان النورسى''، وتأكيدا لأهم عناصر استعادة المستقبل لصالح الإنسانية، كتب د. بوعزة عبد القادر عن'' مشكلة الثقافة والحضارة فى العالم الإسلامى من منظور مالك بن نبى...''، المستقبل الذي يوفّق الله إليه كلّ من يتحمّل أعباء السير، ويرى فيه جمالا ماديا ومعنويا، وقد عبّر عنه بصدق أ.د.عبد الله البخاري فى بحثه الموسوم بـ ''مظاهر الجمالية فى المحن والابتلاءات من خلال سيرة النورسى''، أما الملف فقد اشتمل على دراسات ترتكز على بحث أسرار العبرة والتعبير فى رسائل النور، فكان البحث الأول منهج النورسى فى شرح أسماء الله الحسنى لـ أ. د. الشفيع الماحى أحمد، بيّن فيه أهمية دراسة شرح أسماء الله الحسنى وفق المسلك التربوي الباعث على استرجاع الروح لفعاليتها فى شعاب الحياة، أما الدراسة الثانية لـ أ.د. عزيز محمد عدمان، ففيها كثير من الإشارات المعرفية المؤسسة لبعث قراءة تجديدية لمباحث التكرار، وذلك فى بحثه الموسوم بـ ''نحو رؤية جديدة للدلالة النفسية لأسلوب التكرار فى القرآن الكريم النورسى أنموذجا''، وجال الباحث محمد بكور ببحثه الموسوم بـ ''التاريخ عند النورسى دراسة فى التمثل والتفسير'' فى ثنايا قضايا التاريخ كما عرضت فى رسائل النور، فكانت الدراسة فى استصحاب المعرفة التاريخية فى فهم الحاضر واستجلاب الخير فيه والتخطيط المنهجي للمستقبل، وختمت الدراسات ببيان'' قواعد وضوابط في تفسير

القرآن عند النورسى'' أ.د. مشعان سعود عبد، حاول فيه الباحث استخلاص القواعد الضرورية للمفسر كما بدت له فى رسائل النور، وضم إليها مجمل ما استخلصه من ضوابط في التفسير من خلال رسائل النور.

استضفنا فى هذا العدد شخصية علمية رصينة، لها باعها فى الأدب واللغة، ففضلا عن حضورها المبكر فى الأدب الإسلامى، فهو أستاذ التعليم العالى فى الجامعات الأردنية والسعودية، والمحاضر فى كثير من بلاد المسلمين، وزيادة إلى ما سلف فهو من الذين تفرّغوا لرسائل النور تدريسا ومدارسة وتسجيلا صوتيا، لهذا كانت الاستفاضة متعدد الجوانب، حاولنا من خلال الحوار الغوص فى أعماق المحاور، لعلّنا نظفر منه بالأصداف التى ينتظرها القارئ العربى بشغف كبير، ولا أريد أن استعجل ففي الحوار بيان ما أشرنا إليه مجملا بهذا الصدد .

عرّفنا فى العدد بمختلف النشاطات العلمية التى عقدتها مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم، منها استضافت الندوتين العلميتين الخامستين للأكاديميين الشباب الإنجليزية والعربية، وقد كانت فرصة سانحة للالتقاء بين باحثين أتوا من كلّ فج عميق وأساتذة تخصصيين جاؤا من مختلف أصقاع العالم خصيصا للخدمة المعرفية والمنهجية والتربوية؛ وعرضنا بهذا وقفة مع ندوات علمية عالمية كانت ناجحة بكلّ المعايير، فندوة الأردن استضافت أسماء لامعة محلية وعربية التقت لأجل تدارس رسائل النور، كما كانت الندوات التى عقدت فى الهند مثار إعجاب، ووسيلة فتح كبير للتعريف بالقرآن الكريم ورسائل النور التى تعد تفسيرا عصريا له، وسيلة مهمة للمرافعة عنه فى هذا العصر.

أملنا كبير أن يكون العدد فى مستوى التطلّعات، فإن كان ذلك فذاك ما نبغى، وإن كان غير ذلك، فننتظر منكم ما يرفع التحدي، ويجعلنا فى مستوى تطلعاتكم، وذلك بمساهماتكم المعرفية والمنهجية والدعاء بالتوفيق.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

* * *

الدراسات والبحوث

اعتبار المآل واستشراف المستقبل عند بديع الزمان النورسي

أ.د. عبد الكريم عكيوي[1]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وأزواجه وذريته الطيبين وأهل بيته الطاهرين وأصحابه الغر الميامين، والتابعين لهم ومن تبعهم بإيمان إلى يوم الدين. أما بعد، فإن الغرض من هذا العرض الكشف عن منهج في المعرفة الإسلامية، أصله في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، سار عليه المحققون من علماء الإسلام واعتمده أهل التربية والسلوك، واهتدى به أهل السياسة وتدبير الشأن العام. وقصدنا خاصة أن نبرز معالم هذا المنهج عند أحد أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، الداعية المربي الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي الكردي المتوفى عام ١٩٦٠م، والذي كان له ولدعوته بالغ الأثر وجميل الفائدة على بلده تركيا ثم سائر بلاد الإسلام التي امتد إليها إشعاع رسائله ودعوة طلبته من بعده. إن من يتأمل حياة هذا الرجل لابد أن يأخذ العجب بقلبه وعقله، عندما يرى ما كان عليه من الإخلاص لدعوته والتجرد الكامل لنشر هداية القرآن الكريم وإنقاذ الإيمان في النفوس وتجديده في القلوب بعد أن كاد يندثر بسبب رياح عاتية هبت على العالم الإسلامي في عصره تبتغي نشر الإلحاد وتزيين التحلل من الدين والفضيلة. وقد ذاق رحمه الله من أجل ذلك أصناف العذاب من السجن والنفي والبعد عن الأهل والأحبة.

وقد كان له رحمه الله منهج واضح في العلم والعمل، استخلصه من خبرته في الحياة وتقلبه بين الأفكار المتداولة في عصره، ومن مجاهدته في مواجهة قضايا الحياة وخطوب الزمان، ومن إدمانه على تدبر القرآن الكريم وطلب الأنس والسلوان منه دون سواه. وهذا المنهج واضح من خلال ''رسائل النور'' التي أودعها خلاصة تجربته في تدبر القرآن الكريم وتنزيل هديه على أحوال الحياة المتجددة.

ومن معالم مسلكه في الفكر والدعوة، التي تبدو للناظر الباحث في رسائل النور، منهج التدبر في حقائق الحياة والتأمل في دقائق الأمور لمعرفة وجه الحكمة في ذلك كله. إن الكون كله في النظرة النورسية من أصغر أجزائه إلى أكبرها، من الذرات إلى المجرات –بأجسامه ومعانيه، بأشباحه وأرواحه، كل ذلك– بمنزلة ألسنة ناطقة بحسب حالها. فهي ليست مجرد أشكال هندسية، وأجسام متحركة، وأرقام محدودة، إنما حقيقتها أكبر من ذلك وأعمق.

وفي سعيه رحمه الله لمعرفة وجه الحكمة، وعمله على ربط كل مسألة بحكمتها، كان ينظر في القضية حتى إذا استوعبها ونفذ إلى حقيقتها، عبر منها إلى امتداداتها عبر الزمان وتصورها في سيرها في مستقبل الأيام، مقارنا بين أحوال الحاضر والمستقبل، بين الحال والمآل.

وهذا المنهج حاضر عند علماء الإسلام، خاصة عند علماء أصول الفقه في الأصل الذي سموه ''اعتبار المآل''. وقبل استخلاص معالمه عند النورسي أرى من الواجب أن أقدم له بخلاصة موجزة جامعة لقضاياه عند علماء الأصول.

اعتبار المآل عند علماء أصول الفقه

إن ''اعتبار المآل'' من أمهات القواعد المعتمدة عند النظر في النصوص الشرعية بقصد العمل بها وتنزيلها على محالها. وقد وضع الأئمة هذا الأصل بعد تدبر نصوص الوحي وتتبع موارد الأحكام، فتبين أن الشريعة وضعت لحكم وغايات في العاجلة وفي الآخرة، فاهتمت بالوسائل الموصلة إلى هذه الحكم بل جعلت لهذه الغايات أثرا في حكم الوسائل المفضية إليها. فالشارع الحكيم يعطي للعمل والوسيلة حكم الوجوب القطعي إذا كانت تؤول إلى مصلحة عظيمة، وينزل عن ذلك كلما نزلت المصلحة عن هذه المرتبة، ويعطيها حكم المنع قطعا إذا كانت تؤول إلى مفسدة عظيمة. ولهذا كانت مآلات الأفعال وما يترتب عنها في العاجل والآجل محل نظر وموضع عناية عند المجتهدين، لأنها مما يتوقف عليه حكم الأفعال التي يأتيها المكلفون، ولهذا قرر علماء الأصول ضرورة اعتبار ما سيؤول إليه الحكم المأخوذ من النص الشرعي، فقالوا: إن مآلات الأفعال معتبرة شرعا. وفي معنى ذلك قال الشاطبي: ''النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا... وذلك أن المجتهد لا يحكم على

فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل".[2] "فالمجتهد حين يجتهد ويفتي عليه أن يقدر مآلات الأفعال التي هي محل حكمه وإفتائه، وأن يقدر عواقب حكمه وفتواه، وألا يعتبر أن مهمته تنحصر في إعطاء الحكم الشرعي. بل مهمته أن يحكم في الفعل وهو يستحضر مآله أو مآلاته، وأن يصدر الحكم وهو ناظر إلى أثر أو آثاره".[3]

إن المجتهد أو المفتي عندما ينظر في النازلة ويلتمس لها الأدلة من الشريعة، لا يقتصر على بيان الدليل أو النص الوارد في المسألة، وإنما عليه أن يقدر ما سيؤول إليه العمل بمقتضى ذلك الدليل أو ذلك النص، من خلال نظره في ظروف الزمان والمكان وقرائن الحال وكل ما يحيط بالنازلة وبصاحب النازلة. ولهذا فإن اعتبار المآل يأتي عند العمل بالنصوص وتنزيلها على محالها، فهو من مناهج تنزيل نصوص الوحي على الوقائع والحوادث. وهذا يميزه عن مجال آخر قبل هذا وهو مجال النظر في نصوص الوحي لفهم مراد الشارع منها وبيان الدلالات الصحيحة لها من غير وجود نازلة ومن غير بيان محل العمل بهذه النصوص.

وهذا ما سماه الشاطبي الاقتضاء التبعي لما قال: "اقتضاء الأدلة للأحكام بالنسبة إلى محالها على وجهين: أحدهما الاقتضاء الأصلي قبل طرء العوارض وهو الواقع على المحل مجردا عن التوابع والإضافات، كالحكم بإباحة الصيد والبيع والإجارة وسن النكاح... والثاني: الاقتضاء التبعي وهو الواقع على المحل مع اعتبار التوابع والإضافات كالحكم بإباحة النكاح لمن لا أرب له في النساء، ووجوبه على من خشي العنت... وبالجملة، كل ما اختلف حكمه الأصلي لاقتران أمر خارجي"[4] فقد جعل الشاطبي هنا من أسباب تغير الحكم الأصلي اعتبار مآل الإبقاء على الحكم الأصلي، وذكر من أمثلة ذلك قبل طرء العوارض، سن النكاح، وهو ما يستفاد من نصوص الوحي، لكن لما طرأت العوارض ودخل هذا الفعل مجال العمل وتمحضت مآلاته في بعض الأحوال وعند بعض الأشخاص، تغير الحكم الأصلي، فصار النكاح واجبا على من خشي العنت، ومباحا لمن لا أرب له في النساء. وهذا مؤيد لما سبق أن اعتبار المآل يكون عند تنزيل نصوص الوحي على محالها.

ويعد المباح أوسع مجال لاعتبار المآل بالنسبة للمكلف، فالواجب والمندوب مأمور بهما لمآلها إلى المصلحة، والحرام والمكروه وقع النهي عنهما لمآلهما إلى

المفسدة. فالفعل في هذه الأحكام الأربعة ظاهر'' المصلحة أو ظاهر المفسدة، وبقي أعمال ليست في ذاتها ظاهرة المصلحة ولا ظاهرة المفسدة، وإنما تحتمل الأمرين ويتجاذبها الجانبان، وقد تؤول إلى مصلحة وقد تؤول إلى المفسدة، وهذا العمل الذي يصدق عليه هذا الوصف هو المباح، وقد ترك الشارع أمر تقدير مآله إلى المكلف لأنه ليس منضبطا. وهذا سبب اختلاف الأئمة في المباح إلى فريقين، الأول يقول بأن المباح مطلوب الترك والثاني يقول إنه مطلوب الفعل. وهذا بناء على اعتبار مآل المباح، فمن نظر إلى ما يمكن أن يؤول إليه المباح من المفسدة قال بتركه، ومن رأى ما يحتمل أن يؤول إليه من المصلحة قال بإتيانه، وكلاهما صحيح لأن المباح يتجاذبه الأمران، لكن الخطأ في قصر المباح على جانب دون الآخر، ولهذا رد الشاطبي المذهبين معا، لأن المباح لا يبقى على أصل واحد، وإنما تختلف مآلاته بحسب الملابسات والمؤثرات، فقد تدخل عليه مؤثرات تصيره مذموما، وقد تدخله مؤثرات تدخله في جانب طلب الفعل. ولهذا قال الشاطبي: ''إن المباح يصير غير مباح بالمقاصد والأمور الخارجة''[5] فقد يكون واجبا إذا كان خادما لأصل ضروري لأنه يؤول إلى المصلحة، فالتمتع بما أحل الله من المأكل والمشرب والملبس واجب في حدود ما يحفظ الحياة، فإذا تجاوز ذلك إلى حد المبالغة والإسراف كان مكروها أو حراما. وعلى هذا قسم الشاطبي المباح إلى أربعة أقسام هي: ''–(١) مباح بالجزء مندوب بالكل كالتمتع بالطيبات فيما زاد عن الضرورة فهو بحسب الجزئية مباح وبحسب الكل مندوب – (٢) مباح بالجزء واجب بالكل كالأكل والشرب والبيع والشراء وسائر الحرف والمهن والصنائع، فهي من ناحية الجزء مباحة، واجبة بحسب الكل لأن تركها جملة يؤول إلى المفسدة – (٣) مباح بالجزء مكروه بالكل مثل التنزه وسماع الغناء المباح وسائر أنواع اللّهو واللعب المباح، فإذا فعل يوما أو في حالة ما فلا حرج وان فعل دائما كان مكروها لأنه يؤول إلى الغفلة عن الواجبات وترك الجد – (٤) مباح بالجزء محرم بالكل مثل الإدمان المفرط على اللّهو واللعب حتى يصير حرفة لأنه يؤول إلى أن يكون عمره كله لعبا ولهوا.[6] وظاهر أن هذه الأقسام كلها إنما هي باعتبار ما يؤول إليه الفعل المباح في أصله قبل طرء العوارض والملابسات، لأن المباح هنا يكون وسيلة، والوسيلة لها حكم الغاية التي تؤول اليها، ولهذا قالوا إن ما يفضي إلى الحرام حرام، وما يفضي إلى المكروه مكروه وما يتوقف عليه الواجب أو

المندوب فهو واجب أو مندوب".[7] فالبيع مثلا في أصله مباح، لكنه إذا تعلق بأمر اضطر إليه المسلمون صار واجبا في حق البائع، والنكاح أيضا إذا كان المرء لا ينفك عن الزنا إلا به وكان قادرا عليه فهو واجب عليه، وان كان لا يخاف العنت وكان سيضر بالمرأة لعاهة أو عدم نفقة كان حراما، ولهذا قالوا إن النكاح تتجاذبه الأحكام الأربعة.

ومن أمثلة اعتبار المآل في المباح عند الفقهاء قول فريق منهم بكراهة الزواج من الكتابية مع أن الآية صريحة في إباحته حيث قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾.[المائدة:٥] وسبب ذلك أن هذا المباح قد يؤول في بعض الحالات وبعض البلدان وبعض العصور إلى مفسدة مثل فتنة الأزواج في دينهم، والإعراض عن زواج المسلمات. ويصدق هذا على عصرنا أكثر من غيره، فقد أصبح الزواج من الكتابيات يؤول في الغالب إلى مفاسد ومحرمات، منها صرف الزوج المسلم عن دينه، وعلى نشأة الأبناء بلا دين، وهذا ثابت بالمشاهدة والمعاينة.

اعتبار المآل عند النورسي

إذا كان اعتبار المآل قد اصطبغ بصبغة أصول الفقه فظهر كأنه منهج مقصور على النظر في خطاب الشارع بقصد تنزيله على محله، فإن النورسي منحه صفة العموم والشمول فجعله منهجا في الحياة كلها، وظهر عنده خاصة في جانب التربية وترسيخ الإيمان والسلوك، بالإضافة إلى فروع الشريعة من العبادات والمعاملات.

اعتبار المآل في فقه الخطاب الشرعي وتنزيله على محله

في فقه الخطاب الشرعي وتنزيله على محله فإن النورسي ممن يرى أن الأفعال التي تنزل في درجتها عن الوجوب إلى الندب، وخاصة إلى الإباحة، لابد فيها من اعتبار الآثار التي سيؤول إليه العمل بها ولا يقتصر على ما يترتب في الحال. وهذا يختلف باختلاف مراتب المكلفين وأحوالهم وما يحتف بهم من الظروف. وهذه القاعدة لم يفصح عنها النورسي صراحة في شكلها النظري، وإنما تستنبط من تصرفاته وما اختاره في مسلكه في العلم والدعوة، والسلوك والتربية. وأظهر مثال على ذلك ما

اختاره من حياة العفة والكف عن الزواج مع تنصيصه على سنيته، ثم منع تعميم هذا الحكم على غيره. ووجه ذلك أنه رحمه الله وضع لنفسه هدفا عظيما ومقصدا ساميا جمعه في إنقاذ الإيمان وإظهار حقائق القرآن. ثم رأى أن بلوغ هذه الغاية عسير لأن دونها حواجز كثيرة ومعوقات كثيفة. فكيف يخلص إلى غاية عظيمة هي قوام أمة كاملة، وخصومها قد جمعوا العدد والعدة وأحكموا القبضة على البلاد والعباد، وجردوا حملات ووقفوا أموالا لتزيين الباطل ونشر الإلحاد، ونصبوا المشانق لمن خالف سبيلهم؟ وكيف السبيل إلى ذلك والأمة في ركود فكري وسياسي؟ فهذه هي الظروف التي حفت بالنورسي وهو يضع غايات في حياته. فبعد طول نظر وتأمل وتفكير رأى أن هذه الغاية لا تنال إلا بالتضحية والصبر والمصابرة وركوب المعاناة. وفي إعداد نفسه لهذه المعاناة رصد كل ما يمكن أن يكون سببا لانكسار المرء أمام معاناة الحياة أو سببا لغياب الإخلاص عنه، فظهر له أن التعلق بالدنيا ومحبتها والتنعم بأذواقها مما يسجن النفس ويضعفها عن المقاومة والمغالبة وينال من صفاء الإخلاص، ولهذا حمل نفسه على التجرد من نعيم الدنيا فاختار طريق العفة في أقوى درجاتها فلم يقبل حتى الهدية. ثم رأى أيضا أن محبة الأهل والأولاد والحدب الأبوي عليهم مما يحمل على ذلك فوضع لنفسه حكم الكف عن الزواج. ومما يدل على هذا أن هذه المسألة كانت حاضرة عنده دائما، فكان كلما وجد نفسه مسجونا أو منفيا يحمد الله على صحة مسلكه، لأنه ليس له من الدنيا ما يتعلق به ليداري ويداهن من أجل بقائه.

وفي وجه امتناعه عن الزواج قال: ''في الوقت الذي يلزم لصد هجوم زندقة رهيبة تُغير منذ أربعين سنة، فدائيون يضحّون بكل ما لديهم، قررت أن أضحي لحقيقة القرآن الكريم... فلأجل أن أتمكن من القيام بخدمة القرآن على وجهها الصحيح بإخلاص حقيقي، ما كان لي بد من ترك زواج الدنيا الوقتي –مع علمي بأنه سنة نبوية– بل لو وُهب لي عشر من الحور العين في هذه الدنيا، لوجدت نفسي مضطرة إلى التخلي عنهن جميعاً، لأجل تلك الحقيقة، حقيقة القرآن. لأن هذه المنظمات الملحدة الرهيبة تشن هجمات عنيفة، وتدبر مكايد خبيثة، فلابد لصدها من منتهى التضحية وغاية الفداء، وجعل جميع الأعمال في سبيل نشر الدين خالصة لوجه الله وحده، من دون أن تكون وسيلة لشيء مهما كان... لذا تركت عادة الزواج الذي أعلم أنها سنة نبوية لئلا

ألج في محرمات كثيرة، ولكي أتمكن من القيام بكثير من الواجبات وأداء الفرائض، إذ لا يمكن أن تقترف محرمات كثيرة لأجل أداء سنة واحدة''.[8] ويعلم النورسي أن هذا المسلك قد يلقى من يعارضه بدعوى مخالفته للشريعة، ولهذا أورد من الأدلة ما يجعل هذا المسلك من روح الشريعة. من ذلك أن تاريخ المسلمين يشهد على عمل كثير من علماء الإسلام بمنهج اعتبار المآل في الأعمال خاصة في قسم المباح، فكفوا عن المباحات من الدنيا وكفوا عن الزواج.[9] وإن من كان في مثل مقامه خاصة فيريد أن يكون دليلا على الله في مثل زمانه، لا يعتبر خارجا عن الشريعة إذا كان قصد مثل قصده. قال رحمه الله: ''فلابد أن الذي يعمل لأجل سعادة باقية، لكثير جداً من المنكوبين، ويحول بينهم وبين السقوط في هاوية الضلالة، ويسعى لتقوية إيمانهم، خدمةً للقرآن والإيمان خدمة حقيقية، ويثبت تجاه هجمات الإلحاد المغير من الخارج والظاهر في الداخل، أقول لابد أن الذي يقوم بهذا العمل العام الكلي –وليس عملا خاصاً لنفسه– تاركاً دنياه الآفلة، لا يخالف السنة النبوية بل يعمل طبقا لحقيقة السنة النبوية''.[10] وليس هذا عنده مسلكا عاما إنما هو استثناء من الحكم الأصلي بحسب مقام الشخص وأحواله. ولهذا ينبه طلبته خاصة لهذه القاعدة في قوله: ''لا نقول لطلاب النور: تخلوا عن الزواج، دعوه للآخرين ولا ينبغي أن يقال لهم هذا الكلام. ولكن الطلاب أنفسهم على مراتب وطبقات. فمنهم من يلزم عليه ألا يربط نفسه بحاجات الدنيا، قدر المستطاع، في هذا الوقت، وفي فترة من عمره، بلوغاً إلى التضحية العظمى والثبات الأعظم والإخلاص الأتم. وإذا ما وجد الزوجة التي تعينه على خدمة القرآن والإيمان، فبها ونعمت، إذ لا يضر هذا الزواج بخدمته وعمله للقرآن. ولله الحمد والمنة ففي صفوف طلاب النور كثيرون من أمثال هؤلاء، وزوجاتهم لا يقصرن عنهم في خدمة القرآن والإيمان، بل قد يفقن أزواجهن ويسبقنهم لما فطرن عليه من الشفقة التي لا تطلب عوضاً، فيؤدين العمل بهذه البطولة الموهوبة لهن بإخلاص تام''.[11] فهذا مثال لحضور منهج اعتبار المآل عند النورسي في مجال الأحكام التكليفية في حكم المباح خاصة.

اعتبار المآل في التربية والسلوك

يبقى مجال التربية والسلوك أبرز مجال أعمل فيه النورسي هذا الأصل. وقد اهتدى النورسي إلى ذلك من خلال تدبره لآي القرآن الكريم وطول تفكره في أحوال الكون

والإنسان. فمن القضايا التي أخذت بعقله وسيطرت على تفكيره مسألة الزمان. فالزمان قيد تخضع له كل المخلوقات، فالإنسان والكون بجميع أجزائه الكبيرة والصغيرة، كل ذلك يجري عليه الزمان ضرورة، فهو تحت سلطانه اضطرارا. ومن آثار ذلك نفاذ الزوال إليها وجريان الفناء عليها. ومعنى هذا أن الحياة حلقات متوالية يؤدي بعضها إلى بعض ويتوقف بعضها على بعض. وإن حياة الإنسان تدل على هذا بوضوح. إن أحوال هذه الدنيا لا قرار فيها ولا ثبات، كلها تقلبات تلحّ على فكر الإنسان بهذا السؤال: ''إن جميع ما نملك لا يستقر ولا يبقى في أيدينا، بل يفنى ويغيب عنّا، أليس هناك من علاج لهذا؟ ألا يمكن أن يحل البقاء بهذا الفناء؟!''[12]

فالعمر ليس على صفة واحدة وإنما محطات متسلسلة تؤدي كل منها إلى التي تليها ضرورة. فالطفولة تؤدي إلى الشباب، والشباب إلى الرشد، والرشد إلى الكبر والكبر إلى الهرم، ولا يعقب الحياة إلا الموت. فلماذا لا يتخلف الترتيب ولو مرة واحدة، أو عند شخص واحد على الأقل؟ إنه قانون مطرد قطعا لأنه من آثار اسم الله المحيي واسم المميت واسم القهار وغيرها من أسماء الله الحسنى التي من آثارها حركة التجدد في الكون في كل لحظة.

والفائدة التي أقامها النورسي على هذه الحقيقة في مجال التربية والسلوك هي أن كل لحظة من لحظات حياة الإنسان تتوقف في صفتها على استحضار المكلف للحظة التي تؤول إليها. فليس سواء في الحال والسلوك من يحيى مستحضرا مستقبل أيامه ومن يحيى غافلا عنه.

ولهذا فإن مآلات الأحوال ومستقبلات الأيام والحياة ملك على النورسي أقطار نفسه وتفكيره، فكان مستحضرا لها مستشرفا لتفاصيلها، فكثيرا ما تجده يتحدث عن المآلات كأنه يراها في شاشة معنوية منصوبة أمامه، وأحيانا ينتقل بنفسه وبالقارئ معه في سفر خيالي إلى بعض محطات المستقبل فيستشرف كل التحولات ويصور جميع الصفات التي تؤول إليها الأحوال. فالقوة مآلها الضعف، والغنى مآله الفقر، والشباب مآله الهرم والشيخوخة، وجمال الصورة مآله قبح الهرم، وفتوة الجسم مآلها العجز، والحياة مآلها الموت، والوجود مآله الزوال، والحياة الدنيا مآلها الفناء، والدار الدنيا كلها مآلها ومنتهاها إلى الآخرة، فالدار الآخرة إذن غاية كل شيء ومستقبل كل مخلوق، وكل مستقبل من هذه المستقبلات إنما هو اقتراب منها وإيذان بدنوها.

والغرض المقصود من هذا أن يحصل الجمع في التفكير بين الحال والمآل، فالوقوف عند الحال وحده قصور. فعلى هذا النحو تحدث النورسي في رسائله عن الإنسان والحياة، فلا يذكر الشيء إلا مقرونا بمآله ولا اللحظة من الحياة الخاصة للفرد المكلف أو للحياة العامة في الكون إلا مستحضرا مآلها، لما في ذلك من التربية للمكلف. من ذلك مثلا أنه لما كان في السجن دخل في لحظة تفكير عميق يتأمل فيها شاشة معنوية أوحت له بها مشاهد الشباب فلنستمع إليه يحكي هذه الحادثة ذات العبرة له ولغيره، يقول: ''كنت في أحد أيام عيد الجمهورية جالسا أمام شباك سجن ''أسكي شهر'' الذي يطل على مدرسة إعدادية للبنات.. وكانت طالباتها اليافعات يلعبن ويرقصن في ساحة المدرسة وفنائها ببهجة وسرور، فتراءت لي فجأة على شاشة معنوية ما يؤول إليه حالهن بعد خمسين سنة، فرأيت أن نحواً من خمسين من مجموع ما يقارب الستين طالبة يتحولن إلى تراب ويعذبن في القبر، وأن عشرة منهن قد تحولن إلى عجائز ذميمات بلغن السبعين والثمانين من العمر، شاهت وجوههن وتشوه حسنهن، يقاسين الآلام من نظرات التقزز والاستهجان من الذين كنّ يتوقعن منهم الإعجاب والحب، حيث لم يصنّ عفتهن أيام شبابهن!.. نعم رأيت هذا بيقين قاطع، فبكيت على حالهن المؤلمة بكاء ساخناً أثار انتباه البعض من زملاء السجن، فأسرعوا إليّ مستفسرين. فقلت لهم: ''دعوني الآن وحالي... انصرفوا عني''. أجل، إن ما رأيته حقيقة وليس بخيال، إذ كما سيؤول هذا الصيف والخريف إلى الشتاء، فإن ما خلف صيف الشباب ووراء خريف الشيب، شتاء القبر والبرزخ. فلو أمكن إظهار حوادث ما بعد خمسين سنة من المستقبل مثلما يمكن ذلك لحوادث الخمسين سنة الفائتة – بجهاز كجهاز السينما– وعرضت حوادث أهل الضلالة وأحوالهم في المستقبل، إذن لتقززوا ولتألموا ولبكوا بكاء مراً على ما يفرحون منه الآن ويتلذذون به من المحرّمات في الوقت الحاضر''.[13] ونظر مرة من نافذة السجن إلى ضحكات البشرية المبكية، ثم نظر إليها من خلال عدسة التفكر في المستقبل والقلق عليه، فانكشف أمامه نظر خيالي عبر عنه بقوله: ''مثلما تشاهد في السينما أوضاع الحياة لمن هم الآن راقدون في القبر، فكأنني شاهدت أمامي الجنائز المتحركة لمن سيكونون في المستقبل القريب من أصحاب القبور.. بكيت على أولئك الضاحكين الآن، فانتابني شعور بالوحشة والألم. راجعت عقلي، وسألت عن الحقيقة قائلاً: ما هذا الخيال؟ قالت الحقيقة: إن خمسة من

كل خمسين من هؤلاء البائسين الضاحكين الآن والذين يمرحون في نشوة وبهجة سيكونون كهولاً بعد خمسين عاماً، وقد انحنت منهم الظهور وناهز العمر السبعين. والخمسة والأربعين الباقية يُرمّون في القبور. فتلك الوجوه الملاح، وتلك الضحكات البهيجة، تنقلب إلى أضدادها. وحسب قاعدة ''كل آت قريب'' فإن مشاهدة ما سيأتي كأنه آتٍ الآن تنطوي على حقيقة، فما شاهدته إذاً ليس خيالا''.[14]

* * *

وتحت هذا الأصل حمل المصائب التي تنزل بالإنسان على أنها من رحمة الله لأنها تحمل المبتلى على التفكر في المآل واستحضار المستقبل، وإن العافية قد تكون بلاء وفتنة لما تسببه من توهم الأمن والسلامة فتحصل الغفلة عن المآل وينسى المستقبل. فعن المرض والصحة قال مخاطبا المريض: ''فحاول التجمل بالصبر والثبات أمام هذا المرض، حتى تتحقق لك الإفاقة والصحوة؛ إذ بعد أن ينهي المرض مهامه سيشفيك الخالق الرحيم إن شاء''... ''إن قسماً من أمثالك يزعزعون حياتهم الأبدية بل يهدمونها مقابل متاع ظاهري لساعة من حياة دنيوية، وذلك لمضيّهم سادرين في الغفلة الناشئة من بلاء الصحة، هاجرين الصلاة ناسين الموت وغافلين عن الله ﷻ. أما أنت فترى بعين المرض القبرَ الذي هو منزلك الذي لا مناص من الذهاب إليه، وترى كذلك ما وراءه من المنازل الأخروية الأخرى، ومن ثم تتحرك وتتصرف على وفق ذلك. فمرضك إذاً إنما هو بمثابة صحةٍ لك، والصحة التي يتمتع بها قسم من أمثالك إنما هي بمثابة مرضٍ لهم''[15] فعلى هذا المشرب فالصحة مرض والمرض صحة.

وبهذا المشرب الخاص أيضا فإن الموت –وهو أكبر المصائب– يغدو ذا وجه منور جميل، وما ذلك إلا باستحضار مآله وما يعقبه. إن الموت –باعتبار المآل– ليس فناء نهائيا ولا فراقا سرمديا، وإنما هو تسريح من مهمة، وإعلان عن إنهاء وظيفة التكليف في الدنيا، واستبدال دار بدار وحياة بحياة، وتسريح من سجن الدنيا، واستراحة من أعباء الحياة وتخلص من بلائها، ووصال مع الأحبة ممن رحل إلى عالم البرزخ، من الأجداد والآباء، والصالحين من عباد الله، ويكفي من هذا الوصال الوصال مع سيد البشر ورأس الأحبة عند المسلم محمد رسول رب العالمين ﷺ، وأعظم من هذا كله أنه دخول في رعاية الله تعالى الودود. فالموت في ظاهره زوال وفناء، لكن باعتبار مآله طريق البقاء وسبيل الوصال مع أعظم الأحبة، وعبور نحو الجمال الباقي في كنف

رحمة الخالق العظيم ورؤية وجه الجليل الجميل حيث قمة السعادة وغاية اللذة،[16] وهذا كله مجموع بإيجاز وإعجاز في قول الرسول ﷺ: ''من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه''.[17]

* * *

ومن آثار هذا المسلك أيضا عند النورسي أن نعيم الدنيا ولذاتها ليس مقصودا لذاته، لأنه ليس جمالا حقيقيا وإنما هو لذة متوهمة، ودليل ذلك أنه ليس نعيما خالصا وإنما مشوب بمشقة العيش وخطوب الحياة، ولأنه زائل فان وحقيقة الجمال تقتضي البقاء وليس الزوال. ومعنى هذا أن نعيم الدنيا ليس مقصودا في الحال لأنه غير خالص، ثم لأنه قد يورث عذابا غامرا وشقاء سرمديا مثل نزوة يقضي بها لذة عابرة تورث أمراضا جسدية ونفسية وعقلية، وتؤول إلى عذاب في الآخرة. وليس من الجمال واللذة شهوة يسيرة عابرة تؤول إلى شقاء عظيم دائم. فلم يبق لنعيم الدنيا من مقصد في الحال إنما المقصد منه المآل. فالإنسان في الدنيا يرشح نفسه ويعدها لكمال الجمال وتمام السعادة عند رؤية الله تعالى الجليل الجميل في بحبوحة الجنة، ومن رحمة الله به أن جعل له لذة الدنيا بمنزلة قبس يسير وظل حقير من اللذة من أجل التذكير وفتح الشهية إلى هذا المقام.[18] وهذا هو الوجه المحبوب شرعا من الدنيا لأنه يجعل لذات الدنيا طريقا سالكا إلى مرضاة الله تعالى ويجعل الدنيا معرضا لتجليات أسماء الله الحسنى وإظهار آثارها الجميلة. قال النورسي: ''أما محبتك للدنيا محبةً مشروعة، أي محبتك لها مع التأمل والتفكر في وجهيَها الجميلين اللذين هما: مزرعة الآخرة ومرآة التجليات للأسماء الحسنى فإن نتيجتها الأخروية هي أنه: سيَهَب لك جنة تسع الدنيا كلها، ولكنها لا تزول مثلها، بل هي خالدة دائمة. وستظهر لك في مرايا تلك الجنة تجليات الأسماء الحسنى بأزهى شعشعتها وبهائها، تلك التي رأيت بعض ظلالها الضعيفة في الدنيا. ثم إن محبة الدنيا في وجهها الذي هو مزرعة للآخرة، أي باعتبار الدنيا مشتلاً صغيراً جداً لاستنبات البذور لتتسنبل في الآخرة وتثمر هناك، فإنّ نتيجتها هي: أثمار جنة واسعة تسع الدنيا كلها... ولما كانت محبتك للدنيا ليست لذلك الوجه المذموم الذي هو رأس كل خطيئة، وإنّما هي محبة متوجهة إلى وجهَيها الآخرين أي إلى الأسماء الحسنى والآخرة، وقد عقدت –لأجلهما– أواصر المحبة معها وعمّرت ذينك الوجهين على نية العبادة، حتى كأنك قمت بالعبادة بدنياك كلها...

فلابد أن الثواب الحاصل من هذه المحبة يكون ثواباً أوسع من الدنيا كلها، وهذا هو مقتضى الرحمة الإلهية وحكمتها''.[19]

ولعل قائلا يقول أليس التفكر في هذا المآل له مفاسد لأن فيه شؤما من الحياة والمطلوب التفاؤل وتحريك قوى الإبداع والعمل في الدنيا؟ إن النورسي يسعف في الجواب فيبين أن هذا المشرب وحده هو الذي يورث التفاؤل واللذة ويمنح القوة المعنوية الكافية للحياة. ويكفي من ذلك أن النورسي نفسه بعد أن سلك هذا المسلك كانت حياته كلها حياة جد وعمل وصبر ومصابرة على تحمل للمعاناة، مع لذة نفسية وروحية غامرة. فلنستمع إليه وهو يصف الفائدة التي حصلت له من اعتبار هذا المآل. فبعد أن وجد نفسه وحيدا منفيا في بارلا، ممنوعا من التواصل مع الناس، يعاني آلام المرض والشيخوخة والغربة، يذهب ويجيء في وديان بارلا حزينا وحيدا، إذا بنور من أنوار القرآن الكريم يعلو قلبه لما قرأ قول الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.القصص:٨٨ ففكر في مآله ومآل الدنيا كلها فوجد اللذة والسلوان قال رحمه الله:

''أجل!.. رأيت نفسي بسرّ هذه الآية الكريمة، وعبر تلك الوديان الخالية، ومع تلك الحالة المؤلمة، رأيتها على رأس ثلاث جنائز كبرى... الأولى: رأيت نفسي كشاهد قبر يضم خمساً وخمسين سعيداً ماتوا ودفنوا في حياتي، وضمن عمري الذي يناهز الخامسة والخمسين سنة. الثانية: رأيت نفسي كالكائن الحي الصغير جداً –كالنملة– يدب على وجهه في هذا العصر الذي هو بمثابة شاهد قبر للجنازة العظمى لمن هم بنو جنسي ونوعي، والذين دفنوا في قبر الماضي منذ زمن آدم عليه السلام. أما الثالثة: فقد تجسّمت أمام خيالي –بسرّ هذه الآية الكريمة– موت هذه الدنيا الضخمة، مثلما تموت دنيا سيارة من على وجه الدنيا كل سنة كما يموت الإنسان.. وهكذا فقد أغاثني المعنى الإشاري للآية الكريمة: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾،''التوبة:١٢٩ ''وأمدني بنور لا يخبو، فبدد ما كنت أعانيه من الحزن... واهباً لي التسريَ والتسلي الحقيقي. نعم لقد علمتني هذه الآية الكريمة أنه مادام الله سبحانه وتعالى موجوداً فهو البديل عن كل شيء، وما دام باقياً فهو كافٍ عبده، حيث إن تجلياً واحداً من تجليات عنايته سبحانه يعدل العالم كله، وإن تجلياً من تجليات نوره العميم يمنح تلك الجنائز الثلاث حياة معنوية أيما حياة، بحيث تظهر أنها ليست

جنائز، بل ممن أنهوا مهامهم ووظائفهم على هذه الأرض فارتحلوا إلى عالم آخر".[20] فقد منحه هذا المآل قوة معنوية عظيمة يعلو بها على الدنيا ويقوى بها على كل ما يلتبس بها من المشاق والمعاناة. ويزيد في الإفصاح عن هذه الفائدة فيقول: "ليرحل مَن يرحل يا إلهي فأنت الباقي وأنت الكافي، وما دمتَ باقياً فَلَتجلِّ من تجليات رحمتك كافٍ لكل شيء يزول، ومادمتَ موجوداً فكلّ شيء إذاً موجود لمن يدرك معنى انتسابه إليك بالإيمان بوجودك ويتحرك على وفق ذلك الانتساب بسر الإسلام، فليس الفناء والزوال ولا الموت والعدم إلاّ ستائر للتجديد، وإلاّ وسيلة للتجول في منازل مختلفة والسير فيها... فانقلبتْ بهذا التفكير تلك الحالة الروحية المحرقة الحزينة، وتلك الحالة المظلمة المرعبة إلى حالة مسرّة بهيجة ولذيذة، وإلى حالة منورة محبوبة مؤنسة، فأصبح لساني وقلبي بل كل ذرّة من ذرات جسمي، يردد بلسان الحال قائلاً: الحمد لله. ولقد تجلى جزء من ألف جزء من ذلك التجلّي للرحمة بهذه الصورة".[21]

استشراف المستقبل

ومن منهج النورسي أيضا استشراف المستقبل عن طريق التدبر في أحوال الحاضر وتحكيم سنن الاجتماع وقوانين المعاش، ومحاولة الاهتداء إلى ما تؤول إليه الأحوال. ففي غمرة التحولات التي حصلت في الدولة العثمانية نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين من إعلان الدستور ورفع شعار الحرية، كان للنورسي نظر دقيق إذ انتهي إلى أن هذا التحول إنما هو سير نحو العلمانية لأن الحرية في ظل تلك الظروف لا تعني سوى شيئا واحدا هو التحلل من الدين. ولهذا أعلن عن نتيجة نظره فقال مستشرفا مستقبل العالم الإسلامي ومستقبل أوروبا بالنسبة لعصره:

"كان سعيد القديم يخبر طلابه –في مؤلفاته القديمة... ويقول لهم مكرراً: ستحدث زلزلة اجتماعية بشرية عظيمة، زلزلة مادية ومعنويةً... حتى إنه في السنة الأولى من عهد الحرية سأل الشيخ بخيت –مفتى الديار المصرية– سعيداً القديم: ما تقول في حق هذه الحرية العثمانية والمدنية الأوربائية؟ فأجابه سعيد: إن الدولة العثمانية حاملة بدولة أوروبائية وستلد يوماً ما، وإن أوروبا حاملة بالإسلام وستلد يوماً ما".[22] وبالنسبة لحركة الإصلاح في العالم الإسلامي فإنه من خلال نظرة فاحصة يحكمها الإنصاف والتجرد عن العواطف، رأى أن الركود الفكري والعلمي والسياسي

والاقتصادي في العالم الإسلامي في عصره أكبر من أن يتم إصلاحه في ظرف وجيز، فخلص إلى أن التغيير المنشود لن تكتحل عينه برؤيته وشهوده، فخبر حال عصره، ووضع نفسه موضعها، وجعل غايته أن يبذر بذور الربيع، أما نموها واستواؤها فذلك ليس له وليس مما ينال في زمنه أو قريب منه، لكنه آت، لأن زمانه زمان الغرس وسيأتي الحصاد في زمانه، لكن لا حصاد من غير غرس، لأنه كما قيل:

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصدا ندمت على التفريط في زمن البذر

وكما قيل أيضا:

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبا فما حيلة المضطر إلا ركوبها

وقد عبّر النورسي عن هذه الحقيقة وهو يحاور نفسه وهي تعاني الألم والحسرة من هذه الحقيقة المرة فقال: ''ماذا أفعل؟ إن قدري دفعني إلى هذه الدنيا في زمان غير زماني... إنه شتاء الإسلام الكابي الحزين، لا حيلة لي إلا أن أبذر بذور الربيع القادم الذي لا يريد أن يبصره هذا العصر. وحين تنبت هذه الزهور وتتسنبل ويأتي ربيعها أكون قد فارقت الدنيا، لكني سوف أتنسم نسمات ربيع الإسلام وأنا راقد في قبري. فاستشراف مستقبل الإسلام هو عزائي وسلوتي في غربتي. ''فكأنه هنا يستعمل معنى إشاريا لحديث النبوي: ''إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لايَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ''.[23]

ومن حكمة النورسي وعمله بمنهج المقاصد والغايات، استشرافه لمستقبل دعوته ومآل فكره ورسائله التي تفانى في نشرها هو وطلبته. فقد خبر رحمه الله طلبته فرأى شدة محبتهم له وقوة تعلقهم برسائل النور بسبب ما وجدوا فيها من السلوان الفكري والروحي، وآنس منهم حسن الخلق وعلو الهمة والتفاني في أنوار الهداية القرآنية التي أشربتها قلوبهم من خلال رسائل النور، ورغبتهم الشديدة في نشرها وتبليغا، ومن خلال كل ذلك تصور مآل دعوته ورسائله بعد موته وهو ما عبر عنه بقوله: ''أما من حيث العمل للقرآن فلقد وهب لي الله سبحانه وتعالى إخوانا ميامين في العمل للقرآن والإيمان، وستؤدى تلك الخدمة الإيمانية عند مماتي في مراكز كثيرة بدلا من مركز واحد. ولو أسكت الموت لساني فستنطلق ألسنة قوية بالنطق بدلا عني وتديم تلك الخدمة... فآمل أن يكون موتي كذلك وسيلة لخدمة القرآن أكثر من حياتي''.[24]

هذه بعض معالم اعتبار المآل واستشراف المستقبل عند النورسي، في مجال فهم الخطاب الشرعي وتنزيله على محله، وفي مجال التربية وترسيخ السلوك، وفي مجال السياسة وعلم المستقبليات.

* * *

وأختم هذا العرض بموقف روحي رقيق للنورسي، في لحظة تأمل وتفكر، وقد رأى ملامح وجهه وجسده يسري فيها الزمان وتقدم العمر، فجعل يستحضر مآله المحتوم، فرحل بعقله وقلبه وخياله إلى بعض محطات مستقبل حياته ووجوده، في مناجاة رقيقة في منازل القربى إلى ربه تبارك وتعالى. وفي سبب كتابته لتضرعه هذا قال: ''إني قد أكتب تضرّع قلبي إلى ربّي مع أن من شأنه أن يُستَر ولا يُسطَر، رجاءً من رحمته تعالى أن يقبل نُطق كتابي بدلاً عني إذ أسكت الموت لساني... نعم، لا تسع توبة لساني في عمري القصير كفارة لذنوبي الكثيرة، فنطقُ الكتاب الثابت الدائم أوفى لها. فقبل ثلاث عشرة سنة وأثناء اضطراب روحي عارم وفي غمرة تحول ضحكات ''سعيد القديم'' إلى بكاء ''سعيد الجديد'' أفقت من ليل الشباب على صبح المشيب فسطرت هذه المناجاة باللغة العربية''. فقال رحمه الله:

يا ربي الرحيم ويا إلهي الكريم!

قد ضاع بسوء اختياري عمري وشبابي، وما بقي من ثمراتها في يدي إلاّ آثام مؤلمة مُذلّة، وآلام مضرّة مُضلّة، ووساوسُ مزعجة معجزة، وأنا بهذا الحمل الثقيل، والقلب العليل، والوجه الخجيل متقربٌ –بالمشاهدة، بكمال السرعة بلا انحراف وبلا اختيار كآبائي وأحبابي وأقاربي وأقراني– إلى باب القبر، بيت الوحدة والانفراد في طريق آبد الآباد، للفراق الأبدي من هذه الدار الفانية الهالكة باليقين، والآفلة الراحلة بالمشاهدة، ولا سيما الغدارة المكارة لمثلي ذي النفس الأمارة.

فيا ربي الرحيم ويا ربي الكريم!

أراني عن قريب لبستُ كفني وركبت تابوتي، وودعت أحبابي، وتوجهت إلى باب قبري، فأنادي في باب رحمتك: الأمان الأمان يا حنان يا منّان، نجني من خجالة العصيان.

آهٍ.. كفني على عنقي، وأنا قائم عند رأس قبري، أرفع رأسي إلى باب رحمتك أنادي: الأمان الأمان يا رحمن يا حنّان، خلصني من ثقل حمل العصيان.

آهٍ... أنا ملتف بكفني وساكن في قبري وتركني المشيعون، وأنا منتظر لعفوك ورحمتك... ومشاهدٌ بأن لا ملجأ ولا منجأ إلاّ اليك، وأُنادي: الأمان الأمانَ من ضيق المكان، ومن وحشة العصيان، ومن قبح وجه الآثام. يا رحمن يا حنان... يا منّان... ويا ديان نجني من رفاقة الذنوب والعصيان..

إلهي! رحمتك ملجئي ووسيلتي، وإليك أرفع بثي وحزني وشكايتي.

يا خالقي الكريم، ويا ربي الرحيم، ويا سيدي، ويا مولاي.. مخلوقك، ومصنوعك وعبدك العاصي العاجز، الغافل الجاهل، العليل الذليل، المسيء المسن، الشقي الآبق، قد عاد بعد أربعين سنة إلى بابك ملتجأً إلى رحمتك، معترفاً بالذنوب والخطيئات مبتلى بالأوهام والأسقام، متضرعاً إليك... فإن تقبل وتغفر وترحم فأنت لذاك أهلٌ وأنت أرحم الراحمين وإلاّ فأيّ بابٍ يُقصد غير بابك... وأنت الرّبُ المقصود والحق المعبود. ولا إله إلاّ أنت وحدك لا شريك لك... آخر الكلام في الدنيا وأول الكلام في الآخرة وفي القبر: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله."[25]

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

الهوامش:

[1] كلية الآداب –أكادير- المغرب.

[2] الموافقات ١١٠/٤. ''تحقيق الخضر حسن – حسنين مخلوف. دار إحياء الكتب العربية. بيروت. بدون تاريخ.''

[3] نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي ''أحمد الريسوني ص: ٣٥٣.'' ط١، ١٩٩١ م. ''هيرندن، فيرجينيا. المعهد العالمي للفكر الإسلامي''.

[4] ''الموافقات'' ٤٧/٣.

[5] الموافقات ١٢٨/١ ''تحقيق عبد الله دراز. دار المعرفة بيروت. بدون تاريخ''.

[6] ينظر: ''الموافقات ٨٥/١. '' ''نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي'' ص: ١٦٥١٦٦.

[7] ينظر: ''نظرية التقعيد الفقهي'' د. محمد الروكي ص: ١٤٥١٤٩. ''ط:١ – ١٩٩٤م. منشورات كلية الآداب بالرباط. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء''.

[8] كليات رسائل النور: الملاحق / ملحق أميرداغ/٢، ص: ٤٠١.

[9] ذهب الخطيب البغدادي إلى كراهة الزواج لمن سيشغله عن العلم. وصنف الشيخ عبد الفتاح أبو غدة كتابا في ''العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج''.

[10] كليات رسائل النور: الملاحق ملحق أميرداغ/٢، ص: ٤٠٢.

[11] كليات رسائل النور: الملاحق/ ملحق أميرداغ/٢ ص:٤٠٢ – ٤٠٣.

[12] كليات رسائل النور: الكلمات، ص: ٢٣.

[13] كليات رسائل النور: الشعاعات، ص: ٢٤٧.

[14] كليات رسائل النور: اللمعات، ص: ٤٤٦.

[15] كليات رسائل النور: اللمعات، ص: ٣١٩.

[16] ينظر: ''نحو نظرية إسلامية للجمال من خلال رسائل النور'' د. عبد الكريم عكيوي. ضمن أعمال ندوة الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر: النورسي نموذجا'' ص: ٧٥ – ٧٦.

[17] صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه.

[18] ينظر: ''نحو نظرية إسلامية للجمال'' ضمن أعمال ندوة: ''الجمالية في الفكر الإسلامي المعاصر'' ص: ٥١ – ٥٢.

[19] كليات رسائل النور: الكلمات، ص: ٧٧٧ – ٧٧٨.

[20] كليات رسائل النور: اللمعات، ٣٧٥ – ٣٧٦.

[21] كليات رسائل النور: اللمعات، ص: ٣٧٦ – ٣٧٧.

[22] كليات رسائل النور: الملاحق ملحق أميرداغ/٢، ص: ٣٨٦

[23] مسند أحمد، مسند أنس بن مالك.

[24] كليات رسائل النور: المكتوبات، ص: ٥٤٩.

[25] كليات رسائل النور: اللمعات، ص: ١٩٦ – ١٩٨.

مشكلة الثقافة والحضارة في العالم الإسلامي
من منظور مالك بن نبي

د. بوعزة عبد القادر[1]

تعتبر مشكلة الثقافة والحضارة في العالمين العربي والإسلامي من أهم المشكلات التي اعتنى بها مالك بن نبي في جميع مؤلفاته.

ونظرا لأهمية وظيفة الثقافة في الحياة بوجه عام، فإن مالك بن نبي ظل يثيرها في هذا الكتاب أو ذاك، بل إنه لكون الثقافة عنصرا حيويا، خصص لدراسة وظيفتها الاجتماعية ثلاث مؤلفات هي: ''مشكلة الثقافة'' و ''مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي'' و ''القضايا الكبرى'' وذلك تأكيدا على تأثيرها العظيم وأهمية وظيفتها، وبهذا منحها ما تستحق من درس وتحليل من ناحية أخرى.

كما أن مالك بن نبي لم ينظر إلى المشكلة الثقافية في البلاد العربية والإسلامية من الناحية المادية والمَرْفقية والتجهيزية، إذ إن هذه المشكلة في نظره ليست نابعة من نقص في المؤسسات التربوية والتعليمية أو من قلة المدرسين والمكونين أو المؤطرين أو الموجهين أو من نقص في الوسائل التجهيزية.

وذلك لأنّ جميع البلدان العربية والإسلامية كانت ولا تزال تولي مسألة بناء المدارس والمعاهد والجامعات ومراكز التكوين والمساجد ودور الحضانة ومسألة تجهيزها اهتماما كبيرا.

كما أن بعض البلدان العربية والإسلامية مثل مصر وسوريا والعراق وباكستان سارعت في النصف الثاني من القرن الماضي إلى إعانة البلدان العربية والإسلامية التي

كانت تشكو –بعد حصولها على استقلالها وانتزاع حريتها– من نقص المدرسين والمؤطرين وأمدتها بما كانت في أمس الحاجة إليه.

كل ما ذكرناه آنفا ومتعلّقاته، لم يثر اهتمام مالك بن نبي، حين عرض المشكلة الثقافية في البلاد العربية والإسلامية، وإنّما نظر إليها من حيث وظيفتها الاجتماعية.[2] تلك الوظيفة الاجتماعية المفقودة في البلدان العربية والإسلامية هي التي جعلته يعتبر الثقافة مشكلة ويصرّ على إثارتها في سائر كتبه كلما استدعى المقام إثارتها، لأنه وهو المفكر الذي كان يتأمل وظيفة الأفكار من خلال سلوك الأفراد وأسلوب الحياة في المجتمع الغربي وانعدامها في العالمين العربي والإسلامي، لاحظ أن السبب في عدم فعالية الأفكار في عالمنا العربي والإسلامي هو أنّ أغلب الناس فيه، يخلطون بين كلمة ثقافة وكلمة علم أو بين مفهوم ثقافة ومفهوم علم.[3] فهذا الخلط بين الكلمتين وعدم التمييز بين المفهومين هو منبع إثارة مالك بن نبي لمشكلة الثقافة، كما هو في الوقت ذاته منبع اعتقاد الإنسان على محور طنجه جكارتا، أن الثقافة هي مجرد معرفة أو علم وليست الثقافة هي الإطار المعنوي والمادي الذي يحيط بالفرد ويؤثر في سلوكه وفي أسلوب حياة مجتمعه تأثيرا إيجابيا أو سلبيا.

وإضافة إلى ما سبق؛ فإنّ مشكلة الثقافة بالنسبة للبلدان العربية والإسلامية، تكمن أساسا في نظر مالك بن نبي في الكيفية التي يتم بها تصور العناصر الثقافية الآتية: المبدأ الأخلاقي، الذوق الجمالي، المنطق العملي، الفن الصياغي في وحدة متجانسة أو برنامج تربوي،[4] هذا التصور ينبغي أن يتناول بالإضافة إلى الأفكار الأصلية والأفكار الفنية المستحدثة، سائر ما يتركب منه إطار حياة المجتمع،[5] قصد بناء محيط ثقافي جديد خال من كل ما يجسّد القابلية للاستعمار، بحيث يتاح فيه لكل فرد من أفراد المجتمع، أن يتعلم كيف يتحضّر وكيف يحضّر غيره.[6]

وكيفية تصوّر العناصر الثقافية في وحدة متجانسة أو في برنامج تربوي لا يقصد به مالك بن نبي كيفية إعداد البرامج التي تطبّق في المدارس لأنّ ''الفرد لا يدين بصفاته الاجتماعية لتشكيله المدرسي، ولكن لشروط خاصة بواسطة [ولأن] المدرسة عامل مساعد من عوامل الثقافة... وهي لا يمكنها أن تقوم بدور العامل المساعد إلاّ في الحدود التي تندمج فيها وظيفتها ضمن الخطوط الكبرى لمشروع ثقافة''.[7]

وعلى هذا الطرح لا يمكن لمفهوم (ثقافة) أن يكون مرادفا لمفهوم (علم)، لأنّه قد لا يتيسّر طلبه إلا لبعض الفئات القليلة في المجتمع، كما أنه قد لا تجد فيه الفئات في المجتمع المناخ الذي يساعدها على تحويل الحقائق العلمية إلى منجزات حضارية معنوية أو مادية.[8]

كما أن مفهوم الثقافة وفق رؤية بن نبي، لا يمكن حصره في المعرفة العلمية أو المعرفة العامة بالمبادئ الخلقية والقيم الاجتماعية والجمالية المجردة،[9] بل ينبغي أن يمتد ليشمل كلّ ما له علاقة بالإطار العام الذي يتحرك فيه الإنسان الأفروسيوي؛ فهذا الإطار يختلف في حقائق منظره الإنساني وفي حقائق نموذجه الاجتماعي عن الإطار التي يتحرك فيه الإنسان المتقدم في أوربا أو أمريكا أو اليابان أو الصين،[10] وهذا مما يؤكّد أن ليس لمشكلة الإنسان أو التراب أو الوقت في البلاد العربية والإسلامية علاقة بالعلم أو المعرفة بقدر ما لها علاقة بالثقافة كمركب اجتماعي.[11]

ولئن كان لكل مشكلة من مشكلات الحضارة سواء كانت أدبية أو مادية، صلة بمشكلة الثقافة، فإن إمكانية حلّ هذه المشكلات متوقف على مراعاة هذه الصلة، لأنها الشرط الجوهري في التوصّل إلى حلّها وفي وضع إجراءات تطبيقاتها ميدانيا.[12] ولذلك ففي نظر مالك بن نبي أنه ''لكي نرفع الكتلة العربية الأسيوية من مستور التلفيق والاصطناع السياسي إلى مستوى مفهوم الحضارة، يجب أن نأخذ في اعتبارنا عاملين هما: الرجل والمنظر الذي يشمله 'أو' حامل الثقافة وإطاره الذي يحيط به''.[13] بل إنّه لكي يكون للبلاد العربية والإسلامية قدرة على تنفيذ خطط مشاريعها التنموية أو قدرة على الإتيان بالحلول المناسبة للمشكلات التي لها صلة بالإنسان أو بالتراب أو الوقت أو بها جميعا ''يتعين أولا ''أن تكون البلاد المتخلفة على اقتناع بأنّ تثقيف الإنسان أكثر أهمية من تثقيف نبات الأرض''.[14]

أثار مالك بن نبي منذ أكثر من خمسين عاما مشكلة تثقيف الإنسان الأفروسيوي؛ إذ لاحظ إهماله للتراب وعدم اهتمامه بالوقت، على الرغم من أنّهما المادتان الأساسيتان بالنسبة لكل المجتمعات في عملية البناء الحضاري، ولكن هذا الرأي الذي يربط فيه مالك بن نبي مشكلات الحضارة بمشكلة الثقافة، لم يجد في العالم الإسلامي باستثناء أندونيسيا وماليزيا آذانا صاغية.

وعدم اكتراث العالم العربي والإسلامي بأفكار مالك بن نبي عن مشكلات الحضارة هو-وأسباب أخرى- ما يُمكِّن لاستمرار هاتين المشكلتين في جلّ الأقطار العربية والإسلامية، بل إن عدم الالتفات إلى ربط مشكلات الحضارة: مشكلة الإنسان، والتراب، والوقت بمشكلة الثقافة، ضاعف من حدّة مشكلة تصحّر التراب وتلويث البيئة وانخفاض نسبة الانتفاع بالمياه المتساقطة والمجمعة خلال النصف الثاني من القرن ٢٠م[15] وبداية هذا القرن.

فبالنسبة لمشكلة التصحر في العالم العربي والإسلامي، فإن الجزائر على سبيل المثال فقدت في الفترة الممتدة مابين ١٩٩٢ وبين ٢٠٠٠م ثمانية ملايين هكتار من الأراضي التي كانت صالحة للزراعة والتشجير،[16] فإذا أخذنا بعين الاعتبار لما يجري في أفغانستان وباكستان والعراق واليمن وسوريا ومصر ولبنان وليبيا، فإن هذه المساحة تزداد اتساعا وبالتالي يصبح الأمن الغذائي في خطر وتكون أسباب تبعية العالم العربي والإسلامي للغرب قد زادت بدل من أن تنقص.

وأمّا بالنسبة لمشكلة المياه المتساقطة والمجمعة، فإنّ كل الأقطار العربية والإسلامية حتى تلك التي توجد فيها أنهار طوال فصول السنة، مهددة كل سنة بفقد نسبة كبيرة من هذه المادة، التي هي أصل الحياة، بل إن بعض الأقطار إن لم تول هذه المشكلة اهتماما كبيرا ستجد نفسها في المستقبل القريب أو البعيد مضطرة للعمل بسياسة التقشّف في استهلاك هذه المادة.

وهذا مما يؤكد وجهة نظر مالك بن نبي المتعلقة بالحلول المناسبة للمشكلات التي تتصل بعناصر الحضارة:- الإنسان والتراب والوقت- في البلاد الأفروسيوية، هي أنها لا تتيسّر للتفكير الذي يعتبر على سبيل المثال مشكلة التصحر أو مشكلة انخفاض نسبة المياه في الأودية والسدود أو مشكلة تناقص الإنتاج الزراعي أو مشكلة تضييع الوقت أو مشكلة ارتفاع نسبة البطالة أو كل هذه القضايا التي نعاني منها، هي مشكلة إمكان حضاري أو تجهيز أو وسائل، وإنما يتيسّر حلّها للتفكير الذي يعتبرها مشكلة ثقافة،[17] عندئذ لن يكون الإنسان الأفرسيوي عاجزا عن إيجاد حلول لهذه المشكلات وبناء صرح حضاري إسلامي، ومن ثم ''لن يكون هذا الإنسان فريسة سهلة إذا ما اتجه إلى تثقيف طرائق تفكيره وطرائق عمله، طبق منطق عملي يخطط نشاطه ومنطق عملي موضوعي ينظم فكره وإذا ما تخلّص من الخرافات التي تكفّ نشاطه وتحد من

فاعليته"،[18] ولذلك فلكي تتمكن البلاد العربية والإسلامية من الإتيان بالحلول المناسبة لهذه المشكلات الحضارية على الآماد القريبة والمتوسطة والبعيدة ينبغي القيام بما يأتي:

أولا: معالجة مشكلة الثقافة بتحديد مفهومها ومفهوم العلم والتعليم وبالتالي تحديد وظيفتها بالنسبة لوظيفة العلم والتعليم.

ثانيا: تحديد المبادئ العامة والعناصر والظواهر الطبيعية التي يشملها مفهوم "ثقافة".[19]

ثالثا: صياغة ما يتضمنه مفهوم "ثقافة" من مبادئ وعناصر وظواهر في برنامج تربوي صالح لتثقيف جميع الشرائح التي يتركب منها المجتمع.[20]

رابعا: وضع هذا البرنامج موضع التطبيق لتحقيق الثقافة بصورة عملية في حياتنا الخاصة والعامة.[21]

وهذه الإجراءات المتعلقة بحل مشكلة الثقافة في العالمين العربي والإسلامي وإن كانت لا تُنشئ حلا عاجلا لمشكلات عناصر الحضارة فيهما، فإنها تستطيع أن تساهم في خلق بيئة ثقافية جديدة تمكّن الإنسان مع مرور الأيام من اكتساب المنطق العملي الذي ييسّر له معرفة كيفية الربط بين العمل وبين الوسائل والمقاصد، أو بين الفكرة والعمل، أو بين المُثل، أو بين القيم أو المبادئ وبين السلوك، أو بين المادة والروح، أو بين العلم والضمير. إنّه باختصار يجعله يعرف كيفية الربط بين ما تتطلبه منه الدنيا وبين ما تتطلبه منه الآخرة.[22] ومع الوعي المتزايد والحركة المتنوعة، مع هذين العاملين الهامين في البناء الحضاري، الذين أخذا بالانتشار على محور طنجة حكارتا، يمكن لهذه الإجراءات العملية أن تضاعف من مستوى وعي الإنسان مسلما كان أو مسيحيا ومن مستوى إدراكه لهذه الحقيقة المتمثلة في أنّ: « نهضة العالم الإسلامي... ليست في الفصل بين القيم وإنما هي في أن يجمع بين العلم والضمير، بين الخلق والفن، بين الطبيعة وما وراء الطبيعة حتى يتسنى له أن يشيّد عالمه طبقا لقانون أسبابه ووسائله، وطبقا لمقتضيات غاياته ».[23]

بيد أنّ التحكم في عملية نهضة التغيير الثقافي الاجتماعي التي بدأت تحدث في العالم العربي والإسلامي ليس متوقفا على مستوى قدرة هذه البلدان على تحديد

المحتوى الثقافي الذي ترغب في إعداده وصياغته في برنامج تربوي فحسب، بل هو أيضا متوقف على مستوى قدرتها على توجيه هذه العملية طبقا للغايات المطلوب من الفرد والمجتمع المسلم بلوغها.[24]

تحديد مفهوم الثقافة:

إن القارئ المهتم بما كتب مالك بن نبي عن مشكلات الحضارة أو عن القضايا الكبرى في العالم العربي والإسلامي، يجده منذ ''الظاهرة القرآنية'' إلى محاضراته الموسومة بمجالس دمشق أو الموسومة بـ ''دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن ٢٠م'' يؤكد على أن تحديد المفاهيم بوجه عام، ومفهوم ''ثقافة'' و ''حضارة'' بوجه خاص، أمر ضروري وهام للعمل من أجل إعادة تجديد النهضة العربية والإسلامية أو من أجل تغيير الإنسان والإطار الذي يحيط به.[25]

وعلى الرغم من أنّ مالك بن نبي يعتبر مسألة تحديد المحتوى الثقافي وصياغته في برنامج تربوي أمرا ضروريا لعملية تجديد النهضة،[26] إلاّ أن ذلك يبقى في نظره دون مستوى المهام الصعبة التي تواجه عملية التجديد ما لم نأخذ بعين الاعتبار مشكلة تحديد مفهوم الثقافة،[27] لأنّ الإتيان بالحلول المناسبة للمشكلات التي تتصل بالإنسان أو التراب أو الوقت تتوقف على تحديد مفهوم ''ثقافة'' ومفهوم ''حضارة'' أو تبقى مرهونة بهذا التحديد.

وذلك، لأنّه إذا كان قد مر على ميلاد النهضة أو على عهد التنظيم والتركيب والتوجيه في البلاد العربية والإسلامية أقرب من مائة وخمسين سنة ولم تزل هذه البلاد ذات قابلية نفسية وفكرية للتبعية الغربية وللاستعمار الجديد، فإنّ ذلك مما يحتم عليها أن تعيد النظر في عالم أفكارها: تقويما وتنظيما وتوجيها[28] مادامت كل الحلول المستوردة لم تأت أكلها، لأنّ النظريات التي اقتبست منها دولنا هذه الحلول، ليست هي المفجر الذي يطلق قوى العالم الإسلامي.[29]

بيد أنه لكي يكون لعملية تقويم عالم الأفكار وتنظيمه وتوجيهه معنى وفاعلية في الحياة العملية للفرد والمجتمع العربي والإسلامي، يجب أن نبدأ من هذا السؤال؛ ما هي الثقافة؟ وماهو العلم؟ وما الفرق بينهما؟ وما هو التثقيف؟ وما هو التعليم؟ وهل مفهوم ثقافة وتثقيف مرادف لمفهوم علم وتعليم؟ وهل كلّ متعلّم وعالم مثقف؟

لقد طرح مالك بن نبي هذه الأسئلة وغيرها في كتابه مشكلة الثقافة، وأخذ يبحث لها عن إجابة، ولكن ليس على مستوى القواميس أو المعاجم اللغوية أو الأدبية أو الفلسفية، وإنما على مستوى الواقع؛ واقع حياة الفرد الذي ينتمي إلى المجتمعات المتقدمة وواقع حياة الفرد الذي ينتمي إلى المجتمعات المتخلفة أو بتعبير آخر على مستوى واقع المجتمعات التي تنتمي الى القارّة التي تملك إرادة وقدرة وعلى مستوى واقع المجتمعات التي تنتمي إلى القارة التي لا تملك هذه الإرادة وهذه القدرة.

وبفحصه لهذه الإجابة المستقاة من واقعين مختلفين تبيّن له أنّ من مفهوم الثقافة نستبين أنّه ليس بالضرورة أن يكون كل متعلم مثقفا،لأنه لو كان العلم هو الثقافة والتعليم هوالتثقيف لما كان للمهتم مثل مالك بن نبي أن يجد اختلافا كبيرا في الموقف مثلا من قضية الاعتناء بالوقت أو بإتقان العمل أو في المحافظة على نظافة المحيط بين متعلّمين ينتميان إلى مجتمعين مختلفين في درجة تطوّرهما أو موقعهما من الحضارة من جهة، ومن جهة أخرى لما كان له أن يجد تماثلا في الموقف من القضايا المذكورة آنفا، بين فردين ينتميان إلى مجتمع واحد مع أنّهما يختلفان في الوظيفة أو في درجة العلم كحدّاد أو نجار أو بنّاء وطبيب أو أستاذ... في ألمانيا أو اليابان أو الصين أو أمريكا مثلا.[30]

فلو كانت الثقافة هي العلم لما كان هناك أيّ اختلاف بين موقف المتعلّم من البلدان الجنوبية والمتعلّم من البلدان الشمالية من قضية الاعتناء بالوقت مثلا، ولما كان هناك تشابه بين موقف الرّاعي والفلاح والحداد والطبيب الهولندي من مشكلة التراب. إنّ الذي أملى هذه المواقف المختلفة أو المتشابهة من مثل هذه القضايا على الإنسان في الجنوب وفي الشمال ليس هو العلم وإنّما هي الثقافة.[31]

الأمر الذي يحتّم على المهتم إعادة طرح السؤال بصيغة أخرى، هل الثقافة ظاهرة بيئية أم هي ظاهرة مدرسية؟، فإن كان الجواب بأنّ الثقافة هي ظاهرة مدرسية، فما تفسير اختلاف المواقف من قضية اجتماعية معيّنة؟-كتلك التي ذكرنا-بين متعلمتين في بلاد الجنوب بينما نجد تشابها في الموقف من هذه القضايا بين المتعلّمين وغير المتعلمين في بلاد الشمال.[32]

أما إذا كان الجواب هي ظاهرة بيئية، فإنّ هذا يجعلنا نتساءل ماهي الثقافة؟ وماهي

العناصر التي تتركّب منها؟ وكيف يمكن تصوّر صياغتها في برنامج تربوي[33] يصلح لتثقيف كل فئات المجتمع؟ وكيف يمكن للبيت والمدرسة والمسجد والشارع وسائر مؤسسات المجتمع أن تساهم في تنمية فاعلية هذه الظاهرة البيئية وبالتالي في تنمية فاعلية المحصول الاجتماعي المعنوي والمادي؟![34]

والأسئلة المطروحة آنفا ليست من وحي الخيال بل هي من وحي واقع الإنسان في البلاد العربية والإسلامية، لأنّ الملاحظة السريعة الخفيفة على ما يقوله الإنسان وما يسلكه تجعلك تدرك أن الإنسان عندنا فاقدا للتمييز بين ما تفيده كلمة ثقافة وبين ما تفيده كلمة علم وتعليم. فعلى سبيل المثال؛ إذا قلنا (إنّ): حرف نصب وتوكيد فهذا هو العلم بوظيفتها. أما إذا رفعنا ما بعدها فهذا هو الجهل بالثقافة لأن لساننا لم يتعود بعد على نطق ما بعدها منصوبا وكذلك الأمر بالنسبة لمن يعرف أنّ رمي الأشياء في الشارع يشوّه المنظر ويلوّث البيئة ولكنه يرمي الأشياء في الشارع أو بالنسبة لمن يعرف أنّ إشارة (قف) تفرض التوقف ولا يتوقف... ألخ. فالمعرفة أو العلم هنا لم يتحول إلى سلوك وإنما بقي مجرد معلومة لم تساهم في تهذيب السلوك.[35] ويصبح الأمر أخطر عندنا تلاحظ أنّ مثل هذا السلوك يصدر عن أفراد من الفئات الاجتماعية المتعلّمة، وهذا ما يؤكد أن مفهوم الثقافة عندنا لا يزال في حاجة إلى تحديد وترسيخ كي تؤدي الثقافة في مجتمعاتنا دورها الفعال في سلوك الأفراد وفي أسلوب المجتمع.[36]

والأمثلة القليلة التي ذكرناها عن الخلط الشائع في مجتمعاتنا العربية والإسلامية بين الثقافة والعلم هي قليل من كثير ممّا يعتبر قرينة على مضمون العلم الذي لم يستطع تغيير النفس تغييرا يتلاؤم وما نتطلّع إليه- ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾،[الرعد:١١] أي تحديد وإعداد ثقافة بناء حضارة إسلامية تجمع بين خيرية إسلامنا وبين تقنية غيرنا "والإنسان هو الكائن... الذي ينتج الحضارة بالتغيير والحركة، ولا يغير الإنسان التاريخ إلا إذا غيّر نفسه... والإنسان لا يغيّر نفسه إلاّ إذا غيّر فكره، فالتغيير داخلي باطني قبل أن يكون خارجيا ظاهريا، وأن يكون مرحليا قبل أن يكون كليا، وأن يكون فرديا قبل أن يكون جماعيا"[37] ولما كان هدف بن نبي من إشارته لمشكلة الثقافة إحداث تمييز جوهري بين مفهومي: (ثقافة) و(علم)، ذلك التفريق الذي يزيل الخلط الشائع بينهما في أذهان الناس، فإنّه لم يكتف بماساقه من

تعريفات لغوية واصطلاحية[38] لكل من مصطلحي: ثقافة وعلم، بل إنه دعانا إلى ''أن نتصور معه (ثقافة) من ناحية فردين مختلفين في الوظيفة والظروف الاجتماعية، ولكنهما ينتميان إلى مجتمع واحد، كطبيب إنجليزي وراع إنجليزي. ومن ناحية أخرى نتصور فردين متحدين في العمل والوظيفة ولكنّهما ينتميان إلى مجتمعين مختلفين في درجة تطورهما كطبيب صيني وطبيب إنجليزي، فالأوّلان يتميز سلوكهما إزاء مشكلات الحياة بتماثل معيّن في الرأي يتجلّى فيه ما يسمى (الثقافة) الإنجليزية، بينما يختلف سلوك الآخرين أحيانا اختلافا عجيبا يدلّ على طابع الثقافة التي تميز كليهما عن صاحبه، لأنّه يميز المجتمع الذي ينتمي إليه. وهذا التماثل في السلوك في الحالة الأولى والاختلاف في السلوك في الثانية، هما الملاحظتان المسلّم بهما في المشكلة التي أمامنا، وعليه فالتماثل أو الاختلاف في السلوك ناتج عن الثقافة لا عن التعليم''.[39]

والمثال التصوّري هذا، هو مثال الوظيفة الثقافة تلك التي جعلت الراعي والطبيب المنتميان لمجتمع متحضّر يتماثلان في الرأي والموقف، وهو في الوقت ذاته وسيلة لأن ''ندرك أنّ السلوك الاجتماعي للفرد خاضع لأشياء أعمّ من المعرفة، وأوثق صلة بالشخصية منها بجمع المعلومات وهذه هي الثقافة''.[40]

كما أنّ مالك بن نبي أورد هذا المثال كي يؤكد أنّ مواقف الأفراد من المشكلات الاجتماعية التي تنصبها الحياة في طريقهم، أو أنّ الأسلوب الذي يطرح ويشخص به المجتمع الذي ينتمي إليه هؤلاء الأفراد مشكلات الحياة أو الكيفية التي يرتب بها الفرد أو المجتمع أفكاره ووسائله بفعالية ولا فعالية، كل ذلك مرتبط بشيء يسمى الوسط أو المحيط الثقافي السائد في هذا المجتمع.[41]

فإذا كان الوسط أو المحيط العام الذي يؤثر في الأسرة والمدرسة والمسجد والجامعة وغيرها من مؤسسات المجتمع ''ينتج أقوى الدوافع وأقوم التوجيهات وأنشط الحركات''[42] فإن مواقف الأفراد من مشكلات الحياة في هذا الوسط تكون إيجابية، كما يكون في الآن ذاته، أسلوب المجتمع من حيث الطرح والتشخيص لمشكلات حياته وإيجاد حلول ناجحة، أسلوبا فعالا.

ومن أجل إيجاد هذا الوسط المفعم بالحيوية والحركة ينبغي في معالجة مشكلة

الثقافة في العالم العربي والإسلامي، التركيز على الإطار العام لحياة المجتمع، وليس على جزء منه، فالأسرة أو المدرسة أو المسجد أو أي مرفق خاص أو عام، يساهم في نشر العلم والمعرفة ولكنّه لا يعدّ إلاّ جزءًا من أجزاء كثيرة تتركب منها الثقافة التي هي الإطار العام لحياة المجتمع،[43] ذلك الإطار الذي ''يجمع بين راعي الغنم والعالم جمعا توحد معه بينهما مقتضيات مشتركة''.[44]

وعليه، فإذا اختزل المجتمع مفهوم ''الثقافة'' فيما يتلقاه المواطن عن هذه الأجزاء، واقتصر في معالجة مشكلة الثقافة فيه على ما تقدّمه هذه الأجزاء للفرد أو المواطن، فإنه لن يكون للعلم والمعرفة أيّ دور لا على فعالية سلوك الفرد ولا على الرصيد الإيجابي للحصول الاجتماعي في الحياة العملية للمجتمع.[45]

ولذلك، فإن مالك بن نبي لم يكتف بالمثال التصوّري الذي أورده في كتابه ''مشكلة الثقافة وشروط النهضة وفكرة الإفريقية الآسيوية''، لتوضيح الاختلاف بين مفهوم ''ثقافة'' وبين مفهوم ''علم'' وإنّما كان يستقي من واقع البلدان العربية والإسلامية الأمثلة عن التبديد والسلبية واللافعالية لكي يؤكد للقارئ أو المستمع أنّ قضية المحصول الاجتماعي أو الفعالية الاجتماعية، ليست قضية علم ومعرفة وإنّما هي قضية ثقافة.

والأمثلة التي أوردها مالك في كتبه للتأكيد على أنّ الثقافة ليست هي العلم أو المعرفة، وإنما هي أعمّ منها وأشمل لها، كثيرة لا يتسع المقام لذكرها كلّها، وسنقتصر على ذكر هذا المثال الذي استقاه من واقع المجتمع الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي.

لقد لاحظ مالك بن نبي أنّ موقف النخبة الجزائرية المتعلمة من قضية الأمية والجهل التي ساهمت في إيجادها ونشرها السلطات الفرنسية في الجزائر، لم يكن هو نفس الموقف الذي اتخذته منها النخبة المثقفة للجالية اليهودية التي كانت تعيش في الجزائر، بالرغم من أن المدرسة التي تلقت فيها كلتا النخبتين العلم واحدة، وأنّ هذه القضية الاجتماعية التي كان يعاني منها الشعب الجزائري والجالية اليهودية واحدة.

إنّ الفرق بين مفهوم ثقافة ومفهوم علم يتضح من خلال موقفي: النخبة الجزائرية والنخبة اليهودية؛ ففي الوقت الذي راحت فيه النخبة الجزائرية تخطب في الناس أنّ الأمية والجهل هما الداء الذي يمكّن للإستعمار في البلاد، وهما الداء في كل

الأمراض الاجتماعية أو ظلّت تكتب المقالات التي تشرح فيها أخطار الجهل والأمية وتهاجم فيها الاستعمار، فإنّ النخبة اليهودية حينما أصدرت الحكومة الفرنسية عام ١٩٤٠م قوانين استثنائية تقضي بحرمان أبناء الجالية اليهودية في الجزائر من حقّ التعلم، حينما أدركت النخبة خطورة هذه القوانين على أبناء جاليتها، سارعت إلى اتخاذ موقف إيجابي منها، حيث جعل كلُ متعلّم من بيته مكانا للتدريس ومن وقت فراغه وقتا لتحضير الدروس وإلقائها على التلاميذ أو الطلاب تبعا لمراحل التعليم ولأنواع التخصص، فلما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ورفعت الحكومة الفرنسية العمل بالقوانين الاستثنائية، لم يكن الغرض من سنّها وفرضها على أبناء الجالية اليهودية قد تحقّق، لأن النخبة اليهودية عرفت كيف تتحصّن ضدها.

وهذا الموقف المختلف من نخبتين متعلمتين من قضية اجتماعية واحدة يعتبر دليلا عمليا على أن العلم شيء والثقافة شيء آخر، كما أنه يدفع إلى القول: إنّه لكي نحقق الثقافة التي تخلق الفعالية في الإنسان وترفع من درجتها، وتجعله في الوقت نفسه يُمَيّزُ بين التبديد وبين المحصول الاجتماعي، ينبغي ألاَّ ننشغل فحسب ببناء المؤسسات[46] التي تعلّم الإنسان القراءة والكتابة والأسماء والمسميات أو تعلمه مختلف العلوم أو ننشغل بالتأليف له بل يجب علينا في نفس الوقت، أن نعتني باختيار المضامين والمناهج التي تكوّنه وترفع من مستوى مردوده.[47]

وليس هذا استخفافا بدور المدرسة والجامعة والمسجد ومركز التكوين في نشر المعرفة والعلم والوعي وبمساهمتها بما تقدمه في تغيير الإنسان وملامح الحياة المعنوية والمادية، ولكن لا ينبغي الاقتصار على ذلك لأن قدرة هذه المؤسسات على خلق وسط ثقافي ينتج أقوى الدوافع لدى عالم الأشخاص ككل وأقوم التوجيهات له، وأنشط الحركات عنده،[48] تبقى متوقفة على نوعية المضامين والمناهج التي تُقدَّم بها هذه النوعية من المعرفة والعلم، إذ هما معا - المضمون والمنهج- الوسيلة الفعالة لاصلاح الفرد والمجتمع وإعادة صياغة سلوك وأسلوب حياتهما صياغة حضارية جديدة.[49] سلوك الفرد وأسلوب المجتمع هي جوهر المشكلة الثقافية، لأن ''حاجتنا الأساسية في عالم [الأنفس والعقول والضمائر] أكثر [مما هي] في عالم الأشياء... حاجتنا الأولى هي الانسان الجديد... الانسان المتحضّر... الإنسان الذي خرجت منه حضارتنا منذ عهد بعيد. وصياغة هذا الجهاز الدقيق الذي يسمى الانسان لا تتم بمجرد

إضافة معلومات جديدة إلى معلوماته القديمة، لأنه سيبقى... قديما في عاداته الفكرية وفي مواقفه أمام المشكلات الاجتماعية وفي... لا فعالية التي نجد"[50] آثارها السلبية في جميع مجالات حياتنا في عالمنا العربي والإسلامي.

ولما كانت عملية إعادة صياغة الإنسان على محور طنجة–جكارتا لا يمكن أن تتم وتتحقق بمجرد إضافة معلومة جديدة –في التربية والتعليم أو في السياسة والاقتصاد أو في العقيدة والدين والأخلاق– إلى معلوماته (الإنسان) القديمة، فإن الأمر كذلك بالنسبة لعملية إعادة صياغة المجتمع، إذ لا يمكن أن تتم وتتحقق بإضافة أشياء جديدة إلى الأشياء القديمة التي يتكوّن منها المنظر الإنساني والنموذج الاجتماعي.[51] فهذه الإضافات الجديدة المعنوية بالنسبة لعالم الأشخاص أو المادية بالنسبة إلى كمية عالم الأشياء، إن لم تكن في الآن ذاته مصحوبة بدوافع نفسية وتوجيهات فكريه، ونفير حضاري يكون الهدف منها جميعا تغيير الإطار الثقافي العام للحياة على هذا المحور،[52] فإنها لا يمكن أن تحدث تركيبا لعناصر الثقافة، ناهيك عن أن تستطيع تحقيق ثقافة بناء حضارة بصورة عملية، تتجلى وظيفتها في سلوك الأفراد وفي أسلوب حياة المجتمع، تتجلى وظيفتها في سلوك الأفراد وفي أسلوب حياة المجتمع، تجليّا لا يدع مجالا للشك في أنّ التغيير والتركيب قد حدث.[53]

وعليه، ومن أجل أن تؤدي أيّ إضافة معنوية أو مادية مفعولها الاجتماعي ودورها في عملية إعادة صياغة الإنسان والمجتمع أو في إعادة صياغة العملية الاجتماعية بوجه عام، ينبغي أن يكون المقصد منها إحداث تغيير في سائر العوامل المعنوية والمادية التي تتكون منها البيئة الثقافية، وليس إحداث تغيير في عامل من عواملها أو في جزئية من جزئياتها.[54]

والمهتم بقضايا المجتمعات في العالم - على تفاوت درجات تحضرها ورقيها- يستطيع من خلال التفاتة مهتمة بما يبث في القنوات المرئية في المجتمع العربي والإسلامي وبما يبث فيها في المجتمع الغربي، أن يلاحظ أنّ للإنسان في المجتمعات الغربية اهتماما كبيرا بقضاياه الاجتماعية المختلفة، إذ يجد في هذه القناة أو تلك من يهتم بأمر المشرّدين ومن يهتم بأمر العاطلين عن العمل، ومن يهتم بمسألة الحريات وبما يعزّزها وبقضية الحقوق الفردية والجماعية وبما يكفل ضماناتها، ومن يهتم بقضية البحث العلمي وبالباحثين وبما يشجع على تطوره كمًّا وكيفا، ومن يهتم بالبيئة سواء

تعلّق الأمر بالمدينة أو بالريف: زراعة وتشجيرا وتوضيبا للتراب وتنقيبا فيه.[55]

ولكنه لن يجد فيما يبث في قنوات المجتمعات العربية والإسلامية إلا قلّة قليلة تهتم بما ذكرنا، فإذا ما راح يبحث عن أسباب الاهتمام بهذه القضايا الجوهرية هناك وعن أسباب قلة الاهتمام بها هنا، فإنّ البحث سينتهي به إلى أنّ تلك المجتمعات حقّقت منذ قرون ثقافة التحضر والحضارة، تلك الثقافة التي تجعل كلاّ من الفرد والمجتمع مهتما اهتماما كبيرا بمختلف قضاياه الاجتماعية، وإنّ مجتمعاتنا لم تحقق بعد هذه الثقافة.[56]

وبالتالي إذا كانت هذه الملاحظة على ما يبث هنا وهناك تجعل المهتم يقف على السبب الجوهري في التفاوت بين الإنسانين المخاطبين بهاتين القناتين، فهل بإمكان مجتمعاتنا العربية والإسلامية أن تحقق ثقافة الاهتمام بكل ما يمكّنها من التطوّر والرقي دون سعي منها إلى تحويل مبادئ وقيم الثقافة إلى محيط أو وسط يحكم إطار حياتها الأدبية والمادية؟[57]

لا يمكن البحث عن الإجابة عن هذا السؤال في حاضر الأمم الراقية أو المتخلفة، لأنّ الأمة الإسلامية حين كانت في نعيم الحضارة كانت لها ثقافة الاهتمام ولكنها فقدتها، والأمم الغربية آنذاك لم تكن لها ثقافة الاهتمام ولكنها اكتسبتها وحافظت عليها[58] وهذا يقود إلى القول: إنّ ضعف الاهتمام الأسمى بالقضايا الاجتماعية والوسائل الأولية وبالطاقات والمهارات المختلفة، وبكلّ ما يمكن الاعتماد عليه في المنعطفات التاريخية دون الوقوع في قبضة الغير عند بعض المتبوعين، وانعدام وجوده لدى أغلب التابعين في عالمنا العربي والإسلامي، ليس ناتجا بوجه عام عن العلم والتّعليم بقدر ما هو ناتج بصفة خاصة عن الثقافة العامة السائدة فيه.[59]

وذلك لأنّ مشاريع وبرامج التعليم والتكوين كانت ولا تزال تعدّ في بلدان هذا العالم على أساس أنّ الثقافة ظاهرة مدرسية وليس على أساس أنّها ظاهرة بيئية.

وممّا يؤكد ما نقول هو أن الإنسان المسلم ما أن يخرج من البيت أو المسجد أو المدرسة أو من أيّ مؤسسة تربوية وتعليمية حتى يسلك سلوكا مناقضا للمبادئ والقيم التي كان يستمع إليها من محدّثيه، أو التي كان هو نفسه يتحدث عنها، وهذا الانتقال ''من حال الى حال أخرى [قرينة على] أنّ هناك انفصالا بين العنصر الروحي والعنصر

الإجتماعي [أو على] افتراق بين المبدأ والحياة''.[60] والعلة في ذلك هي أنّ الفكرة التي تكونت لدى الفرد والمجتمع المسلم عن الثقافة هي أنّها نظرية في المعرفة وليست نظرية في السلوك المنسجم مع المبدأ. وأعتقد أنّه لو كانت مشاريعنا الثقافية وبرامجنا التربوية والتعليمية والتكوينية، قد أُعدت على أساس أن الثقافة هي: « مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لاشعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه''،[61] لكانت هذه المشاريع والبرامج، قد مكّنت الفرد في عالمنا العربي والإسلامي خلال النصف الثاني من القرن العشرين، من تغيير الفكرة الموروثة عن عهود الانحطاط والاستعمار والغزو الثقافي من أنّ الثقافة نظرية مدرسية، وبالتالي من إنشاء محيط أو مناخ ثقافي عام يجعل كلّ فرد من أفراد هذا العالم سواء كان متعلّما أو غير متعلم يهتم اهتماما أسمى بالبيئة كإطار حضاري.[62]

ولهذا السبب الجوهري، فإنّ مالك بن نبي كلّما كتب عن أي مشكلة من مشكلات الحضارة في العالمين العربي والإسلامي إلاّ واعتبرها مشكلة ثقافة، فضعف اهتمام الإنسان في هذين العالمين بقضاياه الاجتماعية المختلفة أو ضعف إرادته في معالجتها أو نقص وعيه بما هو تحت تصرّفه من طاقات ووسائل وإمكان يعود في الأساس إلى الثقافة.[63] ولمّا كانت مشكلة الثقافة تستغرق كافة المشكلات الحضارية: المعنوية والمادية التي لم تتمكن البلدان العربية والإسلامية من خفضها طيلة ستين عاما من استقلالها السياسي، فإنّ أيّ تفكير فيها، ينبغي في رأي مالك بن نبي أن يكون في أساسه تفكيرا في مشكلة الثقافة.[64]

وبصيغة أخرى مادام ''إمكان الحضارة يتحدّد... بجغرافية المكان، وبنوع الثقافة [فإنه] لكي نرفع الكتلة العربية الآسيوية من مستوى التلفيق والاصطناع السياسي إلى مستوى مفهوم الحضارة، يجب أن نأخذ في اعتبارنا عاملين هما: الرجل والمنظر الذي يشمله، أي حامل الثقافة وإطاره الذي يحيط به''.[65]

ولهذا مادمت معالجة المشكلات الأساسية للحضارة –كمشكلة الإنسان والتراب والوقت– لا تبدأ سوى من معالجة مشكلة الثقافة كما يلّح على ذلك مالك بن نبي[66] ولكن ليس على أساس أنّها مشكلة نقص في المؤسسات التربوية أو في كمية المادة العلمية والمعرفية أو فيما جدّ فيهما، وإنّما على أساس أنّها مشكلة مناهج وأفكار

ونوعية.[67] هذه المناهج والأفكار إذا عزّزت بالاهتمام الأسمى بكل ما يحيط بالإنسان ''يمكن تصبح الثقافة نظرية في السلوك''[68] أي تركيبا نفسيا لعناصر الثقافة.[69] وبذلك تصبح الثقافة ''مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لاشعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه... [أو] في المحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته... [أو] المحيط الذي يعكس حضارة معينة''.[70]

وينبغي ألا نتصور أنّ حل مشكلة الثقافة، قد يتم بمجرد تحديد مفهومها على الصيغة المذكورة أو على صيغة أخرى مقاربة أو مغايرة، لأن التحديد وإن كان أمرًا ضروريا فهو غير كاف،[71] لكون عملية تحويل ما تتضمّنه صيغة هذا المفهوم من مبادئ وعناصر وظواهر إلى واقع يُحَسُ ويُلْمَسُ في حياة الأشخاص وفي حياة المجتمع معا. هذه العملية تتطلّب بالإضافة إلى ما ذكرت، صياغة برنامج تربوي مناسب، مرفوقا بصيغ بيداغوجية ملائمة لتنظيم مختلف عناصر الثقافة في وحدة متجانسة ووضعهما موضع التنفيذ[72] وهذه الوحدة المتجانسة، ليس في استطاعة المجتمع أو الأمة الإسلامية أن تنظم عناصرها وتصوغها كي تجعل منها إطارا يشمل كافة جزئيات البيئة، مالم تتمكّن من التأليف بين عالم الأشخاص ومن تنظيمه ومن تركيبه في وحدة ثقافية يصبح معها سلوك الأشخاص منسجما مع أسلوب حياتها.[73] وذلك لأن فعالية عالم الأفكار وعالم الأشياء وسائر العناصر والظواهر الطبيعية مرهونة بمدى قدرة المجتمع أو الأمة على تهيئة شبكة أو قناة اتّصال وتواصل للتأليف بين عالم الأشخاص وتركيبه، تلك التهيئة التي تمكّن من إنشاء ما يسميه مالك بن نبي بـ ''العلاقة المتبادلة'' بين سلوك الفرد وأسلوب الحياة، من حيث التوجيه والتقويم والنقد.[74]

ففي بداية نشأة المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة كانت العلاقة المتبادلة بين الجانب الشخصي والجانب الاجتماعي سليمة،[75] لأنّ الثقافة التي تحكمها كانت ''جد متجانسة، متحدة الطابع عند الخليفة والبدوي البسيط، وذلك يتجلّى في موقف عمر ﷺ عندما خطب في المسلمين غداة تولّيه الخلافة، فقال قولته المشهورة [''أيّها الناس، من رأى منكم في اعوجاجا فليقوّمه''، ''وكان الرد على هذه المقولة ما نطق به أحد أولئك البدو البسطاء''، ''والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقوّمناه بسيوفنا'']].[76]

كما تتجلى هذه العلاقة السليمة في موقفين لأبي بكر الصديق ﷺ:

الموقف الأول: حين اختار للمسلمين رجلين –زكّى النبي ﷺ أخلاقهما ليختاروا أحدهما خليفة لهم– هما عمر وأبو عبيدة رضي الله عنهما ولكنّهما رفضا ''وماكاد عمر يلقي بكلمته هذه ويتقدّم باسطا يمينه، مبايعا أبا بكر... حتى ازدحم الأنصار على البيعة وكأنما دعاهم من السماء داع''.[77]

الموقف الثاني: حين سمع خبر المرتدّين عن الإسلام أو الممتنعين عن أداء الزكاة، فبالرغم من أنه كان ككل الصحابة ﷺ مشغولا بوفاة الرسول ﷺ وبما أحدثته من فراغ ديني ودنيوي في حياة المسلمين إلاّ أنّ هذا الجزء زاده هَمًّا على هَمٍ ولئن كان كثير من الصحابة ويأتي على رأسهم عمر –ﷺ أجمعين– اعتبروا امتناع تلك القبائل عن أداء الزكاة إنكارا لركن من أركان الإسلام أو خرقا لقاعدة أساسية من قواعده الخمسة، فإن أبا بكر وإن اعتبره كذلك، إلاّ أنه رأى فيه بداية أزمة ثقافية إن لم يتّخذ منه موقفا حاسما ويتصدّى إلى مقترفيه في الحين فإنّ بداية هذه الأزمة ستستفحل وتقضي تدريجيا على أسلوب حياة المجتمع الإسلامي الوليد، هذه الرؤية المستقبلية هي التي جعلته يقول: ''والله لو منعوني عقال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لقاتلتهم عليه بالسيف'' ويعلن في الحين الحرب عليها.[78]

وليس وراء هذا الإعلان سوى إيمان أبي بكر وبصيرته ''لكن هذا الإيمان وهذه البصيرة لم يكونا يعملان بمعزل عن رأي الجماعة، وحقّها في الشورى والمناقشة''.[79]

إنّ هذه المواقف توضح معنى العلاقة المتبادلة بين الجانب النفسي الذي يمثّله الشخص الطبيعي والجانب الاجتماعي الذي يمثّله الشخص الاجتماعي الذي يمثله الشخص الاعتباري أو المجتمع، كما أنّها في نفس الوقت تدلّ دلالة قطعية على أنّ الثقافة متى تحقّقت في صورة تركيب لعالم الأشخاص، أصبحت الجسر الذي يحفظ من السقوط أو يحفظ الفرد من العصيان أو التمرّد كما يحفظ الحاكم من الوقوع في الاستبداد، أو الجسر الذي يصل بين الشخص والمجتمع كما كان الحال في المجتمع الإسلامي الأوّل.[80]

فإذا كان من يمثّل السلطة في المجتمع لا يسمح للشخص أو الجماعة بأيّ نشوز في السلوك كما يتجلىّ ذلك في الموقف الذي وقفه أبو بكر من القبائل المرتدة، فإنّ الشخص أو الجماعة لا يمكنها في ظلّ سيادة هاته الثقافة التي تجمع بين الطرفين، أن

تسمح لمن يمثّل السلطة بأي انحراف عن أسلوب حياة المجتمع كما يتّضح ذلك من خلال رد البدوي البسيط على مقولة الخليفة عمر.[81]

وبناء عليه، فإن مشكلة الثقافة والتثقيف اللتان لا تزالان قائمتين في سائر البلدان العربية والإسلامية ينبغي في نظر مالك بن نبي[82]، ألاّ تطرح بهذه الصيغة: كيف تتكوّن ثقافة معينة؟ أو بهذه الصيغة: ما هو الدور الذي تؤديه ثقافة معينة؟ بل ينبغي أن تطرح بصيغة: كيف يتم إعداد ثقافة معينة قادرة على النهوض بالشخص والمجتمع معا؟[83]

وذلك، لأنه إذا كانت هذه المشكلات كالأمية والبطالة ونقص الإنتاج والماء وسوء الانتفاع بما هو متاح وسوء تسيير المؤسسات وتبذير الأموال وإهدار الوقت وغير ذلك مما تعاني منه بلدان العالم الإسلامي بوجه عام وبلدان العالم العربي بوجه خاص ''لا تشكّل سوى مظهر من مظاهر مشكلة الإنسان الذي لم يتعلّم طريقة استعمال وسائله الأولية... التراب والوقت بصورة فعالة، أو هو قد نسي ما تعلّمه من هذا الاستعمال... فإنّ الإنقاص من عدم فعالية الفرد [والذي يعد مساهمة في] الإنقاص من مختلف المجتمع''.[84]

إذا كانت هذه العينات التي ذكرناها ليست سوى مظهر من مظاهر مشكلة الإنسان، فإن الأمر يحتّم على بلداننا العربية والإسلامية أن تربط بين الفعالية واللافعالية وبين مشكلة الثقافة[85]. كما يقتضي منها أن تطرح هذه المشكلة بصيغة إجمالية هي: كيف يتم إعداد ثقافة معينة متلائمة مع السلوك الفعال؟[86]

وهذا لأنّ تغيير معادلة الفرد الاجتماعية ممّا هي عليه من لا فعالية في الميادين المختلفة إلى ما يجب أن تكون عليه من فعالية لمواجهة التحديات الداخلية والخارجية، لا يمكن تحقيقها تدريجيا إلا مع وضع مشروع ثقافي، ينبغي على واضعيه أن يعتبروا معادلة الفرد الاجتماعية الحالية قيمة ثقافية مجسّدة على مستوى الفرد والمجتمع،[87] كما ينبغي عليهم في نفس الوقت أن يعتبروا جميع المؤسسات والبرامج والمناهج والوسائل المعتمدة حاليا، مصادر ساهمت في تكوين هذه المعادلة.[88]

وبهذين الاعتبارين اللذين يجعلان من الثقافة ظاهرة بيئية، يستطيع المشروع الثقافي إذا دخل حيّز التنفيذ أن يغيّر تدريجيا معادلة الفرد الاجتماعية من خلال تغييره للوسط الذي تشكّلت فيه كل جزئية من جزئياتها.[89]

وهو الأمر الذي دفع مالك بن نبي إلى إثارة مشكلة الثقافة وإلى الربط بينهما وبين جميع مظاهر التخلّف المتفشية في البلاد الأفروسيوية[90] وإلى اقتراح طرحها بالصيغة التي أشرنا إليها سابقا، لأنّ "هذه المشكلة لا تواجهنا البتة في دائرة المجردات؛ أي في: المسرح، أو السينما، أو مكتب عمل أحد الروائيين، أو في أسلوب إحدى الرقصات الفلكلورية، ولكنها تطرح أمامنا في العالم العيني الملموس لعملنا اليومي، في إحدى حظائر البناء، أو في حقل تقوم بزراعته، أو في المدرسة، حيث نرسل بأطفالنا لتلقي المعرفة، وفي الطرقات التي نعبر بها والقاطرات التي ننتقل بواسطتها، وأخيرا في كل مكان يوجد فيه شكل من أشكال حياتنا ونشاطاتنا اليدوية أو الذهنية... وبكلمة واحدة فإن موضوعنا لا يقتصر على نطاق معين فحسب، ولكنه يتعلق بالإطار الاجتماعي كلّه، حيث تدور حياتنا وتتساوق نشاطتنا وتتشكّل المشكلات العديدة التي تستحوذ على أفكارنا تحت اسم (التخلف)".[91] ولما كانت مشكلة الثقافة على هذا الطرح ذات علاقة وطيدة بكل ما يعد إطارا اجتماعيا، فإنّ عملية تغيير معادلة الفرد والمجتمع تغييرا يرفع من مستوى فعالية كافة الطاقات الاجتماعية أي من حركات الأيدي والأرجل ومن نبضات القلوب ومن مواهب العقول ومن كثافة التكتل والانسجام ومن الوعي بالوِجهة وبقيمة الوسائل الأولية. وبكل ما هو تحت التصرف، لاستغلاله واستثماره في العملية الاجتماعية وفي تحرّر الفرد والمجتمع من جميع أشكال التبعية، كل ذلك يبقى في نظر مالك بن نبي متوقّفا على مواجهة مشكلة الثقافة في أصولها.[92]

وكما أنّ هذه المواجهة تقتضي تحديد مفهوم (ثقافة) وكيفية إعداد ثقافة معيّنة قادرة على النهوض بالفرد والمجتمع، فإنّها أيضا تقتضي تحقيق محتوى هذا المفهوم بصورة عملية في واقع الحياة.

* * *

الهوامش:

[1] قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران.

[2] انظر مشكلة الثقافة موضوع: معنى الثقافة في التاريخ، معنى الثقافة في التربية، ص: ٧٨،٧٧،٧٦. وانظر القضايا الكبرى، ص٧٩-٨٩. وانظر ميلاد مجتمع، ص: ١٠٠. ففي جميع هذه المصادر ينطلق مالك بن نبي في حديثه عن مشكلة الثقافة من أن: ''كل حقيقة لا تؤثر على الثالوث الاجتماعي: الأشخاص والأفكار والأشياء هي حقيقة ميتة، وكل كلمة لا تحمل جنين نشاط معين هي كلمة فارغة، كلمة ميتة مدفونة في نوع من المقابر نسميه القاموس''.

[3] انظر مالك بن نبي من اجل التغيير، موضوع: في البناء الثقافي ص: ٤٩ وما بعدها. وانظر تأملات، ص: ١٤٨-١٤٩. ومشكلة الثقافة، موضوع: توجيه الأفكار، ص: ٦٧-٦٩.

[4] انظر مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، موضوع: دفاع عن شبكة العلاقات الاجتماعية، ص: ٤٩ وما بعدها.

[5] انظر مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، موضوع: الطرق الجديدة، ص: ١٢٩ وما بعدها.

[6] انظر مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: ١٠٠، ١٠١.

[7] انظر مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص: ٧٧، ٨١.

[8] انظر مالك بن نبي، تأملات، موضوع: الثقافة ص: ١٣٩-١٥٢.

[9] انظر مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: ٩٩، ١٠٠.

[10] انظر مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، موضوع: مشكلة الرجل الأفروسيوي، ص: ٧٥-٨٧.

[11] انظر مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، موضوع: تعايش ثقافي على محور طنجة- جاكرتا، ص: ١٠٠-١٠٤.

[12] انظر مالك بن نبي، شروط النهضة، موضوع: توجيه الثقافة، ص: ٥٨- ١٠٥. وانظر عبد المجيد عمر النجار، فقه التحضّر الإسلامي، الفصل الثاني والثالث.

[13] مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، ص: ١٢٥.

[14] مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص٨٩.

[15] انظر محمد خاتمي، التنمية السياسية، التنمية الاقتصادية والأمن، ترجمة: سرمد الطائي، دار الفكر، سوريا، دمشق، الطبعة الأولى، عام ٢٠٠٢م، ص: ١٤٩-١٥٤.

[16] انظر صحيفة الخبر، الأحد ١٨ ديسمبر، السنة ١٦، العدد ٤٥٨٠، ص: ٦.

[17] انظر على سبيل المثال: بين الرشاد والتّيه، ص: ٣٩ والمسلم في عالم الاقتصاد، ص: ٥٩-٦٤. وفكرة الإفريقية الآسيوية، موضوع: مبادئ اقتصاد أفرسيوي فعال، ص: ١٤٨-١٦٧. ميلاد مجتمع، موضوع: طبيعة العلاقات الاجتماعية، ص: ٣١-٣٦.

[18] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص: ١٤٤.

[19] انظر مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: ٥٣-٦٧.

[20] انظر مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ص: ٣٣. ميلاد مجتمع، ص: ١٠٠، ١٠١.

[21] انظر مالك بن نبي، المصدر نفسه، موضوع: الشروط الأولية للتربية الاجتماعية، ص: ١٠٢-١١٥.

[22] انظر مالك بن نبي، تأملات، موضوع: كيف نبني مجتمعا أفضل، ص: ١٥٣-١٧٣. وانظر عبد الكريم بكار، من أجل انطلاقة حضارية شاملة... موضوع: التخطيط الحضاري. وانظر عبد المجيد عمر النجار، فقر التحضر، الفصل الثالث.

[23] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص: ١٦٩.

[24] انظر مالك بن نبي، تأملات، ص: ١٨٨، ١٨٩. وانظر مشكلة الثقافة، ص: ٦٧-٦٩. وجهة العالم الإسلامي، ص: ٧٦، ٧٧.

[25] انظر على سبيل المثال مدخل إلى دراسة الظاهرة القرآنية، ص: ٥٣-٦٨. وشروط النهضة، موضوع: من التكديس إلى البناء، ص: ٤٤-٥١. وموضوع: توجيه الثقافة، ص: ٨٥-٨٨. وتأملات، موضوع: الديمقراطية في الإسلام، ص٦٣-٩٤.

[26] انظر مشكلة الثقافة، ص: ٦٤، ٦٥. وانظر ميلاد مجتمع، ص: ١٠٠، ١٠١.
[27] انظر تأملات، ص: ١٨٨.
[28] انظر مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: ١٤، ١٥. ومشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، موضوع: الأفكار وديناميكا المجتمع، ص: ١١١ – ١١٨.
[29] انظر المصدر نفسه، ص: ١١١.
[30] الموقف من هذه القضايا الاجتماعية من حيث الاختلاف والتماثل في البلاد المتخلفة وفي البلاد المتقدمة، ضرب له مالك بن نبي أكثر من مثال، انظر شروط النهضة، ص: ١٠٠. ومشكلة الثقافة، ص: ٤٢، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٧٤. وفكرة الأفرسيوية... ص: ٢٣٤-٢٣٦.
[31] انظر مالك بن نبي، شروط النهضة عنصري: التراب والوقت، ص: ١٣٩-١٤٨.
[32] انظر مالك بن نبي، القضايا الكبرى، موضوع: مشكلة الثقافة، ص: ٦٧-٨٩.
[33] هذا البرنامج التربوي لا أتصور أن المدرسة وحدها هي التي تقوم بتلقينه لكل الشرائح الاجتماعية.
[34] انظر مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص: ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢.
[35] انظر مالك بن نبي، ميلاد المجتمع، ص: ٩٩.
[36] انظر مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: ٧٠-٧٤.
[37] بن ابراهيم الطيب، مواقف وأفكار مشتركة بين مالك بن نبي وابن خلدون، وزارة الثقافة، الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب، الجزائر، الطبعة الأولى، عام ٢٠٠٨م، ص: ١١٣، ١١٤.
[38] فالثقافة بوجه عام هي الحذق والفهم والذكاء كما هي بوجه خاص تنمية بعض الملكات العقلية والبدنية أو هي التربية التي تؤدي إلى اكتساب الإنسان الصفات المشار إليها آنفا. والعلم وإن كان شرطا ضروريا في الوصول إلى ذلك إلاّ أنه ليس شرطا كافيا، لأن الملائمة بين الإنسان والطبيعة بينه وبين المجتمع وبينه وبين القيم الروحية والإنسانية لا يتكفل العلم وحده بتحقيقها أو إيجادها بل يساهم في إيجادها الدين والآداب والفنون...إلخ. انظر جميل صليبا، المعجم الفلسفي، المجلد الأولى، ص: ٣٧٨، ٣٧٩. وأما العلم فهو بوجه عام الإدراك مطلقا تصوّرا كان أو تصديقا، يقينا كان أو غير يقيني، وقد يطلق على التعقل أو على حصول صورة الشيء في الذهن... والعلم مرادف للمعرفة إلاّ أنه يتميّز عنها، لكونه مجموعة معارف متصفة بالوحدة والتعميم... أو هو الكشف عن العلاقات الضرورية بين ظواهر الأشياء أو إيجاد الصلات الخاصة بالمفاهيم والأشياء...إلخ انظر جميل صليبا، المعجم الفلسفي، المجلد الثاني، ص: ٩٢ وما بعدها.
[39] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: ٧٣، ٧٤.
[40] مالك بن نبي، المصدر نفسه، ص: ٧٤.
[41] انظر مالك بن نبي، القضايا الكبرى، موضوع: مشكلة الثقافة، ص: ٦٥-٨٩.
[42] مالك بن نبي، تأملات، ص: ٣٨.
[43] انظر مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص: ٦٧-٨٩.
[44] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: ٧٧.
[45] انظر مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: ١٤١ – ١٥٢.
[46] وذلك لأنّ « طريق الحضارة لا يمكن خطه تبعا للصدفة بإقامة مدرسة هنا، ومصنع هناك، وسد هنالك، أو بوضع سلة معرفية في جانب هذا الشارع، حيث لا أحد يفكّر في إلقاء المهملات التي يريد أن يتخلص منها (فيها) وعموما حين نريد أن نضع شيئا زائدا في المنظر الإنساني»، مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، ص: ٨٠. ولأنّ « إعادة بناء الأمة الإسلامية مرة أخرى بعدما خرّب الاستعمار عامرها وجفّف غامرها، أمر يحتاج إلى جهود مضنية وليست الإعادة المنشودة شقّ شوارع تقوم القصور المنيفة على أكنانها، ولا تجميل الشواطئ والأنهار والبحار وبث الأرائك المريحة حولها... ولا هي نقل المصانع والآلات وتشغيل ألوف العمال فيها. إنّ ذلك- وإن مست إليه الحاجة- لا يعني بناء أمة تنفع نفسها إذا كان الغزو الأجنبي، قد نجح في تحذير أعصابها، وإماتة ضمائرها واستلال اليقين من أفئدتها والهدف من ضمائرها... ذلك أن الأمم تفتقر

قبل كل شيء إلى العقيدة التي توقد نشاطها، والغاية التي تكدح لبلوغها، والحُداء الذي يهوّن عليها = مصاعب الطريق والعزاء الذي يصبّرها على لأواء الحياة، فإذا جفّت هذه المعاني في أمّة لم يغن عنها شيء ما وهي صائرة حتما إلى إدبار »، محمد الغزالي، كفاح دين، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ص: ١٢١.

[47] انظر مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: ١٠٢-١١٥.

[48] انظر مالك بن نبي، تأملات، ص: ٣٨.

[49] انظر مالك بن نبي، من أجل التغيير، ص: ٥٤، ٥٥، فهو يرى: « أنّ العلم والثقافة ليسا مترادفين (لأنّ) الثقافة تولد العلم دائما والعلم لا يولد الثقافة دوما ولا يمكن استبدال أحد هذين المفهومين بالآخر (وعليه) فإنّ هذا التمييز أساسي: أولا لدى وضع برنامج يهدف إلى الارتفاع بثقافة بلد ما إلى أعلى مستوى من مستويات الحضارة. وثانيا في فهم الظواهر الاجتماعية والسياسية ذات الأهمية الأساسية. إن فيتنام لم تستطع أن تجابه الإمبريالية بالعلم الذي لا يزال في مراحله الأولى وإنّما بإدراك يجسده زارع الأرز، كما يجسّده صاحب أعلى رتبة أو المفكر الأشد إطلاعا... والشعب الجزائري لم ينتزع استقلاله بالمعرفة التي تتمتع بها النخبة فيه، بل بالإدراك الذي وجد على المستوى الشعبي في وجه الاستعمار... وهكذا هو الأمر في كل الأوقات الصعبة من التاريخ. الثقافة هي التي تكون طوق النجاة للمجتمع حين يتعرض لخطر الغرق».

[50] مالك بن نبي، تأملات، ص: ١٩٣.

[51] انظر مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، موضوع: تغيير الإنسان، ص: ٤٩-٥٤.

[52] انظر مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: المعادلة البيولوجية والمعادلة الاجتماعية للفرد في التجارب الحديثة، ص: ٩٠-٩٦.

[53] انظر مالك بن نبي، تأملات، موضوع: كيف نبني مجتمعا أفضل، ص: ١٥٣-١٧٣.

[54] انظر مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية... موضوع: مشكلة الرجل الأفرسيوي، ص: ٧٠-٨٧.

[55] انظر مالك بن نبي، مشكلات الثقافة، موضوع: ما هي الثقافة، ص: ٤١-٤٣. وموضوع: الجانب النفسي والجانب الاجتماعي، ص: ٤٣-٤٩. وموضوع: طبيعة العلاقة الثقافية ص: ٤٩-٥٣. وموضوع: الثقافة والمقاييس الذاتية، ص٥٣-٥٧.

[56] انظر مالك بن نبي، المصدر السابق، ص: ٣٨-٤٠.

[57] انظر مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: حدود التفسير الاقتصادي البحث لتوزيع الإمكانات، ص: ٥٤-٥٨. وموضوع: الأسس الحضارية لعالم الاقتصاد، ص: ٥٩-٦٤.

[58] انظر الأخضر شريط، في الحركة التاريخية وتفسير التطور الحضاري عند مالك بن نبي، منشورات عالم التربية... الطبعة الأولى، عام ٢٠٠٨م، ص: ٧٨-١٠٢.

[59] انظر المرجع السابق، موضوع: مجتمع ما قبل التحضر، ص: ٩٠-١٠٢.

[60] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: ١٠٥.

[61] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: ٧٤.

[62] مالك بن نبي، المصدر نفسه، موضوع: تركيب نفسي للثقافة، ص: ٥٩-٧٤.

[63] انظر مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ص: ١٩٢. والمسلم في عالم الاقتصاد، موضوع: الأسس الحضارية لعالم الاقتصاد، ص: ٥٩-٦٤.

[64] انظر مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية... ص: ١٣٥.

[65] مالك بن نبي، المصدر نفسه، ص: ١٢٥.

[66] انظر مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: ١٣-١٦، ١٣٣، ١٣٤. وانظر القضايا الكبرى، ص: ٧٧-٨٣. وانظر ميلاد مجتمع، موضوع: الشروط الأولية للتربية الاجتماعية، ص: ١٠٢-١١٥.

[67] انظر مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: ٩٩، ١٠٠. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص: ١١٣-١١٨. بين الرشاد والتيه، موضوع: تغيير الإنسان، ص: ٤٩-٥٤.

[68] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: ٧٣.
[69] انظر مالك بن نبي، المصدر نفسه، ص: ٦٢.
[70] مالك بن نبي، المصدر السابق، ص: ٧٤.
[71] انظر مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: ١٠٠، ١٠١. تأملات، ص: ١٤٧، ١٤٨.
[72] انظر مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، موضوع: تراكيب جزئية وتركيب عام، ص: ٦١ وما بعدها، ففي نظره أنّ ليست مشكلة العالم العربي والإسلامي منحصرة في فهم الثقافة وإنّما أيضا في تحقيقها بصورة عملية.
[73] انظر مالك بن نبي، فكرة الأفريقية الآسيوية، موضوع: نظرات عامة في الثقافة الأفرسيوية... ص: ١٣٤-١٤٧.
[74] انظر مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص: ٨٣، ٨٤. وانظر فكرة الإفريقية الآسيوية، موضوع: العالم الإسلامي وفكرة الأفرسيوية، ص: ٢٣١ وما بعدها.
[75] انظر مالك بن نبي، تأملات، موضوع: الديمقراطية في الإسلام، ص: ٦٣، ٦٤. وانظر علي الوردي، مهزلة العقل البشري، مؤسسة انتشارات الشريف الرضي، الطبعة الأولى، عام ١٩٩٧م، موضوع الديمقراطية في الإسلام، ص: ١٧١-١٩٧.
[76] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: ٥١. وانظر خالد محمد خالد، في البدء كان الكلمة، ص: ٦٢، ٦٣. إنّ الذي يسمع أو يقرأ هذه المقولات التي لفظتها أفواه هؤلاء العظماء لا يملك إلاّ أن يقول: لو لم يكن القرآن والسنة النبوية أو مضمونهما الإسلامي قد تمكّن إلى القلوب وتحوّل إلى محيط ما كان للرجل البدو أن يجرؤ على الردّ على الخليفة وما كان للخليفة أن يصبر عليه ولكنه لمّا كان تأثيره كذلك فإنّ الخليفة حمد الله على وجود مثل هذا الشخص الجريء، إذ كان كلّ منهما يعتبر حريّة التعبير حقّا مكفولا بنصوص القرآن والسنة.
[77] خالد محمد خالد، خلفاء الرسول، ص: ٩٢.
[78] انظر مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ص: ١٦.
[79] خالد محمد خالد، خلفاء الرسول، ص: ٩٦. يستحسن أن ينظر القارئ ما ورد في ص: ٩٣-١٠٧ من المرجع.
[80] انظر مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص: ٨٣-٨٥. وانظر مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، موضوع: الحضارة والأفكار، ص: ٤١-٤٨. وانظر بين الرشاد والتيه، ص: ١٥، ١٦.
[81] انظر مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ص: ١٣١-١٣٧.
[82] انظر مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: ٣٦-٥٧.
[83] انظر مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص: ٦٩-٧٢.
[84] انظر مالك بن نبي، المصدر نفسه، ص: ٧٠، ٧١.
[85] انظر مالك بن نبي، تأملات، موضوعا: الفعالية، ص: ١٢٥-١٣٨، الثقافة، ص: ١٣٩-١٥٢.
[86] انظر مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص: ٧٩.
[87] انظر مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية... ص: ١٣٥.
[88] انظر مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، موضوع: حركة الإصلاح، ص: ٤١-٥٦. والحركة الحديثة، ص: ٥٧-٦٦.
[89] انظر مالك بن نبي، تأملات، موضوع: قيم إنسانية وقيم اقتصادية، ص: ٤٩-٦٢. خواطر عن نهضتنا العربية، ص: ١٧٥ وما بعدها.
[90] انظر مالك بن نبي، فكرة الأفريقية الأسيوية، موضوع: نظرات عامة في الثقافة الأفرسيوية، ص: ١٣٤-١٤٧.
[91] انظر مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص: ٦٨.
[92] انظر مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، موضوعا: نظرة علم الاجتماع في الاستقلال، ص: ٣٩-٤٨ وتغيير الإنسان، ص: ٤٩-٥٤.

مظاهر الجمالية في المحن والابتلاءات
من خلال سيرة بديع الزمان سعيد النورسي

أ.د. عبد الله البخاري[1]

تمهيد:

عندما نتحدث عن الجمالية في المحن ونحاول تجْليَتها من خلال سيرة الأستاذ النورسي، فإن ذلك لا يعني أن كل الناس سيفهمون خطابنا ويستوعبونه، وإنما الذي سيفهمه هو المؤمن الذي آمن بالغيب، وآمن بالقدر خيره وشره، وبدون لغة الإيمان فلن يفهم عنا أحد.

وبما أن جمالية المحن المتمثلة في العواقب الحسنة للمحن، ربما كان بعضها لا صلة له بالآخرة، كمن يأخذ بأسباب النصر والتقدم الحضاري الدنيوي للوصول إلى أهداف معينة، وقد يلاقي في طريقه أنواعاً من المحن والمصائب الحسية والمعنوية، فهذا الجانب الدنيوي المحض قد يدركه بعض طلاب الدنيا، ولكن هذا القدر من الجمالية لا يساوي شيئاً بالنسبة للجمالية التي يدركها المؤمنون في الدنيا والآخرة.

وهناك سبب آخر يمنع حتى بعض المسلمين من فهم هذا الخطاب وهو اختلاف التصورات والمدارك والأذهان والأفكار والعقول، فما يراه زيد جميلاً قد يراه عمرو قبيحاً والشيطان له دور كبير في تزيين القبيح وسيئ الأعمال، قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾، فاطر:٨ وقال ﷻ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾، العنكبوت:٣٨ فالقاتل وآكل الربا وشارب الخمر والسارق والعاق لوالديه والكذاب، وكل من يفعل كبيرة من الكبائر، فإنه لا يفعل شيئاً من ذلك إلا بعد أن تُزَيَّنَ له من قبل الشيطان.

وقد قص الله علينا خبر قوم لوط عندما قالوا للنبي المرسل إليهم من قبل الله: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾،[النمل:٥٦] وذكر عنهم أنهم كانوا يعملون الخبائث: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾،[الأنبياء:٧٤] ولكن القوم عندما انتكست عقولهم واختلت تصوراتهم، وطاشت أحلامهم، أصبحوا يجرّمون من يتجنب الخبائث، ويدعو إلى الطهارة.

فاختلاف التصورات بسبب اتباع الشهوات، أو بسبب مخلفات ثقافية معينة، أو بسبب غزو فكري معين من أعظم موانع الفهم، وبهذا يعلم أننا نخاطب أصحاب الفطر السليمة، التي لم تتلوث بما يغيرها.

وهذه الجماليات التي سنتحدث عنها تتجلى في أمور كثيرة، ومتنوعة، بعضها علمناه وبعضها علمنا بعضه، والمقام لا يتسع لذكر جميعها، ولذلك فإننا سنقتصر على بعضها، وما سنذكره وإن كان قليلاً بالنسبة لما لم نذكره، فإنه كاف في إضاءة الطريق أمامنا، وفتح آفاق جديدة لطرق أبواب كثيرة في هذا المجال، الذي تظهر من خلاله حكمة الحكيم المنان، وتنطوي تحته رحمة الرحيم الرحمن.

١- جمالية تجليات أسماء الله الحسنى بسبب المحن والمصائب.

كل متأمل في آيات الله المتلوّة والمنظورة، يدرك حكمة الله الباهرة في أفعاله غير المتناهية، إلا أن إدراك هذه الحكم يختلف الناس فيها.

ومن أفعاله سبحانه وتعالى التي يفعلها لحكم متعددة، ابتلاء الناس بأنواع المحن والمصائب، وكثير من هذه المحن تكون سبباً في تجلي أسماء الله وصفاته، فمتى يعرف العبد أن له رباً يغفر الذنوب، ويعفو عن الزلات، إذا لم تكن له ذنوب تغفر، ومتى يعرف العبد أن له رباً يكشف الضر إذا لم ينزل بالعبد ضرراً، وهكذا تتجلى أسماء الله تعالى وتظهر بوجود مقتضياتها، فالغني يقتضي الفقر، والقوي يقتضي الضعف، وهكذا اسم ''الشافي'' يستدعي المرض، واسم الرزاق أو الرازق يقتضي الجوع.[2]

فالمظلوم الذي يبتليه الله ﷻ بضياع بعض حقوقه، يدرك الحقائق التي يتضمنها اسم ''الحق'' وتجلياته في الوجود أكثر من الذي ضمنت له كل حقوقه،[3] وعلى هذا فلتقس كل أسماء الله تعالى.

٢- جمالية تجلي العدالة الإلهية بسبب الظلم.

''لقد أثبتت رسائل النور أنه قد تنبثق عدالة من بين طيات الظلم، أي قد يتعرض أحدهم إلى الظلم وإلى الحيف فتصيبه نكبة، وقد يحكم عليه بالحبس، ويرمى به في غياهب السجون، لاشك أن مثل هذا الحكم ظلم واضح، ولكنه قد يكون سبباً لتجلي العدالة وظهورها، ذلك لأن القدر الإلهي قد يستخدم الظالم لتوجيه العقوبة إلى شخص استحقها بسبب آخر، وهذا نوع من أنواع تجلي العدالة الإلهية''.[4]

بلغ الأستاذ مرتبة عالية من الإحساس العميق، والخواطر الإلهامية التي قلّ أن يجدها الإنسان العادي، فلربما تحدث عن ارتكابه ذنباً أو ذنوباً نحن لا نراها كذلك، ولكنه كما قال بعض السلف: ''حسنات الأبرار سيئات المقربين'' ولا يبلغ الإنسان درجة التقوى حتى يدع ما لا بأس به خوفاً من الوقوع فيما به بأس.

ثم إن الأستاذ رحمه الله كثيراً ما يجعل نفسه محلاً للحدث، فيمثل بنفسه بدل أن يبحث في عيوب الآخرين وذنوبهم.

يتساءل الأستاذ: ''لِم أساق من محكمة إلى محكمة، ومن ولاية إلى ولاية، ومن مدينة إلى أخرى طوال ثمانية وعشرين عاماً، وما التهمة الموجهة إليّ من قبل من ارتضوا لأنفسهم معاملتي بكل هذا التعذيب الظالم؟ أليست هي استغلال الدين في سبيل السياسة؟ ولكن لا تستطيعون إثبات ذلك... فهذه محكمة تقضي الشهور والسنوات في محاولة الحصول على دليل يدينني فلا تستطيع، وهكذا ثانية وثالثة، وأنا أنتقل من مصيبة إلى أخرى ومن نكبة إلى أخرى، لقد انقضى ثمان وعشرون سنة من عمري على هذا المنوال، وأخيراً أيقنوا من عدم صحة التهم المنسوبة إلي...فما السبب في إصرارهم على اقتراف هذا الظلم في حقي؟ ولماذا بقيت معرضاً على الدوام لهذا الظلم والتعذيب مع كوني بريئاً ودون أي ذنب؟...''[5]

يجيب الأستاذ عن نفسه بنفسه ''إن ذنبي هو اتخاذي خدماتي القرآنية وسيلة للترقي المعنوي، والكمالات الروحية، والآن بدأت أفهم هذا وأحسه تماماً...لقد أذهلتني هذه الأحاسيس الداخلية العميقة... فللّٰه الشكر ألوف ألوف المرات، ففي طي تهمة القيام باستغلال الدين في السياسة قام القدر الإلهي الذي هو العدل المحض طوال ثمان وعشرين سنة بمنعي من جعل الدين آلة لأي غرض شخصي، وذلك باستخدام الأيدي

الظالمة للبشر في توجيه الصفعات لي وفي تذكيري وتنبيهي، هذه الصفعات التي كانت عدلاً محضاً تحذرني قائلة: إياك إياك أن تجعل الحقائق الإيمانية آلة لشخصك، وذلك لكي يعلم المحتاجون إلى الحقائق أن الحقائق وحدها هي التي تتكلم، ولكي لا تبقى هناك أوهام النفس ودسائس الشيطان بل لتخرص وتصمت''.[6]

• أنواع الظلم تتحول إلى أنواع من الفضل والرحمة والأمن والاطمئنان والإخلاص

لا بد من التذكير بأن هذه الفضائل والرحمات والسعادة والاطمئنان، الذي أصبح الأستاذ يتقلب فيها بين الفينة والأخرى، هي بسبب تحقيق عبودية الأستاذ وإخلاصه لله، وصبره الجميل، ونجاحه في الامتحانات المتكررة التي مرّ بها لسنوات طويلة، ولهذا أصبح يحس بأنه في سعادة غامرة، حتى أثناء وقوع الظلم عليه ولذلك نجده يكثر من حمد الله حمداً لا نهاية له على ما حصل عليه من فضل ورحمة بسبب الظلم النازل به، قال رحمه الله: ''إني أحمد الله تعالى حمداً لا أحصيه إذ حوّل أنواع الظلم والمكاره التي جابهني بها أهل الدنيا إلى أنواع من الفضل والرحمة، وإليكم البيان؛ يقول الأستاذ: بينما كنت معزولاً في مغارة في أحد الجبال، وقد طلّقت السياسة وتجرّدت عن الدنيا منشغلاً بأمور آخرتي، أخرجني أهل الدنيا من هناك ونفَوني ظلماً وعدواناً، فجعل الخالق الرحيم الحكيم هذا المنفى لي رحمة، إذ حوّل ذلك الانزواء إلى خلوة يحيط بها الأمن والاطمئنان والإخلاص''.[7]

وقال في موطن آخر وهو يتحدث عن الظلم النازل به: ''فارتكبوا الظلم في حقي، ولكن ربي الرحيم وخالقي الحكيم بدل لي ذلك الظلم إلى رحمة، إذ أدخلني في خلوة مرغوبة، وعزلة مقبولة... فالحمد لله على كل حال''.[8]

٣- جمالية الغربة الغريبة والعزلة العجيبة

لقد تعرض الأستاذ إلى عزلة وغربة استمرت عقوداً من الزمن، تحدث عنها في أكثر من موضع في كتبه، مصوراً لها تصويراً أدبياً يجعل القارئ يتأثر تأثيراً بالغاً، وفي غالب الأحيان يذكرها الأستاذ في سياق التحدث بنعم الله عليه أو مذكراً بمجيء العناية الإلهية إليه.

وكانت لهذه الغربة الغريبة جماليات كثيرة نقتصر على ذكر بعضها:

• **الأنس بالله**

حينما كان الأستاذ في منفى بارلا قال عن نفسه: ''بقيت وحدي منفرداً منعزلاً عن الناس على قمة جبل... كنت أبحث عن نور في تلك العزلة، وذات ليلة في تلك الغرفة الصغيرة غير المسقفة، المنصوبة على شجرة صنوبر عالية على قمة ذلك المرتفع... حيث لا أثر ولا صوت سوى ذلك الصدى الحزين لحفيف الأشجار وهمهمتها... ففي هذه الغربة المكتنفة بالحزن... بدأت أبحث عن نور وعن قبس أمل وعن باب رجاء، وسرعان ما جاء الإيمان بالله لنجدتي وشد أزري، ومنحني أنساً عظيماً، بحيث لو تضاعفت آلامي ووحشتي أضعافاً مضاعفة، لكان ذلك الأنس كافياً لإزالتها، فما دام لنا خالق رحيم فلا غربة لنا إذاً أبداً، وما دام سبحانه موجوداً فكل شيء لنا موجود إذن''.[9]

وهكذا ينسى الأستاذ كل آلام الغربة وأحزانها بسبب جمالية الأنس بالله.

• **الأنس بمخلوقات من غير جنس الإنسان.**

الاستئناس بالله يفتح للمؤمن آفاقاً جديدة تجعله يستأنس بكل من حوله من المخلوقات، وهذا ما أدركه وشعر به الأستاذ النورسي، وترجمه بقوله: ''ما دام الله موجوداً وملائكته موجودة فهذه الدنيا إذن ليست خالية لا أنيس فيها ولا حسيس، وهذه الجبال الخاوية، وتلك الصحاري المقفرة، كلها عامرة ومأهولة بعباد الله المكرمين، بالملائكة الكرام، نعم إن نور الإيمان بالله سبحانه والنظرة إلى الكون لأجله يجعل الأشجار بل حتى الأحجار كأنها أصدقاء ومؤنسون فضلاً عن ذوي الشعور من عباده حيث يمكن لتلك الموجودات أن تتكلم معنا بلسان الحال بما يسلينا ويروح عنا''.[10]

• **الغربة وسيلة إلى خدمة القرآن وصفاء الذهن.**

في مرة من المرات أُخلي سبيل المجرمين من السجون، وخرج الجميع، وبقي الأستاذ وحده هناك ظلماً وعدواناً، قال الأستاذ عن هذه المرحلة: ''ولكن ربي الرحيم شاء أن يبقيني في هذه الغربة ليستخدمني في خدمة القرآن أكثر، وليجعلني أكتب هذه الأنوار القرآنية، التي سميتها الكلمات أكثر فأكثر، فإبقائي في هذه الغربة بلا ضجة ولا ضوضاء حولها إلى رحمة سابغة... فرضوا علي حياة العزلة ظلماً وعدواناً وأرسلوني إلى قرية صغيرة، ولم يسمحوا لأقاربي ولا لأهل بلدتي –باستثناء واحد أو اثنين–

بزيارتي، فقلب خالقي الرحيم هذه العزلة إلى رحمة عامرة بالنسبة لي، إذ جعل هذه العزلة وسيلة لصفاء ذهني وتخليصه من توافه الأمور وتوجيهه للاستفاضة من القرآن الحكيم على صفائه ونقائه''.[11]

• من جمالية الغربة انبعاث نور الإيمان وفيض القرآن ولطف الرحمن.

يتحدث الأستاذ عن حالته عندما بقي ثلاثة أشهر وحيداً فريداً في الجبال الموحية بالغربة، خاصة في الليل البهيم حيث لا صوت ولا صدى إلا حفيف الأشجار الحزين، ثم يصف خمسة أنواع من الغربة متداخلة وهي بمثابة ظلمات متراكبة، ممزوجة بالبعد عن الأقران والأحباب والأصحاب، وما يحدثه ذلك من ألم الفراق والبعد عن موطنه، فهو لا يرى إلا الجبال الشاخصة بالنهار، وظلمة الليل البهيم عندما تغيب الشمس، وبعد شعوره بغربة غير معتادة يقول فجأة: ''سبحان الله، يا رب أنا غريب وحيد ضعيف غير قادر عليل عاجز شيخ لا خيار لي... الغوث الغوث أرجو العفو واستمد القوة من بابك يا إلهي، وإذا بنور الإيمان، وفيض القرآن، ولطف الرحمن، يمدني من القوة ما يحوّل تلك الأنواع الخمسة من الغربة المظلمة إلى خمس دوائر نورانية من دوائر الأنس والسرور، فبدأ لساني يردد: ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، آل عِمْرَان:١٧٣ وتلا قلبي الآية الكريمة: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾. ''التَّوْبَة:١٢٩ 12

٤- جمالية العناية الربانية بعد المطالبة بإعدام الأستاذ.

كلما كانت المصيبة كبيرة، كانت لذة الفرج أكبر، وهذا أمر يعرف من الواقع المعيش، عندما نشط أبطال مدرسة الزهراء في استنساخ الرسائل ونشرها وكان لهذا النشاط أثراً كبيراً داخل السجن وخارجه، رفع من يسمون بالخبراء تقريراً سطحياً كان سبباً في توزيع بيان شديد اللهجة، وشنّ وزير التربية هجوماً عنيفاً وطالب البعض بإعدام الأستاذ وسعوا في ذلك.

قال الأستاذ: ''وفي هذا الوقت العصيب بالذات، جاءتنا العناية الربانية فأسعفتنا، إذ بينما ننتظر انتقادات لاذعة عنيفة من خبراء أنقرة، إذا بتقاريرهم المتضمنة للإعجاب والتقدير لرسائل النور''.[13]

٥- جمالية تحويل السجن الرهيب إلى مدرسة نوريه وتبديل الضجر والمصائب والأحزان إلى أفراح ورحمات.

قال الأستاذ: ''ساقونا إلى سجن'دنيزلي'وزجّوني في ردهة كبيرة ذات عفونة ورطوبة شديدتين، فوق ما فيها من برودة شديدة فاعتراني حزن وألم شديدان من جراء ابتلاء أصدقائي الأبرياء، كل ذلك جعلني أتقلب في ضجر وسأم حتى أغاثتني العناية الربانية فحوّلت ذلك السجن الرهيب إلى مدرسة نوريه، فحقاً إن السجن مدرسة يوسفية، وبدأت رسائل النور في الانتشار والتوسع... فكانت تلك النسخ سبباً للفتوحات في السجن وفي خارجه، فحوّل الله ضررنا في تلك المصيبة إلى منافع وبدل ضجرنا وحزننا إلى أفراح''.[14]

وقال في موطن آخر: ''إن المصائب الدنيوية الزائلة تنتهي بالأفراح والخيرات على الأكثر''،[15] وقال أيضاً: ''إن هذه المصائب وأمثالها ينطوي تحتها نوع من الرحمة والمجازاة''.[16] وقال: ''يا من تضيقون عليّ الخناق، اعملوا ما شئتم، واقضوا ما أنتم قاضون، فلا أهمية لعملكم، كل المصائب التي تنزل بنا هينة تافهة، بل إنها عناية إلهية محضة، ورحمتها بعينها''.[17]

٦- جمالية الوصول إلى الأهداف تنسي كل المتاعب وتجعل المصيبة كأن لم تكن.

كان الأستاذ مهتماً كثيراً برسائل النور، ونظراً للحصار المحكم الذي وضعه أعداء الدين، وأعداء الحرية، فإنه كان يرى أن المتنفس الوحيد لنشر دعوته هي تلك الرسائل، فكان يوجهها لجميع الجهات والفئات، حتى الذين يخططون للقضاء عليه يرسل إليهم رسائل النور، ومرة أرسل عدة رسائل للدوائر الرسمية، تعرض فيها لأهل الضلال، وشدد عليهم الخطاب، وبينما هو ينتظر التعنيف وإذا بالأمر يأتي بعكس ما كان يتوقع فعلم أن ''حقائق رسائل النور بفضل العناية الإلهية وكرامتها قد غلبتهم وانتصرت عليهم حتى جعلتهم يقرءونها ويسترشدون بها، وحولت تلك الدوائر الرسمية الواسعة إلى ما يشبه المدارس النورية، وأنقذت كثيراً من الحيارى والمترددين، وشدّت من إيمانهم مما ملأنا بهجة وسروراً هو أضعاف أضعاف ما كنا نعانيه من ضيق وضجر''[18] ''... لو تضاعفت متاعب السجن كلها مائة ضعف فقد أدت هذه الرسالة

'الثمرة' أضعافها من الوظائف، إذ تستقرئ نفسها في شتى الأوساط العامة، وتسوق إلى الإيمان حتى المتعنتين''.[19]

وفي مرّة من المرات خبّأ الأستاذ بعض الرسائل الخاصة والمجموعات المهمة التي ظن أن وقت نشرها لم يحن بعد، ولعلها تنشر بعد موته، فوضعها تحت أكوام من الحطب والفحم، وكان مطمئناً على عمله هذا، ''ولكن ما إن داهم موظفو التحريات ومعاون المدعي العام البيت وأخرجوا تلك الرسائل المهمة المخبوءة من تحت أكوام الفحم والحطب ساقوني إلى سجن إسبارطة وأنا أعاني من اعتلال صحتي ما أعاني، وبينما كنت متألماً بالغ الألم ومستغرقاً في التفكير حول ما أصاب رسائل النور من أضرار، إذا بالعناية تأتي لإغاثتنا جميعاً، حيث بدءوا بدراستها بكل اهتمام ولهفة، فتحوّلت تلك المحافل الرسمية إلى ما يشبه المدارس النورية، إذ انقلب النقد والجرح عندهم إلى نظرة الإعجاب والتقدير، حتى إنه في 'دنيزلي' قرأ الكثيرون سواء من المسؤولين أو غيرهم –دون علمنا– رسالة 'الآية الكبرى' المطبوعة بسريّة تامة فازدادوا إيماناً وأصبحوا سبباً لجعل مصيبتنا كأن لم تكن''.[20]

٧- جمالية السجن

دخول السجن يكون لحكم كثيرة، بعضها ندركه، وأكثرها يستأثر الله بعلمه، وقد نعلم بعضها بعد حين، أو يستفاد منه بعد قرن أو قرون، فقد يكون القدر قد كتب لنا أرزاقاً داخل السجن، وقد نكون قد أُدخلنا السجن لتعليم مسجونين معينين، وقد تظهر لنا أسرار بعض الآيات القرآنية، وقد نكون في حاجة إلى تربية من نوع خاص، وقد يريد الله أن يبعدنا عن مكروه خارج السجن في ديننا أو دنيانا إلى حكم كثيرة لا نعلمها. ومن أجل ذلك نجد الأستاذ النورسي يدرك بعض هذه الحكم فيهنئ الداخلين إلى السجن بدل أن يعزيهم أو يواسيهم، فيقول رحمه الله مخاطباً طلابه: ''إخواني الأعزاء لا أعزيكم بل أهنئكم، إذ ما دام القدر الإلهي قد ساقنا إلى هذه المدرسة اليوسفية الثالثة لحكمة اقتضاها، وأنه سيطعمنا قسماً من أرزاقاً دعتنا إلى هنا، وما دامت تجاربنا القاطعة قد علمتنا أن العناية الإلهية لطيفة بنا، وقد جعلتنا ننال سر الآية الكريمة ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، البَقَرَة:٢١٦ وإن إخواننا الحديثي العهد في المدرسة اليوسفية هم أحوج الناس إلى السلوان الذي تورثه رسائل النور... وأن كل ساعة فانية هنا في السجن تصبح بمثابة ساعات من العبادة الباقية، ينبغي لنا... أن نتجمل بالصبر والثبات شاكرين خالقنا مستبشرين إزاء هذه الحادثة''.[21]

٨- جمالية توبة أكثر من مائتي سجين وحاجة المسجونين والموظفين إلى رسائل النور.

''فما أن دخل طلاب النور ورسالة الثمرة التي كتبت للمسجونين حتى تاب أكثر من مائتي سجين، وتحلّوا بالطاعة والصلاح... حتى إن قاتلاً لأكثر من ثلاثة أشخاص كان يتحاشى أن يقتل بقة الفراش، فلم يعد عضواً لا يضر بل أصبح نافعاً رحيماً بالبلاد''،[22] ''إن حكمة واحدة لعدالة القدر الإلهي في سوقنا إلى المدرسة اليوسفية لـ 'دينزلي' هو حاجة المسجونين فيها وأهاليها وربما موظفيها ومأموري دائرة العدل إلى رسائل النور وإلى طلابها أكثر من أي مكان آخر''.[23]

٩- الجمالية في عدم الإفراج عن النورسي من السجن.

كلما كان الإنسان بعيداً عن الدنيا ومشاغلها كان أكثر استفادة من عبادته، فعبادة الليل الهادئ ليست كعبادة النهار، وكل ما يفعله العبد المؤمن من تأمل وتفكر وذكر لله وقراءة القرآن بتدبر في خلوة، أو في مكان منعزل عن الناس فإنه يجد له لذة وطعماً غير ما يجده في القيام بها في جو الهرج والمرج، وخاصة إذا كانت هذه العبادة في شهر رمضان المبارك، وأفضل من يتحدث عن هذه اللذة والسعادة رجل عاشها وذاق طعمها حتى أصبح يفضل البقاء في السجن من أجلها، ''نبارك من كل قلوبنا وأرواحنا شهر رمضان المبارك، ونسأله تعالى أن يجعل ليلة القدر لكم خيراً من ألف شهر... إنني أعتقد أن بقاءنا هنا إلى العيد فيه خير كثير، وفوائد جمة، إذ لو أفرج عنا لحرمنا من خيرات هذه المدرسة اليوسفية، فضلاً عن أننا سنشتغل بأمور دنيوية في هذا الشهر المبارك، شهر رمضان الذي هو شهر أخروي بحث... إذن فالخير فيما اختاره الله، وستكون إن شاء الله أفراح كثيرة، وخيرات أكثر''.[24]

١٠- جمالية التحمل العجيب والصبر الجميل والاستغناء عن الناس بعد الحصار المحكم.

أشار الأستاذ إلى مجموعة من المحن والمصائب التي تعرض لها من قِبل أعداء الإسلام ثم اتبعها قائلاً: ''ولكن رغم كل هذا فقد منحني الحفيظ العليم، وشملني بعنايته الواسعة، وأعطاني تحملاً عجيباً، وصبراً جميلاً، ولم يجعلني مضطراً إلى التوسّل بهم قطعاً رغم المضايقات الشديدة''.[25]

١١- الجمالية في اكتشاف سر بعض الآيات.

القرآن معجزة الله الخالدة، وهو كتاب هداية وتذكير، من تمسك به نجى ومن أعرض عنه هلك ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾. الإسْرَاء:٩

والعلماء من عهد الصحابة ﷺ، إلى يومنا هذا يتفاوتون في فهم كتاب الله والاستفادة منه، وفي استخراج كنوزه وأسراره، وقوة الاستنباط لها أسبابها: فمنها العلم بلغة القرآن، ومعرفة علوم الآلة التي لها صلة به، وإلى هنا قد يتساوى الكثير في الحصول على هذه العلوم، لكن الذي لا يمكن التساوي فيه هو العلم بالله وخشيته، والتضحية من أجل إعلاء كلمة الله، بالجهاد في سبيله بالنفس والمال، والصدق والإخلاص، والانطراح بين يديه، فهؤلاء الصادقون المخلصون لقوة تعلقهم بالله، وتدبرهم لكتابه يفتح الله عليهم، بما يعدونه اكتشافاً من الناحية العلمية، عندما يمتحنون، وهذا الاكتشاف يظهر في الغالب بعد تذكير وتنبيه، وربما بصفعات متتالية، كما عبّر عنها الأستاذ النورسي؛ لأن من الناس من لا ينتبه إلا بالصفع، والصفع من الحبيب تشريف، وقد وقع مثل هذا الاكتشاف لعمر بن الخطاب ﷺ، عندما صفع بموت الحبيب المصطفى ﷺ، حتى جاء أبوبكر الصديق ﷺ وتلا عليه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾، آل عِمْرَان:١٤٤ قال عمر ﷺ: ''والله ما هو إلا أن سمعت أبابكر تلاها فعرقت حتى ما تُقِلُّني رجلاي وحتى هويت إلى الأرض''، وفي رواية: ''فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبوبكر، فتلاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلى يتلوها''.[26]

فالأستاذ النورسي كان يحفظ كتاب الله، ويتلوه دائماً ولكن ظهور سر من أسرار بعض الآيات، يظهر أحياناً لسبب من الأسباب.

فمن ذلك: كان الأستاذ يشتغل بالقرآن وأسراره ونكته، محاولاً بذلك التغلب على الآلام والأحزان التي كان يعيشها بسبب النفي، وعزله عن الناس كلياً، ومفارقة بلدته وأحبابه وأصدقائه، ولكنه مع ذلك لم يستطع نسيان ابن أخيه، بل ابنه المعنوي وتلميذه المخلص، وصديقه الشجاع عبد الرحمن، وبعد أن تحدث الأستاذ عن حياته المليئة بالجد والاجتهاد والتضحية والتفاني في خدمة رسائل النور، وكان أمله الوحيد في خدمته ورعايته والتعاون معه، وبعد مراسلة بينهما قال الأستاذ: ''لقد أبكتني تلك

المراسلة كثيراً ولا زالت تبكيني''، وبينما كان يعيش أمل تلك الحياة الدنيوية، ليعيشا معاً في خدمة الدين، وإذا به يفاجأ بوفاته، قال الأستاذ: ''فيا أسفاه ويا حسرتاه، لقد هزني هذا الخبر هزاً عنيفاً حتى أنني لا أزال تحت تأثيره منذ خمس سنوات، وأورثني حزناً شديداً وألماً عميقاً للفراق المؤلم يفوق ما كنت أعانيه من ألم الأسر المعذب، وألم الانفراد والغربة الموحشة، وألم الشيخوخة والمرض، كنت أقول: إن نصف دنياي الخاصة قد انهد بوفاة أمي، بيد أني رأيت أن نصفي الآخر قد توفي أيضاً بوفاة عبد الرحمن... ولكن على حين غرة انكشف سر الآية الكريمة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، القَصَص:٨٨ انكشافاً بيناً بحيث جعلني أردد يا باقي أنت الباقي، وبه أخذت السلوان الحقيقي... وهكذا فقد أغاثني المعنى الإشاري للآية الكريمة: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، التَّوْبَة:١٢٩ وأمدني بنور لا يخبو، فبدد ما كنت أعانيه من الحزن النابع من وفاة عبد الرحمن واهباً لي التسري والتسلي الحقيقي. نعم لقد علمتني هذه الآية الكريمة أنه ما دام الله موجوداً فهو البديل عن كل شيء... ليرحل من يرحل يا إلهي، فأنت الباقي وأنت الكافي، وما دمت باقياً فلتجل من تجليات رحمتك كاف لكل شيء يزول''.[27]

وينبغي أن يعلم أن هذا النوع من الفهم للقرآن الكريم ليس فهماً نظرياً يدركه الإنسان بالتدبر والقراءة المجردة، وإنما هو فهم تطبيقي وإحساس شعوري خاص يكرم الله تعالى به من شاء من عباده بعد اختبار عسير وامتحان غير يسير.

وبعد أن تحدث عن فوائد كثيرة حصلت له ولرسائل النور بسبب دخولهم السجن، والمحن التي أصابتهم من جراء ذلك، قال: ''لو رفع الحجاب لحملتكم تلك الفوائد على القول: يا رب لك الحمد والشكر حقاً، إن هذا البلاء النازل بنا عناية بحقنا، وأنا مطمئن من هذا ومقتنع به، لا تعاتبوا –يا اخوتي– الذين أصبحوا السبب في وقوع الحادثة، إن هذه الخطة الرهيبة الواسعة، قد حيكت منذ مدة مديدة إلا أنها جاءت مخففة معنى، وستزول بسرعة بإذن الله فلا تتألموا بل استرشدوا بالآية الكريمة: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.''البَقَرَة:٢١٦ [28]

وقال في موضع آخر: ''فالآية الكريمة ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ تلقن درس حقيقة يقينية''.[29]

وقال رحمه الله لإخوانه وأعزائه الأوفياء: ''لا أعزيكم بل أهنئكم، إذ ما دام القدر الإلهي قد ساقنا إلى هذه المدرسة اليوسفية الثالثة، لحكمة اقتضاها، وأنه سيطعمنا من أرزاق دعتنا إلى هنا، وما دامت تجاربنا القاطعة قد علمتنا –لحد الآن– أن العناية الإلهية لطيفة بنا، وقد جعلتنا ننال سر الآية الكريمة ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾. ''البَقَرَة:٢١٦ 30

١٢- جمالية العفو عند الأستاذ النورسي

من أسماء الله ''العفو الغفور'' وهو سبحانه وتعالى يحب العفو كما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها: ''اللّهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا''،[31] وقد أمر الله بالعفو وأرشد الناس إليه وحببه إليهم بطرق كثيرة، قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، الْمَائِدَة:١٣ وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾، النُّور:٢٢ وقال: ﴿وَأَنْ تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، البَقَرَة:٢٣٧ وقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾. الشُّورَى:٤٣

وفي صحيح البخاري كتاب المظالم، باب عفو المظلوم. وقد مثل الرسول ﷺ المثل الأعلى في العفو، وذلك في مقامات كثيرة منها في فتح مكة ''اذهبوا فأنتم الطلقاء''، وعندما خرج إلى الطائف وآذوه وجاءه جبريل معه ملك الجبال وخيره في إهلاكهم، فقال: ''أرجو الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً''، وعندما كان راجعاً من غزاة ونام تحت شجرة علق سيفه فيها، فجاءه مشرك وأخذ السيف وقال: يا محمد من يمنعك مني الآن، فقال الرسول ﷺ: الله، فسقط السيف من يد المشرك، وأخذه الرسول، وقال له: وأنت من يمنعك مني الآن، فقال المشرك: كن خير آخذ، فعفا عنه وخلى سبيله.[32]

وهكذا كان الأئمة والمجاهدون والمصلحون عبر التاريخ الإسلامي يتحلون بهذه الصفة العظيمة التي يحبها الله.

أما الأستاذ النورسي رحمه الله، فإن له في العفو حديثاً عجباً، ذلك أن الحقد مغيب عنده تماماً حتى على أعدائه المعاندين الذين ظلموه عن علم وقصد، فهو يتأسف لحالهم بدل الحقد عليهم، ويحيلهم على المحكمة الكبرى يوم القيامة، قال رحمه الله: ''ولما كانت الدنيا ومشقاتها فانية وماضية عابرة بسرعة فإن المظالم التي ينزلها بنا

أعداؤنا المستترون سننتقم منهم، ونأخذ ثأرنا بأضعاف أضعافها، بل بمائة ضعف، وذلك في المحكمة الكبرى وجزء منها في الدنيا، فنحن بدلاً من الحقد والغضب عليهم نأسف على حالهم".[33]

وفي نظرة أخرى وهو يحكي عن تأثير رسائل النور في القلوب العطشى، وكأنه وصل إلى أقصى أمانيه، وكشُكرٍ لله تعالى على بلوغه أمنيته التي هي أغلى أمانيه يخرج نفسه من المعادلة، ويبرهن على إخلاصه ويعفو عن الجميع، وكأنه وصل إلى الفتح الأعظم، وقال لأعداء الأمس: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

قال رحمه الله: "وما دامت رسائل النور تؤثر في القلوب العطشى إلى الإيمان وإلى نور الحقائق، إذن لا يفدى بـ 'سعيد' واحد، بل بألف 'سعيد وسعيد' وليكن كل ما قاسيته في غضون ثمان وعشرين سنة من الأذى والمصائب حلالاً زلالاً.. أما الذين ظلموني وجرجروني من مدينة إلى أخرى، والذين أرادوا أن يوصموني بمختلف التهم والإهانات، وأفردوا لي أماكن في الزنزانات، فقد غفرت لهم وتنازلت عن حقوقي تجاههم".[34]

وليس هذا فحسب بل إنه يوصي طلابه أيضاً بهذه الصفة العظيمة، صفة العفو، فقال: "إن الكثيرين من طلابي قد ابتلوا بشتى أنواع البلايا والمصائب، وتعرضوا لصنوف العذاب والمتاعب، واجتازوا امتحانات عسيرة بفضل الله: إنني أطلب منهم أن يتجاوزوا مثلي عمن اقترف تلك المظالم وهضم الحقوق؛ لأن أولئك قد ارتكبوا تلك الأمور عن جهل منهم، والذين آذونا وعذبونا ساعدوا على نشر تلك الحقائق الإيمانية، دون أن يدركوا تجليات أسرار القدر الإلهي... ووظيفتنا تجاه هؤلاء هي التمني لهم بالهداية.

أوصي طلابي ألا يحمل أحد منهم شيئاً من روح الانتقام في قلبه، ولو بمقدار ذرة، وأن يسعوا سعياً جاداً لنشر رسائل النور، وليرتبطوا بها ارتباطاً وثيقاً، إنني مريض جداً لا طاقة لي لا في الكتابة ولا في الحديث، وقد يكون هذا آخر أقوالي".[35]

ونحن بدورنا أيضاً سنكون قد انتهينا من تحرير هذا الموضوع المهم في حياة الإنسانية بصفة عامة، وحياة المسلمين بصفة خاصة.

ولكني قبل أن أضع القلم أوصي وبإلحاح شديد بقراءة اللمعة الثانية،[36] التي هي بعنوان: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ

الرَّاحِمِينَ﴾، الأَنْبِيَاء:٨٣ وكذلك اللمعة الخامسة والعشرون،[37] وهي رسالة المرضى.

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم، أن يشفي أمراضنا جميعاً، ويلهمنا الصبر على الضراء، والرضى به، والشكر على السراء والقناعة به.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد إمام الصابرين، وسيد الشاكرين وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار ما تعاقب الليل والنهار.

* * *

الهوامش:

[1] كلية الآداب، جامعة ابن زهر –أكادير- المغرب.

[2] النورسي، بديع الزمان سعيد، اللمعات ص١٢، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٣.

[3] التربية السلوكية عند بديع الزمان ص٩٥.

[4] النورسي، بديع الزمان سعيد، الملاحق ص٣٦٨، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥.

[5] اللمعات ص٣٦٨-٣٦٩, النورسي، بديع الزمان سعيد، سيرة ذاتية ص٤٤١، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥.

[6] اللمعات ص٣٦٩-٣٧٠, السيرة الذاتية ص: ٤٤٢-٤٤٣

[7] النورسي، بديع الزمان سعيد، المكتوبات ص٥٦، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٢.

[8] المكتوبات ص٥٧.

[9] اللمعات ص: ٣٤٩-٣٥٠.

[10] اللمعات ص: ٣٥٠.

[11] المكتوبات ص: ٥٧.

[12] المكتوبات ص: ٢٩-٣٠.

[13] اللمعات ص: ٤٠٤-٤٠٥.

[14] اللمعات ص: ٤٠٤-٤٠٥.

[15] النورسي، بديع الزمان سعيد، الشعاعات ص٣٦٧، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٣.

[16] النورسي، بديع الزمان سعيد، الملاحق ص١٤٧، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥.

[17] الملاحق ص٢٣٩.

[18] اللمعات ص: ٤٠٥.

[19] الملاحق ص: ٢٣٨.

[20] اللمعات ص: ٤٠٤.

[21] الشعاعات ص: ٥٢٤.

[22] اللمعات ص: ٤٠٠.

[23] الشعاعات ص: ٣٦١.

[24] الشعاعات ص: ٥٥٧.

[25] السيرة الذاتية ص: ٣٦١.

[26] تفسير ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية (١/٤٠٩).

[27] اللمعات ص: ٣٧٣-٣٧٦، السيرة الذاتية ص٢٢٥.

[28] السيرة الذاتية ص: ٣٤٧.
[29] الملاحق ص٢٩٠، السيرة الذاتية ص: ٣٧٣.
[30] الشعاعات ص٥٢٤، السيرة الذاتية ص: ٤١٧.
[31] سنن ابن ماجه رقم ٣٨٥٠.
[32] صحيح البخاري رقم ٢٩١٣.
[33] الشعاعات ص: ٥٥٧-السيرة الذاتية ص: ٤٢٧.
[34] الملاحق ص: ٣٧١.
[35] الملاحق ص: ٣٧١-٣٧٢.
[36] اللمعات ص: ١٠.
[37] اللمعات ص: ٣١٥.

ملف العدد

منهج النورسى في شرح أسماء الله الحسنى

أ.د. الشفيع الماحي أحمد[1]

يطلق لفظ الذات في العادة ويراد به صلاحية الحكم على شيء ما، بالوجود إذا كان موجوداً، وبالعدم إذا استحال وجوده، وقد يطلق اللفظ نفسه من زاوية أُخرى ويراد به حقيقة الشيء، أو قيامه بذاته، أو ما يخصه وتمييزه عن غيره،[2] ويرد معنى ذات الشيء سابقاً سبقاً ذهنياً على وجوده، فتتقدم الذاتية في الذهن ويتأخر وجودها تأخراً يدفعها لتحتل المقام الثاني في العلم والمعرفة وفي الإخبار عنها، وفي كل الأحوال يطلق لفظ الذات ليعبَّر به عن الشيء مجرداً عمن سواه من الأشياء.

ويطلق لفظ الذات بهذا المفهوم على الله ويراد به الوجود المطلق، وهو إطلاق يكشف عن مرتبة لم يكن الحق ﷻ فيها محل علم ولا معرفة لأحد من العالمين، ثم أعلمَ تعالى عن ذاته، فَعُرف باسم ''الله'' فأَصبح الاسم عبارة عن ذاته ونفسه التي هو بها موجود وجوداً لا يعطى من خلال مدلول الذاتية معنى التجسيد ولا التجريد المطلق، ولفظ الذات والنفس يعبران هنا عن حقيقة وجوده تعالى بلا زيادة في المعنى، أما الاسم ''الله'' فهو اسم عَلَم للذات الإلهية، وهي التي استحقت ما عُرف في مرحلة تالية على اسم العَلَم بالأَسماء الحسنى.

والله تعالى قد سمّى نفسه وذاته العليا بأسماء كثيرة، لا لمجرد التعريف والإعلام، بل لما توجبه تلك الأسماء من آثار وما تقتضيه من لوازم ومظاهر في الوجود، مما يعنى أن الأسماء تحتل وعلى المستوى العلمي والمعرفي المرتبة نفسها التي للاسم، وفيها التعبير المباشر عن حقيقة الوجود والذات، ولكنها دالة على نسبة إلى غير الذات، ويتوقف فهم تلك النسبة وإدراكها بل وتعقلها على الوجود والذات معاً.

واصطلح على تلك النسبة وذلك التأثير في علم الكلام والعقيدة الاسلامية اسم

التعلق، بمعنى طلب الاسم[3] أَو بتعبير آخر اقتضاؤه واستلزامه أَمراً زائداً على ذاته يصلح له، إذ أن كل اسم مقتضى لأَثره، ولا يحصل بدون لوازمه، فعد التعلق بناء عليه نسبة مخصوصة، وإضافة مخصوصة بين الاسم ومقتضياته، وسماه المتكلمون التعلق بالفعل، والتعلق التنجيزي الحادث، لأَن التعلق –كما يرون– بحكم طبيعته لا يكون إلا تعلقاً بما هو موجود بالفعل.

وفي مقابل ذلك الاصطلاح استخدم سعيد النورسي صيغة التجلي ليعبر من خلالها عن تلك النسبة المخصوصة بحقائقها المختلفة والمتنوعة، لأَن الكلمة من دلالتها الجامعة ومفهومها المميز تعنى هي الأُخرى ظهور وانكشاف مقتضيات الأَسماء الإلهية، وتحقق معانيها على صفحة الوجود الخارجية، تماماً كما تتراءى حقائق الأشياء وتنعكس على المرآة الصافية، بحيث تتجلى معانيها، وتنكشف حقائقها، فتظهر للعيان مستقلة في وجودها عن الذات الإلهية، ومتميزة بمقاصد وغايات مخصوصة.

والنورسي في عرضه وشرحه لما عرض وشرح من أسماء الله الحسنى عوَّل على هذه الصيغة وحدها، فأَعطى للأسماء من المعاني مالا تفهم معه بمعزل عن مقتضياتها وآثارها، إذ لولا ذلك التجلي الفريد لما ظهر على صفحة الوجود اسم لله ولا صفة، ولا تحقق للاسم معنى يشار إليه، ولم يكن هناك علم ولا معرفة، ولاستحال الوجود إلى حالة غير تلك التي هو عليها الآن.

وسنحاول فيما يلي تحليلاً لبعض أسماء الله الحسنى، مركزين على إبراز هذا المعنى وحده دون غيره من المعاني الكثيرة والمتعددة التي تتضمنها أسماء الله الحسنى، وهو ما حرص عليه النورسي وأولاه أهمية خاصة، لدلالته البينة على مقتضى الاسم الإلهي من جهة، ولاستناد حقائق الموجودات والكائنات عليه من جهة أُخرى.

الفرد:

يفيد اسمه تعالى أحداً وواحداً ودون الدخول في تفسيراته المتعددة معنى الذاتية ''ذات الله''، وفي تطابق وانسجام يجعل من الذات والاسم في منزلة واحدة حكماً ومعنى، وذلك لأن كلا من الأحدية والواحدية يتحدان مع الوجود المطلق، ويعدان حقيقة من جملة حقائق الوجود الإلهي، وبهذا الاعتبار عدت أحدية الله وواحديته ووحدانيته من جهة الحكم والمعنى إثبات محض لذات الله تعالى، وعندما نبّه الحق

ﷻ على ذاته، فعرَّف باسم الله، تقيدت الذاتية في قمة ظهورها المعرفي بالأحدية والواحدية كحكم له خصوصية مطلقة بالله تعالى.

والنتيجة المترتبة على هذا الاتحاد الفريد هو تجرد الأحدية والواحدية عن التجلي والظهور بمقتضيات الاسم، فترد دوماً كأخص مظهر من مظاهر الذات الإلهية ومتقدمة في الاعتبار على الاسم، ومرجع ذلك كله إلى أن مدلول الأحدية لم ينفصل عن الذات انفصالاً يحقق لها نسبة بها تظهر على مرآة الوجود، بل اتحدت مع الذات اتحاداً نالت بموجبه ما للذات من أحكام، واكتسبت المعاني نفسها التي للأُلوهية كاستغنائه تعالى عن الكل، واحتياج الكل إليه، وتفرده عن غيره ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً، وانفراده عن المثل والنظير والشبيه إلى غيرها من المعاني التي عرّف الله تعالى بها ذاته للخلق.

بيد أن الحكم على الذات بالأحدية والواحدية والوحدانية هو في حد ذاته نسبة، ولكنها نسبة تتجلى وتظهر على الوجود والمخلوقات بمقتضى كونه أحداً وواحداً، وحين تنعكس حقائق الأُلوهية بذلك الحكم الأحدي، وتتجلى على مرآة الوجود الخارجي تظهر باسم الفرد، وهو الاسم الذي يرى فيه النورسي أنه ''يتضمن اسم الأحد والواحد''[4] وله نسبة ومقتضى كسائر أسماء الله الحسنى.

لأجل ذلك يذهب النورسي[5] إلى أن تجلى الفردية هو وحده الذي طبع الوجود كله بطابع الأحدية والواحدية والوحدانية، بدءاً من الكون الكبير إلى أقل جزء منه، وظهرت بصمات الفردية على كل نوع فيه، وعلى كل فرد فيه، فتحول الكون كله بحكم الكل الذي لا يقبل التجزئة مطلقاً، بحيث إن من لا يقدر على أن يتصرف في الكون كله لا يكون مالكاً ملكاً حقيقياً لأي جزء منه، ومن لم يكن مالكاً لجميع ما في الكون لا يمكنه أن يتصرف بنوع منه أو عنصر فيه تصرفاً حقيقياً.

وتجلّى الفردية على الوجود فوق كونه واضحاً وضوحاً مطلقاً هو أيضاً فطرى وبسيط ومقبول إلى حد السهولة المطلقة، ومستساغ عقلاً ومنطقاً إلى حد الوجوب، وعلى النقيض منه تماماً الشرك المنافي لذلك التجلي الفريد، لأن الشرك من الأمور المعقدة إلى أقصى حدود التعقيد، وغير منطقي إطلاقاً، وبعيد جداً عن المعقول إلى حد الامتناع والمحال.

وتتجلى الفردية في أنصع صورها وأشكالها، وتظهر بأسمى معانيها في سهولة خلق

الموجودات، واليسر المتناهي في إيجادها، فتخرج إلى الوجود من دون صعوبة، وبلا عناء أو تكلف، وعلى أكمل صورة وأتمها، أمّا إذا فُوّض أمر الخلق والإيجاد إلى غير الفردية والوحدانية، وأسند إلى الأسباب العمياء أو الطبيعة الهوجاء، والصدفة العشوائية، فستتعقد الأمور وتتشابك، وتتكشف على صفحة الوجود أمور ليست معقولة ولا منطقية، وعندئذ كما يقول النورسي:

''يلزم لخلق ذبابة واحدة مسح وتفتيش سطح الأرض وغربلة عناصرها وذراتها جميعاً، ثم وزنها بميزان دقيق حساس، لوضع كل ذرة في موضعها المخصص لها، حسب قوالب مادية بعدد أجهزتها وأعضائها المتقنة، وذلك لكي يأخذ كل شيء مكانه اللائق به، فضلاً عن جلب المشاعر والأحاسيس الروحية الدقيقة واللطائف المعنوية والروحية بعد وزنها أيضاً بميزان دقيق حسب حاجة الذبابة''.[6]

فمن الأُمور السهلة والهيئة إذن على قدرة الله الواحد الأحد ''خلق أعظم جرم، وخلق أصغر شيء على حد سواء، فهو تعالى يخلق الربيع الشاسع بيسر خلق زهرة واحدة، ويحدث في كل ربيع بسهولة بالغة آلافاً من نماذج الحشر والنشور، ويراعى شجرة ضخمة باسقة بيسر مراعاة فاكهة صغيرة''.[7]

ويضفي تجلى الفردية على الكون والمخلوقات من النجوم والنباتات والحيوانات والأرض وحتى الجزئيات والذرات نظاماً متقناً وكمالاً فريداً وانسجاماً بديعاً، ولو كان هناك أي تدخل لما سوى الله لفسد هذا النظام الدقيق ولأختل ذلك التوزان المحكم، ولظهرت بادية للعيان. وقوله تعالى ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ الْمُلْك:٣ يكشف بجلاء هذا النظام والتوازن. فيقول النورسي:

''إن الذي يتأمل في هذا الكون في ضوء سر الفردية يرى الكون واحداً يستعصي على التجزئة مطلقاً، وليس هذا فحسب بل هو كليّ لا يقبل الانقسام والاشتراك والتجزئة وتدخّل الأيدي المتعددة قط، فأي تدخل فيه مما سوى الواحد الأحد محال ممتنع، إذ إن كل جزء فيه بحكم جزئي وفردي، والكون هو بحكم الكلي، فليس فيه موضع للاشتراك في أية جهة كانت''.[8]

ويساوق النظام المتقن والانتظام الرائع والموازنة الدقيقة التدبير والإدارة، لأن من لا يدبر المخلوقات كافة، ولا يدير شؤونها وأحوالها، لا يمكنه التدخل المباشر في أمر من أُمورها ناهيك عن خلقها وإيجادها، يقول النورسي لافتاً النظر إلى هذا الأمر:

''تأمل في هذه البُسُط المفروشة على الأرض التي لُحمتها وسَداها مئتا ألف طائفة ونوع من أنواع الحيوانات وطوائف النباتات بأفرادها المتنوعة التي لا يعد ولا تحصى والتي تضفي الزينة وتنشر البهجة على نسيج الحياة على سطح الأرض، تأملها جيداً وأدِم النظر فيها، فإنها مع اختلاف أشكالها، وتباين وظائفها، وتنوع أجهزتها، وامتزاجها بعضها مع البعض الآخر تشاهد:

أَنَّ رزق كل ذي حياة يأتيه رغداً من كل مكان ومن حيث لا يحتسب بلا سهو ولا نسيان. بلا انشغال ولا ارتباك، بلا خطأ ولا التباس، فيعطى بميزان دقيق حساس كل ما يحتاجه الفرد، في وقته المناسب، من دون تكلّف ولا تكليف، مع تمييز لكل منها''.[9]

وتجلى الفردية كما يظهر إجمالاً يظهر أيضاً تفصيلياً، لا سيما في السمات والعلامات الفارقة والمرسومة بدقة متناهية على وجوه البشر، صيانة لحقوق الناس، ومنعاً للالتباس فيما بينهم، يقول النورسي موضحاً هذه المعجزة الإلهية:

''... فالذي لا يستطيع أن يضع تلك العلامات في كل وجه، ولا يكون مطلعاً على جميع الوجوه السابقة واللاحقة منذ آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، لا يمكنه أن يمد يده من حيث الخلق والإيجاد ليضع تلك الفوارق المميزة الهائلة في ذلك الوجه الصغير.

نعم إن الذي وضع في وجه الإنسان ذلك الطابع المميز وتلك الآية الجلية بتلك العلامات الفارقة، لابد أَنَّ أفراد البشر كافة هم تحت نظره وشهوده، وضمن مباشرة علمه حتى يضع ختم الفردية والأَحدية في ذلك الوجه، بحيث إنه مع التشابه الظاهر بين الأَعضاء الأساس كالعيون والأُنوف وغيرها من الأَعضاء، لا تتشابه تشابهاً تاماً، بسبب علامات فارقة في كل منها''.[10]

ومهما يكن من أمر فإن الفردية التي تطبع الوجود كله بطابع واحد لو كانت قاصرة على الخلق والإيجاد وما يرتبط بالخلق والإيجاد من أُمور لازمة، لانفكت المخلوقات عن خالقها، ولاستقلت في حركتها عنه، ومن ثم يضمحل دور الفردية وتتلاشى آثارها. ولأجل ذلك يرى النورسي[11] أن أثر الفردية لا ينحصر على هذا الأمر وحده. بل للفردية تأثير آخر وتجلى أكبر بحيث تجعل كل مخلوق يستند إلى خالقه في كل شأن من شؤونه. فيكتسب بهذا الاستناد والانتساب قوة لا حد لها. حتى يمكنه أن ينجز من الأعمال ما يفوق قوته الذاتية بألوف المرات.

ويستدل النورسي على سر ذلك الاستناد والانتساب الذي في الفردية بقوله ''فقوة الاستناد هي التي تجعل النملة الصغيرة تقدم على إهلاك فرعون عنيد، وتجعل البعوضة الرقيقة تجهز على نمرود طاغية، وتجعل الميكروب البسيط يدمر باغياً أثيماً، كما تمد البذرة الصغيرة لتحمل على ظهرها شجرة صنوبر باسقة شاهقة، كل ذلك باسم ذلك الانتساب وبسر ذلك الاستناد''.[12]

ويشبه النورسي انتساب واستناد الإنسان إلى ربه بانتساب واستناد الجندي إلى قائد عظيم ''فيصبح له هذا الانتساب بمثابة قوة ممدّة لا تنفد، فلا يضطر إلى حمل ذخيرته وعتاده معه، لذا قد يقدم على أسر قائد جيش العدو مع آلاف ممن معه، بينما السائب الذي لم ينخرط في الجندية، فإنه مضطر إلى حمل ذخيرته وعتاده معه، ومهما بلغ من الشجاعة فلا يستطيع أن يقاوم إلا بضعة أفراد من العدو، وقد لا يثبت أمامهم إلاّ لفترة قليلة''.[13]

وانتساب واستناد الإنسان إلى الله تعالى عند النورسي هو الإيمان[14] به إلهاً ورباً للعالمين. وبإرادة حرة واختيار تام، وبالإيمان يوحّد الانسان خالقه، وبهذا التوحيد تتجلَّى على المؤمن أعظم تجليات الفردية، بحيث يطمئن إلى جميع رغباته. ورغبات الإنسان كما يصفها النورسي كثيرة جداً. وكلها ممتدة إلى غير نهاية معلومة، ومتشعبة في ثنايا الكائنات جميعاً، وهذه الرغبات جميعها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحقيقة التوحيد، ومشددة مع سر الفردية، إذ لا تجد اطمئنانها وسكونها لدى الذي لا يؤمن بالتوحيد وانفراد الله تعالى، لذا تبقى لديه هذه الرغبات عقيمة دون نتائج، قاصرة عن بلوغ مداها، مبتورة منكمشة.[15]

الحي:

قيل في معنى الحياة إنه ما تصير به جملة الحركة والإدراك والحس كالشيء الواحد من جواز تعلق الصفات به.[16] وذلك في مقابل الموت والذي لا تصير به الجملة كالشيء الواحد، وعلى هذا فالحياة كمال للحي والموت نقص له، ومن ثم يصبح كل حيّ كاملاً في حدود حياته التي هو بها حياً. وفي حين تختلف كيفيات الحياة بين حيّ وآخر، يظل معنى الحياة راسخاً لا يتحول ولا يتبدل ولا يطلق إلا على أكمل أحوال الحي.

والكمال الذي أوجبته الحياة للحيَّ هو في حقيقة أمره كمال إضافي، أو بتعبير آخر كمال حياة بالإضافة. تفريقاً بينه وبين كمال حياة الله والذي هو له بالذات، ومن هنا صح قول من قال إن الحياة بالإضافة هي التي يلحق بها العدم والفناء، أَمَّا الحياة التي هي بالذات فهي الحياة التامة لا يعتريها فناء ولا يلحق بها عدم.

ولا شك في أن تميز الحيَّ بالحركة والحس والإدراك هو الذي منحه حياة حقيقة تختلف عن غيرها من الحيوان. ولكن المعنى نفسه لما فيه من معنى الشعور والانفعال يستحيل على الله تعالى، لا لانتفاء الحياة بمدلولها المألوف عنه، بل لأَن حياته تعالى هي حياة على التقدير لا على الحقيقة.[17] وهو المعنى الذي أوجبه لله تعالى الإدراك المطلق أبداً وأزلاً، وهو بالضرورة كمال لذاته. وإذا لم يوجب له، عد ناقصاً، وعلى ضوء ذلك صح وصفه تعالى بالحياة وسمى باعتبار ذلك حياً.

وصفات الإدراك –كما هو معروف– هي الصفات الثبوتية الواجبة لله تعالى. وأبرزها العلم والإرادة والقدرة والكلام ثم السمع والبصر، وصفة الحياة متقدمة عليها جميعاً لامتناع تصور موجود عالم قادر مريد ولا حياة له. وبالحياة كمل الوجود، واكتملت الحياة بالإدراك.

ومظاهر الحياة الإلهية المختلفة من علم وإرادة وقدرة هي التي اقتضت في الوجود حياة لها نفس المظاهر، حتى يمكن على حد تعبير النورسي[18] ''مشاهدة نور الحياة على الأَحياء كافة. فالحياة إذن هي نور الوجود وكاشفة للموجودات وسبب لظهورها، وهي التي تجعل كل شيء مالكاً لكل كائن حي، وتجعل الشيء الحيَّ الواحد بحكم المالك لجميع الاشياء، وهي التي تمكنه من القول: إن هذه الأشياء ملكي، والدنيا مسكني، والكائنات كلها ملك أعطانيه له مالكي''.

ومعنى جليل كهذا لا تفهم حقيقته ولا يسبر غوره إلا بمقارنة بسيطة بين جسم كبير كالجبل وجسم صغير كالنملة، فيقول النورسي ''انظر إلى الجبل وليكن جبلاً شاهقاً، تراه غريباً يتيماً وحيداً، إذ تنحصر علاقته وصلته بمكانه وما يتصل به من أشياء فقط، وما يوجد من الكائنات الأُخرى معدوم بالنسبة إليه. وذلك لأَنه ليس له حياة حتى يتصل بها. ولا شعور حتى يتعلق به.

ثم انظر إلى جسم صغير حيَّ كالنحل مثلاً: ففي الوقت الذي تدخل فيه الحياة فإنه

يقيم عقداً وصلة مع جميع الكائنات والموجودات. وخاصة مع نباتات الأرض وأزهارها بحيث يمكنه القول: إن جميع الأرض هي حديقتي ومتجري. فالحياة وحدها هي التي أعطت للنحل فرصة التعرف وإمكانية الأُنس والتبادل مع أكثر الموجودات في الدنيا''.[19]

ولعل هذا هو ما دفع بالنورسي[20] ليؤكد على أَنَّ الحياة هي أَعظم تجل لاسم الله الحي، وأَروع معجزات القدرة الإلهية، والصنعة الإلهية الخارقة، وأَسطع برهان وأَثبته وأَكمله على وجوب وجوده تعالى، وأعجوبة الخلقة الربانية، وأَلطف تجليات اسم الرحمن والرحيم والرزاق والكريم والحكيم وأَمثالها من الأَسماء الحسنى، ولها من المراتب والوظائف والصفات والمرايا ما يحتاج بيانه وتفصيله إلى أُلوف الصفحات لتفي بكل هذه الخصائص.

فلو أَخذنا وجهي الحياة الظاهر والباطن لوجدناهما صافيين كاملين مبرأين من النقص والتقصير، وليس فيهما ما يستدعي الشكوى أو الاعتراض، وما ينافي نزاهة القدرة من دنس مستهجن أَو قبح ظاهر، ورغم هذا تضع القدرةُ الإلهيةُ أَسباباً ظاهرة لتصرفاتها فيهما، فما السر في ذلك، يجيبنا النورسي بقوله:

''إِنَّ كل شيء في الكون ينطوي على خير، وفيه جمال وحسن، أَمَّا الشر والقبح فهما جزئيان جداً، وليسا أصيلين، وهما بحكم وحدتين قياسيتين، أَي أَنَّهما وُجِدَا لإظهار ما في الخير والقبح حُسناً من هذه الزاوية، أَي من زاوية كونهما وسائل لإبراز المراتب والحقائق.

ولكن على الرغم من أَنَّ الخير والجمال أَصيلان في كل شيء في الكون، فإن ما يبدو لذوى الشعور من مظاهر القبح والشر والبلاء والمصائب قد تدفعهم إلى السخط والشكوى والامتعاض، فوضعت الأَسباب الظاهرة ستاراً لتصرف القدرة الإلهية، لئلا تتوجه تلك الشكاوى الظالمة والسخط الباطل إلى الحي ﷻ.

زد على ذلك فإن العقل أيضاً بنظره الظاهري القاصر، قد يرى منافاة بين أَمور يراها خسيسة خبيثة قبيحة، وبين مباشرة يد القدرة المنزهة المقدسة، فوضعت الأَسباب الظاهرية ستاراً لتصرف القدرة الربانية لتُنَزِّه عزة القدرة الإلهية عن تلك المنافاة الظاهرية''.[21]

ويقال الشيء نفسه عن خاصية أُخرى تعد بالقياس إلى غيرها النتيجة الطبيعية للحياة، وسبب الخلق، وعلة الوجود، وهي العبادة والشكر. فيقول النورسي في شرحه لها:

"إِنَّ خالق الكون سبحانه وتعالى إذ يعرِّف نفسه لذوي الحياة ويحببها إليهم بنعمه التي لا تعد ولا تحصى يطلب منهم شكرهم تجاه تلك النعم، ومحبتهم إزاء تلك المحبة، وثناءهم واستحسانهم مقابل بدائع صنعة، وطاعتهم وعبوديتهم تجاه أَوامره الربانية، فيكون الشكر والعبادة أعظم غاية لجميع أنواع الحياة.

إِن العبادة خاصة لله وحده، وإِن الشكر والحمد لا يليقان حقاً إلاّ به سبحانه، وإِن ما في الحياة من شؤون وأُمور هي في قبضة تصرفه وحده. فينفى بهذا الوسائط والأَسباب مسلماً الحياة بما فيها إلى يد القدرة الإلهية. نعم إن الذي يدعو إلى الشكر والحمد والامتنان، والذي يثير الشعور إلى المحبة والثناء بعد نعمة الحياة، إنما هو الرزق والشفاء والغيث. وأمثالها من دواعي الشكر والحمد".[22]

فاذا كانت تلك وغيرها من خصائص الحياة ونتائجها. فإن حقيقة الحياة –كما رأى النورسي– مهما علت وعظمت لا تنحصر في هذه الدنيا قصيرة الأجل، والتي يكتنفها النقص والأَلم من كل ناحية، بل لابد من حياة أخرى سعيدة لا شقاءَ فيها مطلقاً، ونعيمها دائم لا يزول أَبداً. ولو لم يكن الأَمر هكذا لأصبحت الحياة الدنيا ولا سيما بالنسبة للإنسان دون ثمرة ولا فائدة ولا حقيقة. ولظل الإنسان شقياً وذليلاً، وأَحط من العصفور بعشرين درجة، مع أنه أسمى مخلوق، وأكرم ذوى الحياة، وأرفع من العصفور بعشرين درجة، من حيث الأجهزة وراس مال الحياة.

ويصبح العقل الذي هو أثمن نعمة بلاءً ومصيبة على الإنسان بتفكره في أحزان الزمان الغابر ومخاوف المستقبل فيعذّب قلب الانسان دائماً معكراً صفو لذة واحدة بتسعة آلام، ولا شك أن هذا باطل. فما دامت في الدنيا حياة، فهناك أيضاً في الآخرة حياة باقية في دار باقية، وفي جنة باقية.[23]

القيوم:

يفيد قيام الله تعالى بنفسه في المعنى استغناءه وعدم افتقاره لما سواه. وذلك لأن الله لايحتاج إلى سواه البتة، وكل ما سواه محتاج إليه، ومفتقر إليه في ذاته وصفاته، ومن هنا روعي في قيومية الله تعالى قوامه بذاته وقوام كل شيء به.

ولم يتجاوز النورسي في شرحه لمعنى الاسم ما سقناه آنفاً. فانتهى إلى أَنَّ ''الله قائم بذاته، دائم بذاته، باق بذاته، وجميع الأَشياء والموجودات قائمة به، تدوم به، تبقى في الوجود به، وتجد البقاء به، فلو انقطع هذا الانتساب للقيومية من الكون بأقل من طرفة عين يمحى الكون كله''.[24]

واسم القيوم يلي في المرتبة اسم الحي، وتجليه عند النورسي يأتي كذلك في المرتبة الثانية، فإذا كان تجلى اسم الحي قد جعل الموجودات كافة منوّرة بنور الحياة، فإن تجلى اسم القيوم هو الذي تكفل بحفظها ومراعاتها والاعتناء بها ما دامت أَبدانها معمورة بالحياة.

وتأسياً على معنى فإنَّ كل ما في الوجود وعلى حد تعبير النورسي يشير بقوة إلى تجلى اسم الله القيوم. فقيام الأَجرام السماوية في هذا الكون ودوامها وبقاؤها إنما هو مشدود بسر القيومية. ''فلو صرف نور القيومية وتجليه وجهه، ولو لأقل من دقيقة، لتبعثرت تلك الأَجرام التي تفوق فخامتها الكرة الأَرضية بأُلوف المرات. ولانتثرت ملايين الأجرام في فضاء غير متناهٍ، ولاصطدم بعضها ببعض، ولهوت إلى سحيق العدم''.[25]

وأوضح النورسي هذه الآية المتضمنة في حقيقة ذلك التجلي البديع بقوله:

''إننا مثلما نفهم قدرة قيومية من يُسيّر طائرات ضخمة في السماء بمقدار ثبات تلك الكتل الهائلة التي في السماء ودوامها. وبمدى انتظام دورانها انقيادها في جريها، نفهم أيضاً تجلى اسم القيوم، من منح القيوم ذي الجلال قياماً وبقاءً ودواماً لأَجرام سماوية لا حد لها في أثير الفضاء الواسع وجريانها في منتهى الانقياد والنظام والتقدير، وإسنادها وإدارتها وإبقائها دون عمد ولا سند.

وكما أن ذلك يمكن أن يكون مثالاً قياسياً للتجلي الأعظم لاسم القيوم، كذلك ذرات كل موجود، فإنها قائمة أيضاً بسر القيومية، وتجد دوامها وبقاءها بذلك السر، فبقاء ذرات جسم كل كائن حي دون أن تتبعثر وتجمّعها على هيئة معينة وتركيب معين حسب ما يناسب كل عضو من أعضائه. علاوة على احتفاظها بكيانها وهيئتها أمام سيل العناصر الجارفة دون أن تتشتت، واستمرارها على نظامها المتقن، كل ذلك لا ينشأ من الذرات نفسها، بل هو من سر القيومية الإلهية التي ينقاد لها كل فرد حي انقياد الطابور في الجيش، ويخضع لها كل نوع من أنواع الأحياء خضوع الجيش المنظم''.[26]

ويمتد تجلى القيومية – كما يعقب النورسي على معنى إلى أحوال الموجودات وأوضاعها وكيفياتها ''إذ لولا استناد كل شيء إلى تلك النقطة النورانية، لنتج ما هو محال من أُلوف الدور والتسلسل، وذلك لأن الحفظ أو الوجود أو الرزق أو ما شابهه من أي شيء كان، إنما يستند –من جهة– إلى شيء آخر، وهذا يستند إلى آخر، وهذا إلى آخر وهكذا، فلا بد من نهاية له، إذ لا يعقل ألاّ ينتهى بشيء. فمنتهى أمثال هذه السلاسل كلها إنما هو في سر القيومية''.[27]

إنَّ تجلى اسم القيومية كما اتضح يكمن في النسبة الاستنادية والتي ترتبط فيها المخلوقات بخالقها ارتباطاً وثيقاً ومباشراً، وتجعل كل مخلوق يفتقر دوماً إلى بارئه تعالى. ومقتضى القيومية يطلب هذه النسبة ويحتمها، ولولاها لتلاشت الحياة والموجودات ولتساوى الكل في المعنى بالعدم.

الباقي:

إذا كان القدم في حقه تعالى يعنى استمرار الوجود في الماضي إلى غير نهاية، فبقاؤه تعالى يعنى استمرار وجوده في المستقبل إلى غير نهاية، وتلك خاصية جعلت معنى البقاء أشمل في المعنى من القدم، بل ويحتوي في داخله معنى القدم، وذلك لأن البقاء يعنى ثبات الله ثبوتاً أَزلياً وأبدياً. في حين ينحصر القدم على ناحية واحدة من الوجود البقاء فيها سابق، وهي عدم الأولية.

ويتميز البقاء فوق ذلك بميزة تعد –بلا أدنى شك– من الخواص الذاتية لله تعالى وهي أن اسم القديم إذا أُطلق على الله فلا يفيد أكثر من التقدم في الوجود وعلى سبيل المبالغة، أَمَّا إِطلاق اسم الباقي فيعنى الموجود لا عن حدوث،[28] وهو معنى يصعب توهمه فضلا عن تخيله.

إِن الثبات المطلق والذي يستحيل عليه الفناء لمعنى البقاء قد نبّه النورسي على زمانية خاصة لتجلى اسم الباقي لا يدخل فيها عنصري التغير والحركة. ولا التجدد والانقسام، ومن ثم فبمقتضى الاسم ونسبته منحى ذو وجهين:

– الأول تجلى فيه الاسم للمخلوقات كافة بحكم نسبتها الإستنادية لله تعالى فصارت بموجب ذلك التجلي باقية لا يعتريها فناء، ولا يلحقها عدم بدءاً من أَبسط المخلوقات وأَضعفها كالزهرة. انتهاءً بالإنسان والملائكة.

- الثاني تجل يحدث على مقدار توجه المخلوق إلى اسم الباقي، وهو تجل خاص بالإنسان، ويشاركه فيه من شاركه في صفة المكلَّف كالجن والملائكة، والتوجه هنا توجه حركي يأخذ الطابع التعبدي.

وينفرد الإنسان في توجهه لاسم الباقي بخاصية لا نظير لها عند غيره من المكلفين. وهي أن الإنسان لما يحمله من مركب النقص والضعف أَشدهم حاجة لتجليات اسم الباقي، وفي هذا يقول النورسي:

''إن الإنسان بما أَودع الله فيه من ماهية جامعة يرتبط مع أَغلب الموجودات بأَوامر ووشائج شتى، ففي تلك الماهية الجامعة من الاستعداد غير المحدود للمحبة ما يجعله يكنّ حباً عميقاً تجاه الموجودات عامة، فيحب الدنيا العظيمة كما يحب بيته، ويحب الجنة الخالدة كما يحب حديقته. بينما الموجودات –التي وجّه الانسانُ حبه نحوها– لا تدوم، بل لا تلبث أن تزول، لذا يذوق الانسان دائماً عذاب ألم الفراق. فتصبح تلك المحبة التي لا منتهى لها. مبعث عذاب معنوي لا منتهى له.

فالآلام التي يتجرعها ناشئة من تقصيره هو، حيث لم يودع فيه ذلك الاستعداد إلا ليوجهه إلى محبة من له جمال خالد مطلق، بينما الإنسان لم يحسن استعمال محبته فوجهها إلى موجودات فانية زائلة، فيذوق وبال أمره بآلام الفراق''.[29]

ولكن الإنسان عندما يدعو ربه قائلا يا باقي يعنى كما يذهب النورسي[30] البراءة الكاملة من هذا التقصير، وقطع العلاقات مع تلك المحبوبات الفانية والتخلي عنها كلياً قبل أن تتخلى هي عنه، ثم تسديد النظر في المحبوب الباقي وهو الله تعالى، أي كأنه يقول: ''لا باقي بقاءً حقيقياً إلا أَنت يا إلهي. فما سواك فانٍ زائل. والزائل غير جدير بالمحبة الباقية ولا العشق الدائم ولا بأن يشد معه أواصر قلب أَحد من الخلق أَصلاً، وحيث إن الموجودات فانية وستتركني ذاهبة إلى شأنها فسأتركها أَنا قبل أن تتركني بترديدي يا باقي أَنت الباقي. أي: أُومن وأعتقد يقيناً أَنه لا باقي إلا أَنت يا إلهي، وبقاء الموجودات موكول بإبقائك إياها، فلا يوجه إليها المحبة إذاً إلا من خلال نور محبتك وضمن مرضاتك، لآنها غير جديرة بربط القلب بها''.

ويرى النورسي من بعد هذا كله ''أن الإنسان لا يدعو بمثل هذا الدعاء إلا لعشقه الشديد نحو البقاء. حتى إنه يتوهم نوعاً من البقاء في كل ما يحبه، بل لا يحب شيئاً إلا

بعد توهمه البقاء فيه، ولكن حالما يتذكر زواله أو يشاهد فناءه يطلق عليه الزفرات والحسرات من الأعماق، نعم إن جميع الآهات الناشئة من أَنواع الفراق، إنما هي تعابير حزينة تنطلق من عشق البقاء ولولا توهم البقاء لما أحب الإنسان شيئاً''.[31]

ولأَجل هذا فقد نبّه النورسي على ''أَن أَلزم شيء لهذا الإنسان، وأَجل وظيفة له هي شد الأواصر وربط العلاقات مع ذلك الباقي، وحيث إن عمر الإنسان الفاني يتضمن حياة قلبية وروحية هي معرفة الله ومحبته وعبادته وفق مرضاته. فإنه يتضمن إذاً عمراً باقياً، وثانية واحدة يقضيها الإنسان في سبيل الله الباقي تعد سنة كاملة بل أكثر، بل هي باقية دائمة لا ترى الفناء، بينما سنة من العمر إن لم تكن مصروفة في سبيله فهي زائلة حتماً: وهي في حكم لحظة خاطفة''.[32]

القدوس:

انتقل اسم القدوس عند النورسي من دلالته البيّنة على تنزه الله تعالى عن ضروب العيوب والنقائص والأضداد والأنداد والصاحبة والولد، ليتجلى بهذه المعاني مجتمعة على الوجود، فيحظى بالطهر والنقاء والصفاء والبهاء، وقد شوهدت كلها على صفحة الوجود، لتشير في النهاية إلى أن فعل التنظيف والتطهير إنما هي تجل من تجليات اسم الله القدوس وتطهير العالم ووفقاً لمقتضى الاسم دائم لا ينقطع، يقول النورسي:

''فلولا المراقبة المستديمة للنظافة والعناية المستمرة بالطهر، لكانت تختنق على سطح الأرض مئات الآلاف من الأحياء خلال سنة، ولولا تلك المراقبة الدقيقة والعناية الفائقة في أرجاء الفضاء الزاخرة بالكواكب والنجوم والتوابع المعرّضة للموت والاندثار، لكانت أنقاضها المتطايرة في الفضاء تحطم رؤوسنا ورؤوس الأحياء الأُخرى، بل رأس الدنيا، ولكانت تمطر علينا كتلا هائلة بحجم الجبال.

ولولا التنظيف الدائب والتطهير الدائم في سطح الأرض، لكانت الأنقاض والأوساخ والأشلاء الناتجة من تعاقب الموت والحياة اللذين يصيبان مئات الأُلوف من أمم الأحياء، تملأ البر والبحر معاً، ولكانت القذارة تصل إلى حد ينفر كل من له شعور أن ينظر إلى وجه الأرض الدميم''.[33]

فالعالم إذن وكما يؤكد النورسي قد حظي بتجلٍ من تجليات اسم الله القدوس، حتى إنه عندما ''تصدر الأوامر الإلهية الخاصة بالتطهير والتنظيف لا تصدر للحيوانات

البحرية الكبيرة المفترسة، والصقور البرية الجارحة وحدها، بل يستمع لها حتى أنواع الديدان والحشرات والنمل التي يقوم كل منها بمهمة موظفي الصحة العامة والراعين لها في هذا العالم، بل تستمع لهذه الأوامر حتى الكريات الحمراء والبيضاء الجارية في الدم، فتقوم بمهمة التنظيف والتنقية في حجيرات البدن، كما يقوم التنفس بتصفية الدم، بل حتى الأجفان الرقيقة تؤمر بالنظافة فتطهر العين باستمرار، بل حتى الذباب يستمع لها فيقوم بتنظيف أجنحته دائماً''.[34]

''ومثلما يستمع كل ما ذكر سابقاً لتلك الأوامر الصادرة بالتطهير والتنظيف، تستمع لها أيضاً الرياح الهوج والسحاب الثقال، فتلك تطهر الأرض من النفايات، والأُخرى ترش روضتها بالماء الطاهر، فتسكن الغبار والتراب، ثم تنسب بسرعة ونظام حاملة أدواتها ليعود الجمال الساطع إلى وجه الأرض والسماء''.[35]

ومثلما تصدر الأوامر التطهير والتنظيف إلى من نسبتهم إلى الله تعالى قهرية وجبرية، تصدر أيضاً إلى من نسبتهم إلى الله اختيارية كالإنس والجن، وذلك لما يتطلبه اسم القدوس من مقتضيات الطهر والنقاء والصفاء، لأَجل هذا عد النورسي الآية الكريمة ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾البَقَرَة:٢٢٢ من الدلائل المشيرة إلى أن الطهر مدعاة إلى المحبة الإلهية ومدار لها.

العدل:

على الرغم من مظاهر التخريب والتعمير والاضطراب، ومظاهر الاصلاح والفساد التي تسود العالم بأكمله، إلاّ أن المتأمل الناظر يشهد موازنة عامة وميزاناً حساساً وعملية وزان دقيق تسيطر على أرجاء العالم وتهيمن عليه هيمنة محيرة للعقول، بحيث تدل بداهة: أن ما يحدث ضمن هذه الموجودات التي لا يحصرها العد من تحولات وما يلج فيها وما يخرج منها لا يمكن أن يكون إلا بعملية وزن وكيل، وميزان من يرى أنحاء الوجود كلها في آن واحد، ومن تجرى الموجودان جميعها أمام نظر مراقبته في كل حين.

وإلا فلو فوض أمر الموازنة العامة إلى الأسباب المادية السائبة والساعية إلى اختلال التوازن، أو أُسند إلى المصادفة العشواء أو القوة العمياء أو الطبيعة المظلمة، لكانت بويضات سمكة واحدة والتي تزيد على الألف تخل بتلك الموازنة، بل بذيرات

زهرة واحدة والتي تزيد على العشرين ألف تخل بها. ناهيك عن تدفق العناصر الجارية كالسيل والانقلابات الهائلة والتحولات الضخمة التي تحدث في الكون.

فكل واحد منها قمين بأن يخل بتلك الموازنة الدقيقة المنصوبة بين الموجودات، وتفسد التوازن الكامل بين أجزاء الكائنات، ولكنت ترى العالم خلال سنة واحدة، بل خلال يوم واحد قد حل فيه الهرج والمرج، وتعرض للاضطراب والفساد. فالبحار تمتلئ بالأنقاض والجثث، والهواء يتسمم بالغازات المضرة الخانقة ويفسد، والأرض تصبح مزبلة وتغدو مستنقعاً آسناً لا تطاق فيه الحياة.

ولكن الأمر على النقيض من هذا كله، فلا تفاوت ولا اختلال في الموجودات كلها، ابتداء من حجيرات الجسم إلى الكريات الحمراء والبيضاء في الدم، ومن تحولات الذرات إلى التناسب والانسجام بين أجهزة الجسم. ومن واردات البحار ومصاريفها إلى موارد المياه الجوفية، ومن تولدات الحيوانات والنباتات ووفياتها إلى تخريبات الخريف وتعميرات الربيع، ومن وظائف العناصر، وحركات النجوم إلى تبدل الموت والحياة، ومن تصادم النور والظلام، إلى تعارض الحرارة والبرودة وما شابهها من أمور.

وعلى هذا فالكل يوزن ويقدر بميزان خارق الحساسية، وأن الجميع يُكتال بمكيال غاية في الدقة، بحيث يعجز عقل الإنسان أن يرى إسرافاً حقيقياً في مكان، وعبثاً في جزء، بل يحس ويشاهد أكمل نظام وأتقنه في كل شيء، ويرى أروع توازن وأبدعه في كل موجود.[36]

إن هذه الموازنة الدقيقة هي عند النورسي التجلي الأعظم لاسم الله تعالى العدل. والمقتضى اللازم من مقتضياته، فتظهر حركة الوجود دائرة على نظام ومساقة بترتيب يدق على الفهم، ومرتبة ترتيباً يضع كل موجود في موقعه اللائق به والمناسب لطبيعته وأحواله على نحو لا يشذ منه شيء، بحيث يمنع منعاً باتاً تصور ما هو نقيض له. وكل تصور عكس ذلك يدحض في العدالة الإلهية دحضاً لا يبقى معه إمكان لوجود أي علم أو إرادة أو قدرة لله تعالى في العالم.

يقول النورسي شارحاً ذلك التجلي البديع:

"تأمل في الأرض، هذه السفينة الجارية السابحة في الفضاء والتي تجول في سنة

واحدة مسافة يقدّر طولها بأربع وعشرين ألف سنة، ومع هذه السرعة المذهلة لا تبعثر المواد المنسقة على سطحها ولا تفرق العناصر المخزونة في باطنها ولا تطلقها إلى الفضاء، فلو زيد شيء قليل في سرعتها أو أنقص منها لكانت تقذف بقاطنيها إلى الفضاء، ولو أخلّت بموازينها لثانية واحدة لتعثرت في سيرها واضطربت، ولربما اصطدمت بغيرها من السيارات ولقامت القيامة.

ثم تأمل في حجيرات الجسم، وأوعية الدم. وفي الكريات السابحة في الدم. وفي ذرات تلك الكريات. تجد من الموازنة الخارقة البديعة ما يثبت إثباتاً قاطعاً أنه لا تحصل هذه الموازنة الرائعة ولا هذه التربية الحكيمة إلا بميزان حساس، وبقانون نافذ، وبنظام صارم للخالق الواحد الأحد العدل الحكيم، الذي بيده ناصية كل شيء، وعنده مفاتيح كل شيء، لا يحجب عنه شيء ولا يعزب، يدير كل شيء بسهولة إدارة شيء واحد".[37]

وكما اقتضت عدالة الله تلك الموازنة البديعة في الكون والحياة، فهي كذلك تقتضى إقامة الحياة الأخرى، وتستلزم الحشر، إذ لا يمكن –كما يؤكد النورسي– أن تنقلب الحقائق المهيمنة على الموجودات والمحيطة بالكون الى أضدادها بعدم مجيء الحشر وبعدم اقامة الآخرة، أي أن تنقلب الرحمةُ إلى ضدها وهو الظلم، وتنقلب الحكمةُ أو الاقتصاد إلى ضدهما وهو العبث والإسراف، وينقلب الطُهر إلى ضده وهو العبث والفساد. حاشَ لله.[38]

وما أراد النورسي سوقه هنا أن معاني الكمال الإلهي قد تنقلب إلى أضدادها، فالرحمة تنقلب إلى ضدها وهو الظلم، وتنقلب الحكمة إلى ضدها وهو البعث، وينقلب الطهر إلى ضده وهو العبث والفساد.[39]

الحفيظ:

إن وجود الموجودات وحده على ماهي عليه، وثباتها في أداء وظائفها، ليس لها من حيث هي موجودة، فاقتضى الإيجاد ما يديم لها البقاء مدة تطول وتقصر حسب ما تؤديه من وظائف، وفي حدود ما هي مخلوقة له. والمعنى الذي يفيد الثبات وإدامة البقاء هو ما يعرف بالحفظ، وعلى الضد منه الإعدام.

وحفظ الموجودات مدة بقائها في الوجود هو أحد تجليات اسمه الحفيظ، حيث نشاهد كما يحدثنا النورسي حفيظية مهيبة بادية للعيان تحكم كل شيء حي، وتهيمن على كل حادث، تحفظ صوره الكثيرة، وتسجل أعمال وظيفته الفطرية.[40]

وكعادة النورسي فالمثل الذي يضربه لتجلى الاسم يعبر عن تلك الحفيظية بدقة متناهية فيقول:

"خذ غرفة بقبضتك من أشتات البذور والأزهار والأشجار، تلك البذيرات المختلطة والحبات المختلفة الأجناس والأنواع، وهي المتشابهة في الأشكال والأجرام، ادفن هذه البذيرات في ظلمات تراب بسيط جامد، ثم اسقها بالماء الذي لا ميزان له، ولا يميز بين الأشياء، ثم عد إليها عند الربيع الذي هو ميدان الحشر السنوي وانظر وتأمل ماذا ترى؟

فأنت ترى أن تلك البذيرات التي هي في منتهى الاختلاط والامتزاج مع غاية التشابه تمتثل تحت أنواع تجلى اسم الحفيظ امتثالاً تاماً بلا خطأ الأوامر الآتية من بارئها الحكيم، فتلائم أعمالها، وتوافق حركاتها مع تلك الأوامر بحيث تستشف منها لمعان كمال الحكمة والعلم والإرادة والقصد والشعور.

ألا ترى أن تلك البذيرات المتماثلة كيف تتمايز ويفترق بعضها عن البعض الآخر، فهذه البذيرة قد صارت شجرة تين تنشر نعم الفاطر الحكيم فوق رؤوسها وتنثرها عليها، وتمدها إلينا بأيدي أغصانها، وهاتان البذيرتان المتشابهتان بها قد صارتا زهرة الشمس وزهرة البنفسج. وأمثالها كثير من الأزهار الجميلة التي تتزين لأجلنا وتواجهنا بوجه طليق مبتسم متوددة إلينا".[41]

ويربط النورسي في ثنايا عرضه بين تلك الحفيظية المشهودة، وبين حقيقة الحشر التي تتضمنها الآية الكريمة ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾التكوير:١٠ فيقول:

"إن ميلاد الزهور والنباتات يعلن الأمثلة والدلائل ما يؤكد على أن الأشياء جميعها ولا سيما الأحياء لم تخلق لتنتهي إلى الفناء، ولا لتهوى إلى العدم، ولا لتمحى إلى غير شيء، بل خلقوا للمعنى قدماً إلى البقاء، وللدخول بتزكية أنفسهم إلى عالم الحياة الخالدة".[42]

والحفيظ الذي يفعل هذا الحفظ المعجز يشير كما يقول النورسي إلى إظهار

التجلي الأكبر للحفيظية يوم الحشر الأعظم والقيامة الكبرى، وذلك لأن كمال الحفظ والعناية في مثل هذه الأمور الزائلة التافهة من دون قصور لهو حجة بالغة على محافظة ومحاسبة ماله أهمية عظيمة وتأثير أبدي، كأفعال خلفاء الله في الأرض، وأعمال حملة الأمانة وأقوالهم، وحسنات عبد الواحد الأحد وسيئاتهم.[43]

تجلى الاسماء الحسنى على الإنسان:

إن النسبة الظاهرة بين اسم الله تعالى ومقتضاه هي التي أخرجت الموجودات إلى الوجود، وحددت لها وظائفها. وخصصت كل موجود بما يشار إليه إما إشارة عينية أو معرفية حسب رتبة الموجود ومنزلته وأهميته، وكما جعلت تلك النسبة كل موجود مستقل بذاته في الخلق، جعلته أيضاً يتفاوت من حيث الخلق والخلقة بتفاوت مقتضى الاسم وأثره.

ويتبين هذا الأمر في أرفع صوره وأسماها في أعلى الخلق مرتبة بين المخلوقات، وهم المكلفون من الملائكة والإنس والجن، ثم هو أوضح ما يكون عند الإنس خاصة، أفضل الخلق قاطبة وأعلاهم منزلة وتكليفاً، ومقارنة بسيطة بين خلق هؤلاء المكلفين وخلق سواهم ممن هم دونهم تكشف لنا عن تلك الحقيقة، وترينا في الوقت نفسه سمو وعلو منزلة الإنس على سائر خلق الله.

فالله تعالى وكما يقول ابن عربي عندما خلق سائر خلقه من غير المكلفين خلقهم بأسماء وصفات الجبروت والكبرياء والعظمة والقهر والعزة، فكان لهذه الأسماء والصفات أثر مشهدي في ذواتهم، فخرجوا أذلاء تحت القهر الإلهي، وتعرف إليهم بهذه الأسماء والصفات، فلم يجد منهم أحد في نفسه طمعاً للكبرياء على أحد من خلق الله، كيف وقد أشهدهم الله أنهم في قبضته وتحت قهره، وشهدوا بأن نواصيهم بيده، فقال تعالى ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾هود:٥٦ والأخذ بالناصية كناية عن القهر، لأن من أخذ بناصية غيره فقد قهره وأذلّه.

أما الملائكة والجن والإنس فقد خلقوا بأسماء وصفات اللطف والحنان والرأفة والعطف والمنة، وعندما خرجوا للوجود لم يروا عظمة ولا عزاً ولا كبرياء، ورأوا أنفسهم مستندة في وجودها إلى رحمة الله وعطفه، ولم يبد الله لهم من جلاله وكبريائه وعظمته حين تجلى لهم ما يشغلهم عن نفوسهم، فأقروا له بالربوبية، لأنهم في قبضته

ولو شهدوا أن نواصيهم بيد الله شهادة عين ما عصوا الله طرفة عين، وكانوا مثل سائر المخلوقات يسبحون الليل والنهار ولا يفترون.[44]

ومن بين هؤلاء خص الله تعالى الإنسان بخلقة جعلت منه صنعته الخارقة، ومعجزته الرائعة، ثم جعله مظهراً لجميع تجليات أسمائه وصفاته، وصيره مثالاً مصغراً ونموذجاً للمخلوقات بأسرها، كيف لا، وهو كما يقول النورسي ''أعظم مقصد من المقاصد الإلهية. المؤهل لإدراك الخطاب الإلهي، والمصطفى المختار من جميع خلقه ليخلف الله تعالى في أرضه، وبالخلافة سيّده على العالم سيادة استمد منها الوجود كل ماله من أهمية. وكل ماله من تناسق وجمال''.[45]

والنورسي يرد سر امتياز الإنسان وتميزه إلى أنه أكمل مظهر من مظاهر تجليات الأسماء الحسنى، وهي التي جعلت منه عموداً سائداً للكائنات كلها، ومركزاً للكون ومحوراً له، ومسخراً من أجله. فعلى سبيل المثال هو وحده الذي يمكنه إدراك جميع الأسماء الإلهية ويتذوقها بما أودع الله فيه من مزايا وحقائق جامعة، فهو يدرك كثيراً من معاني تلك الأسماء لما يتذوق من لذائذ الأرزاق المنهمرة عليه، بينما لا يبلغ الملائكة إلى إدراك معانى الأسماء بتلك الأذواق الرزقية لافتقارهم إلى مثل ما عند الإنسان من حواس.[46]

أما حكمة تجلى أسماء الله الحسنى على الإنسان فترجع كما يقرر النورسي إلى الوظائف المهمة الثلاث التي أُنيطت بالإنسان وهي:

الأُولى: تنظيم جميع أنواع النعم المبثوثة في الكائنات بالإنسان وربطها بأواصر المنافع التي تخص الإنسان، كما تنظّم خرز المسبحة بالخيط، فيكون الإنسان بما يشبه فهرساً لأنواع ما في الخزائن الإلهية ونموذجاً لمحتوياتها.

الثانية: قيام الإنسان بمهمة الداعي إلى الله والدال عليه، بما أودع الله فيه من خصائص جامعة أهّلته ليكون موضع وحيه تعالى، ومقدّراً لبدائع صنائعه ومعجباً لها، لينهض بتقديم آلاء الشكر والثناء الشعوري التام على ما بسط أمامه من أنواع النعم والآلاء العميمة.

الثالثة: قيام الإنسان بحياته بمهمة مرآة عاكسة لشؤون أسماء الله وصفاته، وذلك بثلاثة وجوه:

الأول: شعور الإنسان بقدرة خالقه المطلقة ودرجاتها غير المحدودة، بما هو عليه من عجز مطلق، فيدرك مراتب القدرة المطلقة بما يحمل من درجات العجز، ويدرك كذلك رحمة خالقه الواسعة ودرجاتها بما لديه من فقر، ويفهم أيضاً قوة خالقه العظيمة بما يكمن فيه من ضعف... وهكذا.

وبذلك يكون الإنسان مؤدياً مهمة مرآة قياسية صغيرة لإدراك صفات خالقه الكاملة، وذلك بما يملك من صفات قاصرة ناقصة إذ كما أن الظلام كلما اشتد سطع النور أكثر، فيؤدي هذا الظلام مهمة إراءة المصابيح، فالإنسان أيضاً نراه يؤدى مهمة إراءة كمالات صفات بارئه وأسمائه بما لديه من صفات ناقصة مظلمة.

الثاني: إن ما لدى الإنسان من إرادة جزئية وعلم قليل وقدرة ضئيلة وتملّك في ظاهر الحال وقابلية على إعمار بيته بنفسه يجعله يدرك بهذه الصفات الجزئية خالق الكون العظيم، ويفهم مدى مالكيته الواسعة وعظيم إتقانه، وسعة إرادته، وهيمنة قدرته وإحاطة علمه. فيدرك أن كلا من تلك الصفات إنما هي صفات مطلقة وعظيمة، لا حد لها ولا نهاية، وبهذا يكون الإنسان مؤدياً مهمة مرآة صغيرة لإظهار تلك الصفات وإدراكها.

الثالث: قيام الإنسان بمهمة مرآة عاكسة لكمالات الأسماء الإلهية، من ذلك مثلاً إظهاره بدائع الأسماء الإلهية المتنوعة وتجلياتها المختلفة في ذاته، لأن الإنسان بمثابة فهرس مصغر للكون كله بما يملك من صفات جامعة، فكأنه مثاله المصغر، لذا فتجليات الأسماء الإلهية في الكون نراها تتجلى في الإنسان بمقياس مصغر.

كما يؤدى الإنسان في الوقت نفسه مهمة المرآة العاكسة للأسماء الإلهية، فإنه بوساطة كونه مخلوقاً يبين ويكشف عن اسم الخالق الصانع. ويشير بحياته إلى حياة الحي القيوم. ويظهر بحسن تقويمه وجمال صورته ودقة صنعه اسم الرحمن الرحيم، ويدل بكيفية تربيته ولطف رعايته اسم اللطيف واسم الكريم وهكذا.[47]

ومثلما أن الإنسان وحدة قياس مصغرة لمعرفة أسماء الله تعالى وصفاته. وفهرس لتجلى اسمائه الحسنى، ومرآة ذات شعور بجهات عدة إلى ذات الله، هو أيضاً وحدة قياس لمعرفة حقائق الكون، وفهرس ومقياس وميزان له، والأمثلة التي أوردها النورسي لهذه المقايسة خير شاهد فيقول:

"إن الدليل القاطع على وجود اللوح المحفوظ في الكون يمثل في نموذجه المصغر، وهو القوة الحافظة لدى الإنسان، والدليل القاطع على وجود عالم المثال نلمسه في نموذجه المصغر وهو قوة الخيال لدى الإنسان، والدليل القاطع على وجود الروحانيات في الكون ندركه ضمن نموذجها المصغر وهو لطائف الإنسان وقواه.

وكما تشير تلك إلى ما سلف من حقائق، فإن جوارح الإنسان وأعضاءه وعناصره تشير هي الأخرى إلى حقائق كونية أرضية، فعظامه تنبئ عن أحجار الكون وصخوره، وأشعاره توحى إلى نباتات الأرض وأشجارها، والدم الجاري في جسمه، والسوائل المختلفة المترشحة من عيونه وأنفه تخبر عن عيون الأرض وينابيعها ومياهها المعدنية، وغير ذلك كثير".[48]

تلك هي إذاً مقتضيات الأسماء الحسنى وآثارها على الإنسان التي جعلت منه عالماً صغيراً لجمعه أغلب ما في العالم الكبير، ومن حيث المعنى عالم أكبر، ولب الوجود، ونسخة العالم المصغرة، وأصل العالم ومبدئه، وغيرها من الصفات.

ونتيجة لهذه المعاني الجليلة شهد الوجود كله للإنسان بخلافته ونيابته عن الله تعالى، وصار بها متصرفاً في سائر ما دونه من المخلوقات، وهو المعنى الذي أحدث اضطراباً في الفكر دفع ببعض الخارجين على أصول الإسلام ومقرراته للارتفاع بالإنسان إلى حد الألوهية ومستواها، وهو اضطراب يعزى بالدرجة الأولى إلى سوء فهم لوظيفة النائب والخليفة، ولحريته المطلقة للتصرف في الوجود.

* * *

الهوامش:

[1] جامعة الملك سعود كلية التربية قسم الدراسات الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية.

[2] الكليات، ص٤٥٤ معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب الكفوي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣.

[3] الأربعين في أُصول الدين، فخرالدين بن محمد بن عمر الرازى، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر أباد ١٣٥٣ هـ. ص: ١٥٥، وأيضا حاشية الدسوقى على أم البراهين ص: ١٠٠، محمد الدسوقى، دار الفكر، بيروت، د. ت.

[4] النورسي، بديع الزمان سعيد، اللمعات ص: ٥٣٧، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٣.

[5] المصدر السابق ص: ٥٤٠ و ٥٤٣.

[6] المصدر السابق ص: ٥٤٧.

[7] المصدر السابق ص: ٥٤٤.

[8] المصدر السابق ص: ٥٥١.

[9] المصدر السابق ص: ٥٤٠-٥٤١.
[10] المصدر السابق ص: ٥٤٢.
[11] المصدر السابق ص: ٥٤٤.
[12] المصدر السابق ص: ٥٤٥.
[13] المصدر السابق ص: ٥٤٥.
[14] النورسي، بديع الزمان سعيد، الكلمات ص:٣٤٨، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٢.
[15] اللمعات ص: ٥٥٣.
[16] الفروق في اللغة – أبو هلال العسكري ص: ٨٢.
[17] المصدر السابق ص: ٨٢.
[18] الكلمات – النورسي ص: ٥٩٦-٥٩٧.
[19] المصدر السابق ص: ٥٩٧.
[20] اللمعات – النورسي ص: ٥٨٨و ٥٦٠.
[21] المصدر السابق ص: ٥٦١.
[22] المصدر السابق ص: ٥٦٢ – ٥٦٣.
[23] المصدر السابق ص: ٥٦٤.
[24] المصدر السابق ص: ٥٧٥.
[25] المصدر السابق ص: ٥٧٩ – ٥٨٠.
[26] المصدر السابق ص: ٥٨٠.
[27] المصدر السابق ص: ٥٨٣.
[28] الفروق في اللغة – أبو هلال العسكري ص: ٩٦.
[29] اللمعات ص: ٢١-٢٢.
[30] المصدر السابق ص: ٢٢.
[31] المصدر السابق ص:٢٣.
[32] المصدر السابق ص: ٢٤.
[33] اللمعات ص: ٥١٨.
[34] المصدر السابق ص: ٥١٨.
[35] المصدر السابق ص: ٥٢٢.
[36] اللمعات ص: ٥٢٤.
[37] المصدر السابق ص: ٥٢- ٥٢٥.
[38] المصدر السابق ص: ٥٢٦- ٥٢٧.
[39] نفسه.
[40] النورسي، بديع الزمان سعيد، الشعاعات ص٢٦٩، ترجمة إحسان قاسم الصالحي. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٣.
[41] اللمعات ص: ٢٠٨ -٢٠٩.
[42] الشعاعات ص: ٢٦٩.
[43] اللمعات ص: ٢٠٩.
[44] الفتوحات المكية –ج: (٤)- ابن عربي ص: ٢٠٢-٢٠٣
[45] اللمعات ص: ٥٩٣-٥٩٤.
[46] المصدر السابق ص: ٥٩٦.
[47] المصدر السابق ص: ٥٩٣-٥٩٥.
[48] المصدر السابق ص: ٥٩٦.

نحو رؤية جديدة للدلالة النفسية لأسلوب التكرار في القرآن الكريم: بديع الزمان سعيد النورسيّ أنموذجا

الأستاذ الدكتور: عزيز محمد عدمان[1]

مقدمة:

لعل من مخايل الألمعية، وعلامات النبوغ المعرفيّ أن تولد العبقرية من رحم المعاناة؛ معلنة عن بروز شخصية تركية كردية حازت عناصر الخلود الأبديّ في مجال الإصلاح الدينيّ والأدبيّ والبلاغيّ، والحضاريّ؛ وقد اجتمعت مكونات التألق والوهج العلميّ، والروحيّ في شخص العلاّمة بديع الزمان سعيد النورسيّ –رحمه الله–.

والواقع أنه ليس من قبيل المبالغة القول: إن بديع الزمان النورسيّ يمثل علامة طريق بارزة لا يمكن تجاهلها؛ ولعل من مسوغات اختياره أنموذجاً لهذه المقاربة العلمية ما يأتي بيانه:

١. تُشكّل رسائل النور في مجملها معيناً خصباً للدراسة الأدبية والنقدية، والبلاغية والإعجازية؛ والمستقرئ لمباحثها وموضوعاتها يلفي أنها تناولت جملة من الأفكار والآراء الرصينة التي تحرّك الرغبة في البحث وتوقد جمرة التنقير عن كثير من المسائل التي تبدو لناظر متسرع أنها من مألوف القضايا، ومعهود المشكلات.

٢. تنطلق رؤية بديع الزمان لكثير من قضايا البلاغة، والإعجاز من نظرة كونية شاملة تتجاوز الإطار النمطيّ المستهلك إلى الغوص في أعماق النفس الإنسانية في تناقضاتها المتشعّبة.

٣. إنّ منهج التمثيل وآلياته عند بديع الزمان يوحي بخبرة عملية، ودربة ومران غير مسبوق في مقاربة قضايا البلاغة؛ ويشهد لهذه الخبرة التطبيقية كثرة شواهد رسائل

النور القرآنية والنبوية، والاطّلاع الواسع والتبحر في التراث البلاغيّ والنقديّ عند القدماء؛ وأغلب الظن أن تمثل النورسيّ لأفكار القدماء وهضمها، واستيعابها مكّنه من توسيع مسالك النظر في البلاغة القرآنية، وتجديد زوايا التأمل وإلطاف التدبر، وإكداد النظر في موضوعاتها.

٤. إن حسّ بديع الزمان النقديّ والبلاغيّ المرهف هو الذي قادَه إلى الانطلاق في فضاءات معرفية محوجة لكثير من الصبر والأناة والرفق؛ وهي مساحات علمية مثقلة بهاجس السؤال، وألم البحث وحرقته.

إشكالية الدراسة:

من مقتضيات المنهجية العلمية الرشيدة أن نشير إلى الروح النقدية الحضارية السامية التي سيطرت على رسائل النور التي تبلغ مئة وثلاثين رسالة في موضوعات فكرية، وأدبية وسياسية وبلاغية ونقدية وأسلوبية وغيرها من المعارف الكونية. وإحقاقاً للحق، وحتى لا نكون قساة على العلاّمة النورسيّ لا بد أن نسجلّ هنا أن الاهتداء إلى إشكالية الدلالة النفسية لأسلوب التكرار في القرآن الكريم من منظور النورسيّ تطلّب إنجاز قراءتين:

أولاهما: قراءة استكشافية في متن رسائل النور؛ وهي قراءة شاقة؛ ولعل من تجليات هذه الصعوبة تعدد مشارب النورسيّ الفكرية والشخصية؛ ومنهجه في عرض المادة العلمية؛ وهو منهج له خصوصية العالم الأديب الذي لا يقنع بثقافة مستهلكة جاهزة؛ بل يغوص في محيطات البلاغة والنقد والإعجاز؛ مسترشداً بروح الغارق في عشق المعرفة الإنسانية بفروعها المختلفة.

ثانيتهما: قراءة فهارس رسائل النور كاملة، ورصد حديث النورسيّ عن أسلوب التكرار في مواضع متباعدة من رسائل النور أحياناً، ومتداخلة أحياناً أخرى؛ بل إنّ قراءة ناقدة مبصرة تؤكد وعي النورسيّ المنهجيّ بضرورة التوسل بأسلوب تكرار الأفكار ذاتها بعبارة متقاربة، ومتطابقة أحياناً مع إشارته إلى هذا المسلك في كل القضايا التي تناولها بالتحليل والتمثيل.

ولا يستطيع باحث أريب أن يتجاهل الاستبصارات البلاغية، والنقدية والجمالية التي توصل إليها بديع الزمان النورسيّ بفكره الثاقب، وسرعة بديهته، وحاسته النقدية

الوهاّجة؛ فكان لهذا المسلك عميق الأثر في صعوبة فهم أفكار النورسيّ، وتحليلها وفق آليات الاستقراء والاستنباط والتعليل؛ وبهذا الاعتبار حاولنا في هذه المعالجة العلمية على قدر طاقتنا، ومبلغ سعينا، وجهدنا أن نستنطق رسائل النور على جلالة قدرها، وعلو مقام مصنِّفها في رحاب أسئلة نراها المفتاح لعرض الموضوع على نحو مقنع.

ومن المقرر عند ذوي الصناعة والاختصاص في شؤون البلاغة، والإعجاز أن أسلوب التكرار من الأساليب التي نالت حظاً وافراً من الجدل، والمناقشة في بيئات المفسّرين والبلاغيين واللغويين والمفكرين من العرب والمستشرقين ومن لفّ لفهم، وجرى مجراهم. وقد حرّك أسلوب التكرار رغبة القدماء، والمحدثين على السواء في الوقوف على ماهية أسلوب التكرار وحقيقته وآليات اشتغاله؛ ذلك أن مفهوم بعض القدماء والمحدثين للتكرار يستند إلى تأسيس فيه إجمال يحتاج إلى تفصيل وإضاءة وتحليل. فهل اقتفى بديع الزمان سعيد النورسيّ أثر القدماء والمحدثين في تناول أسلوب التكرار؛ ومن ثمة كان امتداداً لأفكارهم وآرائهم؟ أم سلك مسلكاً مغايراً يشهد بفضل روية وذكاء عقل وطول تدبر؟ وما مفهوم التكرار عند بديع الزمان سعيد النورسيّ؟ وما علاقته بإثبات الحقائق الإيمانية؟ وهل التكرار ظاهرة جمالية أم ظاهرة نفسية؟ وما منهج النورسيّ في معالجة التكرار؟ وما الآليات العملية التي استند إليها في تطبيقاته على القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة؟

لعل إبراز خبيات المعاني، ورفع الحجب التي تواري اليقين عن حقائق أسلوب التكرار ينطلق من الإقرار بصعوبة المسلك، ودقة المأخذ إلا أنه عذب المذاق محمود العاقبة؛ ذلك أن رسائل النور ليست متناً واحداً يعالج قضية من القضايا؛ بل هو مجموعة متون في معارف مختلفة، وعلوم متباينة صاغها بديع الزمان النورسيّ في ظروف سياسية ونفسية خاصة لا تعين على كتابة علمية رصينة؛ بل إن الملابسات التي صاحبت تأليف رسائل النور تخلّ بمقتضيات الكتابة العلمية الرشيدة؛ ولكن النورسيّ أدرك بحسه المعرفيّ والإيمانيّ أن المراتب العالية لا تنال إلا بذهن صافٍ وعقل ناقدِ؛ فاستمد آراءه من بحر القرآن الزاخر؛ منطلقا في تسطير الرسائل، التي كانت خلاصة شافية فاضلة، من هموم الأمة الإسلامية.

ولقد سلك النورسيّ –رحمه الله– طريقاً وعراً؛ وهو في كل ما كتب بقي مصرّاً على

التحدي العلميّ والروحيّ للخوض في معضلات معرفية عويصة؛ مسترشداً بأدوات موجبة للطف نظر؛ ومن ثم أيقن أن الشحنة الروحية، والعلمية هي وقود الاستمرار في الدفاع عن عقيدة الأمة.

التكرار عند بديع الزمان سعيد النورسيّ –المصطلح والأنماط–:

إن موضع الاستحسان، ومكان الاستظراف في رسائل النور أن مؤلفها النورسيّ أحسّ بحلاوة التكرار وجمالياته؛ فاتّخذه أداة لأسلوبه قبل أن يكشف عن غُرره ودرره في القرآن الكريم؛ معتبراً التكرار من خصائص أسلوبه، وليس عيباً في الكلام أو حيلة تعبيرية يتوارى من وراء حُجبها كلما ضاقت به وسيلة التعبير، وانهالت عليه المعارف لدرجة لا يملك طاقة لردّها أو التحايل عليها كما هو دأب كثير من المفكرين والأدباء الذين تعوزهم ملَكة البيان، وتتمرد الألفاظ على أسلوبهم فلا تسلم قيادها للسياق في تحديد معانيها؛ ومن ثم قدّم مسوّغاً لمسلكه في تكرار كثير من العبارات، والأفكار في مواضع متفرقة من رسائل النور؛ مقتفياً أسلوب القرآن في التكرار. قال العلاّمة بديع الزمان سعيد النورسيّ –رحمه الله–: ''لقد طالعتُ الرسائل المرسلة إلينا، فرأيتُ أن عدداً من الحقائق قد تكررت لمناسبة المقام. إذ تكررت تلك الرسائل دون إرادتي بل خلاف رغبتي واختياري. فتضايقت من النسيان الذي اعترى ذاكرتي، وفجأة ورد إلى القلب هذا التنبيه: انظر إلى ختام 'الكلمة التاسعة عشرة'. فنظرتُ إليه وهو يتناول بيان الحِكم الجميلة للتكرارات الواردة في القرآن الكريم، فهذه الحِكم تظهر أيضا في رسائل النور التي هي تفسير حقيقيّ للقرآن الكريم. فرأيت أن تلك التكرارات منسجمة تماماً مع تلك الحِكم، بل هي ضرورية أيضا''.[2]

لا مرية في أن القراءة الفاحصة لكليات رسائل النور تقرّر أن بديع الزمان سلك مسلك التكرار في عرض أفكاره، وحقائق رسائله التي عدّها تفسيراً للقرآن الكريم؛ وهي حقيقة يعاينها من عايش الرسائل معايشة وجدانية صادقة، وخالطها مخالطة العارف بنفاسة الفلسفة الكونية التي انطلق منها النورسيّ في إثبات الحقائق الإيمانية.

ويجد الناظر في كليات رسائل النور أن مؤلفها يجنح إلى التكرار في كثير من المواضع؛ ولهذا المنهج مسوغات نفسية وموضوعية قادته إلى اصطناع هذا المذهب في الكتابة؛ فبعض رسائله كُتبت في ظروف الحرب العالمية الأولى وهو في جبهات

القتال؛ وبعضها الآخر أُنجز في حالات من العرفان الصوفيّ؛ فضلاً عن أن حجم رسائل النور بلغ مئة وثلاثين رسالة، فكيف لكاتب مهما علا كعبه وسما نجمه أن يتقيد بأصول الكتابة الصارمة في ظروف لا تساعد على ضبط مسلك التحرير و التقييد، وتتحكم في مسارات التأليف؟

ولعل عين الإنصاف ترى أن مذهب النورسيّ في الكتابة جاء استجابة لملابسات المرحلة التاريخية التي عاشها وشارك فيها بآمالها وآلامها؛ شحذت همته، وصقلت أسلوبه؛ ثم إن معاودة النظر، ومراجعة الرسائل كانت بدافع ملاحظات طلابه ومريديه الذين أحسّوا إحساساً صادقاً بأن الرسائل لم تبلغ الغاية من الإتقان والإبداع؛ وهو شعور كل قارئ خَفِيت عليه الحكمة من التكرار كما تخفى أسرار التكرار، ولطائفه في أسلوب القرآن الكريم.

وبعد مراجعة النورسيّ لبعض الرسائل أيقن أن تكرار بعض الحقائق لم يرد سهواً أو اجتراراً أو استهلاكاً لما تقدم تقريره من الأفكار والحقائق؛ وإنما هي على شاكلة فوائد التكرار القرآنيّ؛ ولهذا كلّه، فليس ثمة غرابة في اعتبار تحرير رسائل النور وفق طريقة منهجية محكمة من خصائص أسلوب النورسيّ الذي دافع عنه من منطلق إيمانه بأن تكرار بعض العبارات في مواطن مختلفة يحقّق مصلحة بيانية؛ وهي من اللطائف الروحانية التي لا تبصرها إلا العقول النافذة؛ ولا تنكشف حُجبها إلا لذوي الأذهان الصافية؛ ولم يكتفِ النورسيّ بإقناع جمهوره بمسلك التكرار الذي تذرع به في تحرير كليات رسائل النور؛ وإنما قدّم مسوغات لهذا المذهب؛ مسترشداً بحقائق نفسية ناصعة. وفي هذا الصدد قال: ''إن رسائل النور تفسير للقرآن الكريم، تفسير نابع من القرآن مدعّم بالبراهين، لذا فإن فيها تكرارات ضرورية مُساقة لحكمة ومصلحة كالتكرارات القرآنية اللطيفة، الحكيمة، الضرورية، والتي لا تسئم القارئ أبداً. وكذا لأن رسائل النور هي دلائل كلمة التوحيد التي تُكرر باستمرار على الألسنة في ذوق وشوق دون سأم، فإن تكراراتها الضرورية لا تعدّ نقصاً فيها، ولا تضجر القارئ ولا ينبغي لها أن تُضجر''.[3]

من المقرر أن الفِطام على المعهود شديد، والنفوس عن الغريب نافرة، وهي حقيقة نفسية وروحية لها ما يعضدها في عالم الممارسة العرفانية والوجدانية؛ فالتكرار الوارد في رسائل النور كتكرار كلمة التوحيد التي كلما ترددت على ألسنة الناس ازداد

الاشتياق إليها والحنين نحوها؛ لأنها حازت شرف الحكمة، والفضيلة؛ والسرّ الإلهيّ المتجلي في فضاء الكونين المسطور، والمنظور.

فما هو مفهوم التكرار، وأنماطه عند بديع الزمان سعيد النورسيّ؟

من العسير أن يظفر باحث متأمل لبيب بمفهوم دقيق للتكرار عند النورسيّ؛ ذلك أنّ تحديد مفهوم التكرار ورد في سياق استجلاء حقيقته النفسية والروحية؛ ونظراً لضخامة رسائل النور وسَعتها يمكن استكشاف مفهوم التكرار، وأنماطه المختلفة وفق النقاط الآتية:

١. خلوّ القرآن الكريم من التكرار المجانيّ:

من المركوز في الطبع البشريّ أن الأمر الذي يتكرر على المأمور يحمل في طياته تنبيهاً على تقصير بيّن في القيام بالواجبات؛ وهذا التنبيه في صيغة التكرار يخدش أنفة الإنسان وينتهك حرمته وقداسته؛ وقد يكون المأمور في قمة الطاعة والانضباط؛ بيد أن الآمر يعتريه ما يعتري صاحب الشأن من الريبة في وفاء المأمور؛ ولعل علاقة التكرار التي تربط الآمر بالمأمور هي صورة تشبيهية تمثيلية تناولها النورسيّ بأسلوب فيه كثير من الإبداع التمثيليّ الذي يجسّد ماهية تباين التكرار القرآنيّ عن غيره من التكرار البشريّ. قال بديع الزمان سعيد النورسيّ: ''ولقد جال في ذهني يوماً سؤالٌ حول هذا التكرار في التوجيه والإرشاد القرآنيّ وهو: ألا تكون هذه التنبيهات المستمرة مدعاة لجرح شعور المؤمنين في ثباتهم وأصالتهم وإظهارهم في موقف لا يليق بكرامة الإنسان؟ لأنّ تكرار الأمر الواحد على الموظف من آمره يجعله في موقف يظنّ أنّه متّهم في إخلاصه وولائه! بينما القرآن الكريم يكرّر أوامره بإصرار على المؤمنين المخلصين''.[4]

فالتكرار القرآنيّ هو حافظ كرامة الإنسان من عبودية القهر والتسلطّ والضيم؛ وهو علامة على تقدير الأوفياء والمخلصين، وشتان بين تكرار تحرّكه رغبة التحكم والحجر، وتكرير مصدره إشعاع ربانيّ يحترم آدمية الإنسان وحرمته؛ بل إن التكرار الذي يوجَّه لمخلِص هو شهادة له بالوفاء والاستقامة.

وعلى هذا الهدي نوضح أن التكرار المجانيّ لا وجود له في الخطاب القرآنيّ كما يزعم بعض الباحثين من العرب والمستشرقين؛ فالفائدة حاصلة، وإنتاج المعنى تكفله

العبارة المتجدّدة؛ وهذا ما أومأ إليه النورسيّ بقوله: ''فكل ما كُرر في القرآن الكريم إذاً من آية أو قصة إنما تشتمل على معنى جديد وعبرة جديدة''.[5]

فالمعنى الجديد ملازم لعبرة جديدة غير مسبوقة في سياق التكرار؛ وأكبر الظن أن منشأ هذه الجِدّة هو التكرار البليغ كما يسميه النورسيّ؛ ولعل في البلاغة ما يكفي للتدليل على ثراء الخطاب القرآنيّ وغنى سياقه التعبيريّ. فما الذي يجعل التكرار لا يُفقِدُ النَّصَ القرآنيَّ جماله ورونقه وبهاءه؟ وكيف إذن نقضي في أمر هذه الفائدة؟

إن دراسة واعية للنسيج الداخليّ للخطاب القرآنيّ تكشف عن حقيقة المكوّنات الداخلة في بناء أسلوب التكرار التي تُمدّه بعناصر البقاء والخلود الأزليّ؛ وقد أشار أحد الدارسين المعاصرين إلى طبيعة التركيب اللغويّ لأسلوب التكرار التي توجّهها عناصر خفية هي من صميم الإعجاز. فقال: ''ما وراء التكرار في القرآن: وهذا الوجه يمكن أن نسميه تجاوزاً ''بالتركيب الكيميائيّ للقرآن''. وذلك أن أسلوب القرآن من هذه الوجهة مركب تركيباً دقيقاً بالغة الدقة، بحيث تقرب منه التركيبات المعملية التي توزن على مقادير بالغة الدقة، ولا تؤتى النتيجة المأمولة منها، إذا اختلت هذه التراكيب في جزء من مائة منها''.[6]

والتحقيق أن وصف التكرار في القرآن بالتركيب الكيميائيّ مما هو مألوف عند البلاغيين والنقاد القدامى كالجرجانيّ، وابن رشيق وحازم القرطاجنيّ؛ والمراد بهذا الوصف أن المقادير المشكِّلة للخطاب القرآنيّ متناهية الدقة في ألفاظها ومعانيها؛ وهذا يزكي موقع التكرار في هذه الصياغة التعبيرية الدقيقة؛ ذلك أنّ التكرار من منطلق مفهوم التركيب الكيميائيّ لا يعني الإخلال بالمقادير أو الموازين التي توزن بها الدوال والمدلولات؛ وإنما هو من باب التنويع في القوالب التي تُسكب فيها هذه المواد. وقد أشار بديع الزمان النورسيّ إلى هذه التركيبة اللغوية البديعة؛ منكراً أن يكون التكرار من ضرب التفاوت التعبيريّ الذي لا ينسجم مع دقة النسج القرآنيّ، وإحكام مبانيه ومعانيه. قال النورسيّ: ''اعلم! أن لكل آية ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً، ولكل قصة وجوهاً وأحكاماً وفوائد ومقاصد، فتُذكر في موضعٍ لوجهٍ، وفي آخر لأخرى، وفي سورة لمقصدٍ وفي أخرى لآخر وهكذا. فعلى هذا لا تكرار إلا في الصورة''.[7]

إن الممعن النظر والمستقصي للتأمل يجد أن الصورة الكلية للخطاب القرآنيّ

تتشكّل وفق مستويين من الخطاب، أو بنيتين تعبيريتين: إحداهما سطحية ''الظهر، الحدّ''، وثانيتهما: عميقة ''البطن، المطلع''.

فالمقاصد والغايات، والأسرار متعددة والقصة واحدة؛ آية ذلك أن الإطار الخارجيّ للقصة يبقى على صورته اللفظية، وتتغير مقاصده بتغير السياق الذي ترِدُ فيه.

٢. اللذة النفسية والجمالية حاصلة من كل تكرار قرآنيّ:

لعل من أجمل إبداعات النورسيّ –رحمه الله– حديثه عن اللذة المترتبة عن أسلوب التكرار في القرآن الكريم؛ وقد ربطَ بين لذة التجدّد في التكرار باللذة البيولوجية؛ وهو ربط في منتهى الإقناع، والإبداع.

إن رصد الفكر المتحكِّم في كتابات بديع الزمان سعيد النورسيّ يبين بوضوح أنه ألمّ إلماما واسعاً بالتراث البلاغيّ القديم؛ بل بلغ في فهمه درجة التمثل والابتكار؛ ويشهد لهذا الاستيعاب المعرفيّ أنه وسّع مجال النظر في المصادر المعتبرة للبلاغة العربية والقرآنية؛ فيجد المتأمل في الحكمة من ورود التكرار في القرآن الكريم كما ذكرها النورسيّ أنه لا يبعد كثيراً عما ورد في مصنفات ذوي الاختصاص من علماء البلاغة؛ إلا أنه انفرد بميزتين محوريتين:

• إحداهما أنه تناولَ أسرار التكرار في القرآن من منطلق مشروع إصلاحيّ حضاريّ ضخم سعى من خلاله إلى إثبات الحقائق الإيمانية، وتثبيتها وفق أسلوب ممتع جمع فيه بين جزالة اللفظ، وروحانية المعنى.

عالجَ موضوع التكرار في رحاب التمثيل؛ فقرنَ الحكمة من التكرار بما ينتج عن اللذة البيولوجية من الأكل والشراب؛ وهي التفاتة لطيفة تعكس وعياً نفسياً، وروحياً عالياً.

ومن النماذج الحية الناطقة بهذا الوعي النفسيّ قوله: ''اعلم! أنه كما أن الحاجات الجسمانية مختلفةٌ في الأوقات؛ كذلك الحاجات المعنوية الإنسانية أيضا مختلفة الأوقات. فإلى قسمٍ في كل آن كـ ''هو الله'' للروح.

– كحاجة الجسم إلى الهواء– وإلى قسم في كل ساعة كـ ''بسم الله'' وهكذا فقس''.[8]

مقتضى كلام النورسيّ أن الحاجة البيولوجية للإنسان مختلفة باختلاف الأوقات الداعية إليها؛ وتوزيع هذه الحاجات موقوف على الدافع الروحيّ؛ فتكرار بعض الآيات القرآنية كتكرار الحاجات البيولوجية التي لا غنى للمرء عنها؛ وقد ربط النورسيّ تجدد هذه الحاجات بالتوحيد الذي هو جوهر الدين.

وقد عمّق النورسيّ من مفهوم تجدّد اللذة البيولوجية في علاقتها بالتكرار فقال: ''فتكرار الآيات والكلمات إذن للدلالة على تكرّر الاحتياج، وللإشارة إلى شدة الاحتياج إليها، ولتنبيه عرق الاحتياج وإيقاظه، وللتشويق على الاحتياج، ولتحريك الاحتياج إلى تلك الأغذية المعنوية''.[9]

فمفهوم الاحتياج هو دلالة على أن التكرار لا يرد ما لم تطلبه الحاجة؛ ومن المقرر في الطبع الإنسانيّ أن الشيء إذا تكررَ طلبه بعد مشقة وعناء ازداد الاشتياق والتعلق النفسيّ به؛ ويُفهم من كلام النورسيّ أن التكرار من دون حاجة لا وجود له في القرآن؛ لأن ذلك معيب بمنطق الشرع، والعقل، والطبع.

وليس بخاف ما قد توحي به كلمة **''الاحتياج''** من دلالات اشتياق السياق القرآنيّ ذ، وحنينه وشغفه بالتكرار الذي يمده بغذاء جماليّ وفنيّ؛ ويوقظ فيه الشعور الروحيّ لمعانقة فضاء الحقيقة النورانية.

لا ريب أن مدلول الاحتياج فيه إجمال يحتاج إلى إشباع؛ وقد فصّل النورسيّ مفهوم الاحتياج في علاقته باللذة البيولوجية فقال: ''إن قلت: إن في القرآن الموجز المعجز أشياء مكررة تكراراً كثيراً في الظاهر كالبسملة و ﴿فَبِأَيّ آلاَءِ..﴾ إلخ... و ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ إلخ... وقصة موسى وأمثالها، مع أن التكرار يُملّ وينافي البلاغة. قيل لك: ''ما كلُّ ما يتلألأُ يُحرقُ'' فإن التكرار قد يُملُّ، لا مطلقاً. بل قد يُستحسن وقد يُسأم. فكما أن في غذاء الإنسان ما هو قوتٌ كلما تكرر حلا وكان آنس، وما هو تفكّه إن تكرر مُلَّ وإن تجدد استُلِذَّ، كذلك في الكلام ما هو حقيقة وقوت وقوّة للأفكار وغذاء للأرواح كلما استعيد استحسن واستؤنس بمألوفه كضياء الشمس. وفيه ما هو من قبيل الزينة والتفكّه، لذتُه في تجدّد صورته وتلوّن لباسه.''[10]

لقد أصاب النورسيّ –رحمه الله– الحق، وكشف عن حقيقة التكرار على هدى مساءلة عقلية ونفسية وبيولوجية قدّم من خلالها مسوغات مقنعة للحكمة من التكرار

في القرآن الكريم؛ وهذا بيان وتفصيل:

أجاب النورسيّ عن أسرار التكرار في عبارات حاسمة واضحة مُفادها: أن النظرة العجلى للتكرار الوارد في بعض الآيات القرآنية، والقصص القرآنيّ قد تبدو لقاصر النظر أنها من التكرار العليل الذي يخدش وجه البلاغة العربية ويُذهب ماءها ورواءها.

وقد تحدّث النورسيّ عن نوع من الغذاء الحسيّ الذي لا يملّ؛ لأنه قوت ضروريّ لاستمرار الجنس البشريّ؛ وإن تكرر فلا يملّ ولا يسأم منه لعلاقته البيولوجية المستحكّمة في الإنسان؛ بيد أن من الغذاء ما هو من باب التفكّه الذي قد يملُّ منه؛ لأنه من كماليات الغذاء التي يستغنى عنها؛ فهذا الضرب من الغذاء وإن تكرر مُلَّ؛ وإن تجدّد ازداد الاشتياق إليه واللذة إلى نيله؛ لتجدده. وفي مقابل هذه اللذة البيولوجية المتجدّدة هناك لذة روحية من التكرار الذي لا يفضي إلى السآمة بقدر ما يحمل النفس على الاشتياق والحنين والشغف؛ ولعل مصدر هذا الحنين هو تجدّد الصورة، وتلون الشّكل. ولعل النورسيّ قد استلهمَ هذه الصورة التشبيهية للتكرار بضياء الشمس من قول أبي تمام:

''وطولُ مقام المرء في الحيّ مخلقٌ لديباجتيه فاغترب تتجدّد

فإني رأيتُ الشمسَ زِيدتْ محبّةً إلى الناسِ أن ليست عليهم بسَرمدِ.''[11]

فالتكرار في الأسلوب القرآنيّ كضياء الشمس ضروريّة لوجود الإنسان، والكون؛ ومع مركزية الشمس وحاجة البشر إليها؛ إلا أنها قد تختفي لغرض فلكيّ، وتظهر للغرض نفسه؛ وفي اختفائها ما يحرّك الرغبة في الاشتياق إلى رؤيتها، والحنين إلى الاستمتاع بجمالها، ونورها.

وبين التجلي والخفاء تزداد لواعج الشّوق، وتلتهب نيرانه لرؤية المحجوب المطلوب الذي توارى عن الأنظار ليزيد من حرارة الانتظار، ولهيب الترقب، والتوقع؛ ولعل في هذا التمثيل البيانيّ ما يفسّر تكرار القصص القرآنيّ، وبعض الآيات القرآنية التي تزيد من ألم المتلقي، وحرقته في معرفة طبيعة المكرَر، وأسراره.

وقد اشترط النورسيّ –رحمه الله– لمعرفة لطائف التكرار الذوق المرهف، والإحساس الصادق الذي يرى بنور الله تعالى؛ وفي هذا السياق قال: ''ومن كان له

عين في بصيرته، يرى في التنزيل عيناً ترى كل الكون، كصحيفة مبصرة واضحة... وقد جاء مكرراً ليقرّر.. ومردّداً ليحقّق قصصاً وأحكاماً. مع أنه لا يُملُّ تكراره، ولا يُزيلُ عوْدُه ذوقَهُ ولا يُسئِمُ ترادهُ. كلما كرّر حقّق وقرّر، بل ما كررته تحلو وتفوح أنفاس الرحمن منه ''إنّ المسك ما كررته يتضوّع''. وكلما استعدتَه اسْتلَذْتَه؛ إنْ كان لك ذوق سليم بقلب غير سقيم. والسرّ فيه: إنه قُوتٌ وغذاءٌ للقلوب، وقوة وشفاء للأرواح. والقُوتُ لا يُملُّ تكرارُه.. فمألوفه آنس وألذ، خلاف التفكّه الذي لذتُه في تجدده، وسآمتهُ في تكرره''.[12]

يشير بديع الزمان النورسيّ –رحمه الله– في هذا النص إلى بعض فوائد التكرار التي ذكرها العلماء؛ كالتقرير، والتحقيق؛ وهو كعادته يجنح إلى التمثيل ليدلّل على أن التكرار القرآنيَّ هو تكرار منتج للمعاني؛ كالمسك الذي إذا حُرّك ازداد طيباً، وكلما شُمّ انتشر أريجه وعطره؛ وعند كل استخدام له يزيد توسعاً. ويعلّل النورسيّ لجماليات التكرار الذي لا يفقد قوته التعبيرية، والفنية بأنه طاقة روحية، وغذاء نفسيّ ووجدانيّ، وعلاج للأرواح وهو قوت شبيه بالغذاء الذي لا يملُّ لوظيفته البيولوجية، وهو غذاء ضروريّ، وليس من التحسينات كالفاكهة التي تملُّ إذا تكررت؛ لأنها من الكماليات ولكن لذتها في تجددها؛ فكلما تغيرت الفاكهة حصلت اللذة.

ومن أمثلة هذه اللذة البيولوجية ما ذكره النورسيّ في سياق جامع لضروريات بقاء الكائن الحيّ؛ وقد قابلَ بين لذات حسية وروحية في علاقتها بتكرر الحاجات إليها فقال: ''وكما أن الإنسان في حياته المادية يحتاج في كل آنٍ إلى الهواء، وفي كل وقت إلى الماء، وفي كل يوم إلى الغذاء، وفي كل أسبوع إلى الضياء، في الأكثر... فتتكرر هذه الأمور لتكرّر الحاجات، فلا تكون تكراراً... كذلك أن الإنسان بجهة حياته الروحانية أيضاً؛ يحتاج إلى أنواع ما في القرآن؛ فإلى بعضٍ في كل دقيقة بل في آن سيال: ''هو... الله'' فيه يتنفس الروحُ.. وإلى بعضٍ في كل ساعة كـ: ''بسم الله''... وإلى بعض في كل وقت... وإلى بعض في كل زمان متدرجاً بدرجات الاحتياج فيكرر القرآن على ما تقتضيه حياة القلب تكراره.''[13]

في هذا التعليق المفصّل يبدو أثر تعلق النورسيّ بفكرة إثبات الحقائق الإيمانية من منظور أسلوب التكرار في القرآن الذي عدّه محرّكاً للرغبة في تكرار الحاجات البيولوجية الضرورية التي تتكرر وفق منطق الحاجة المتدرجة؛ وهذا يعني أن الرغبة

تتوزع بحسب الاحتياج إلى التكرار، وليست رغبة متواصلة متتابعة في كل وقت؛ وهذا شأن الحاجات الروحية المتجددة التي تطلبها النفس عند الاقتضاء. فما العلاقة بين الحاجات البيولوجية، والحاجات الروحية؟ وهل قضاء هذه الحاجات متاح في كل وقت؟

لا جدال في أن مقابلة النورسيّ لهذين النوعين من الحاجات مقابلة فيها كثير من التأمل الجاد، والنظر الحصيف؛ آية ذلك أنه اختار من الحاجات ما يحافظ على بقاء الكائن الحيّ على قيد الحياة؛ والاحتياج هو الذي يولّد الرغبة في تكرارها؛ ومن ثم فإن احتياج السياق القرآنيّ للتكرار مصدره تجدّد الحاجة التعبيرية والجمالية؛ وبعبارة أكثر أمناً: فإن الخطاب القرآنيّ لا يكرر آية أو قصة إلا إذا اقتضت الضرورة البيانية ذلك، وهذا ينفي اعتباطية التكرار، وعبثية الترداد.

ومن المثير للاهتمام أنّ النورسيَّ قيّد التكرار المنتج للمعنى بحلاوة التلاوة وعذوبتها؛ وذهب إلى أنّ: ''القرآن الكريم قد أظهر عذوبة وحلاوة ذات أصالة وحقيقة بحيث إن التكرار الكثير –المسبّب للسآمة حتى من أطيب الأشياء– لا يورث الملال عند من لم يفسد قلبه ويبلد ذوقه، بل يزيد تكرار تلاوته من عذوبته وحلاوته. وهذا أمر مسلّم به عند الجميع من ذلك العصر، حتى غدا مضرب الأمثال''.[14]

التحقيق أن التسليم بأن التكرار الكثير لا يورث السآمة فيه نظر؛ بيان ذلك أن مسألة التكرار في القرآن من المسائل التي نالت حظاً وافراً من الجدل والمساجلة والاختلاف حتى عند أصحاب المذهب البلاغيّ الواحد، ناهيك عن المذاهب الأخرى التي تتحرك من منطلقات عقدية، سواء كانت شرقية أو استشراقية. ولعل التسليم الذي قصده النورسيّ –رحمه الله– هو إقرار أصحاب الصناعة والاختصاص الذين يُفزع إليهم عند الاقتضاء، ولا يهتدي إلى فهمها والوقوف عليها إلا الخواص؛ لأنهم العارفون بأسرار التكرار ولطائفه؛ إذن، التسليم الوارد في نص النورسيّ ليس على إطلاقه؛ وإنما من محترزاته، وقيوده القلب السليم، والذوق غير السقيم؛ ومتى توفرت الفطرة الروحية والبيانية السليمة تكشّفت حقائق التكرار لناظر سليم البصر، والبصيرة.

وينطلق النورسيّ في إثبات مركزية التكرار في الإعجاز القرآنيّ من قضية دلائل إثبات التوحيد؛ ويرى في تكرار هذه الأدلة ما يبعث على تنبيه المؤمن والكافر إلى

حقيقة الوجود، وهي من أعظم الحقائق لارتباطها بالإيمان؛ وفي هذا الصدد قال: ''لو قام القرآن بتوجيه الأنظار إلى الإيمان بتلك الانقلابات المدهشة وحمل الآخرين على تصديق تلك المسألة العظيمة الضرورية للبشر... نعم لو قام به آلاف المرات وكرّر تلك المسائل ملايين المرات لا يعدّ ذلك منه إسرافاً في البلاغة قط، كما أنه لا يولّد سأماً ولا مللاً البتة بل لا تنقطع الحاجة إلى تكرار تلاوتها في القرآن الكريم، حيث ليس هناك أهم ولا أعظم مسألة في الوجود من التوحيد والآخرة''.[15]

ولعِظم أمور الآخرة، والتوحيد والإيمان يجنح القرآن الكريم إلى أسلوب التكرار؛ قصد لفت الأنظار إلى جوهر الحقيقة الإيمانية؛ وأكبر الظن أن البلاغة لا تنافي التكرار الذي يفضي إلى تثبيت العقيدة الصحيحة والإيمان الراسخ؛ بل إن أحوج الأمور إلى الترداد، والتكرير مسائل الآخرة لشدة الغفلة والانحراف.

ولا جرم أن فكرة اللذة المتجدّدة من كل تكرار في القرآن الكريم وجدت طريقها عند النورسيّ إلى مجال الممارسة العملية، والتطبيقية في كليات رسائل النور؛ فقد أكثر النورسيّ من الشواهد القرآنية للتدليل على فكرة اللذة البيولوجية والروحية؛ ولعل قليلاً من النماذج، والشواهد يغني عن الإفاضة في شرح فلسفة النورسيّ في التكرار؛ وسوف نكتفي ببعض الإشارات والتنبيهات.

ومن أجمل الشواهد التي قرن فيها النورسيّ –رحمه الله– بين اللذة البيولوجية، وتكرار بعض الآيات القرآنية إشارته الآتية: ''إذا عرفتَ هذا فاعلم ! أنه كما أن القرآن بمجموعه قوتٌ وقوّة للقلوب لا يُملُّ على التكرار بل يُستحلى على الإكثار منه، كذلك في القرآن ما هو روح لذلك القوت كلما تكرر تلألأ وفارت أشعة الحق والحقيقة من أطرافه، وفي ذلك البعض ما هو أسّ الأساس والعقدة الحياتية والنور المتجسد بجسدٍ سرمديّ كَ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ﴾. فيا هذا شاورْ مذاقك إن كنتَ ذاَ مذاق!..''[16]

ظاهر كلام النورسيّ أنّ القرآن غذاء روحيّ لا يملُّ مهما تكرر؛ لأنه يستمد قوته من طاقة إلهية لا تنضب ومن مادة الوحي الثرية التي تشع من حقيقة البسملة التي هي نور أبديّ أزليّ تنفجر قوته من هذا الإشعاع الربانيّ؛ فالتكرار هو الشعاع الإلهيّ، والنور الذي تجلت حلاوته، وانتشر أريجه في البسملة.

وقد تناول بديع الزمان النورسيّ –رحمه الله– بالتفسير أكثر الآيات القرآنية اختلافاً بين المفسّرين، وعالجها معالجة أزالت غشاوة المستشرقين الذين يستند أغلبهم في

تفسير هذه الآية إلى اعتبارها ملمحاً من ملامح القصور البيانيّ؛ وهو تفسير قاصر عن ملامسة جوهر الآية وحقيقتها. وقد انفرد النورسيّ بقراءة تفسيرية نابعة من رحم فلسفة التوحيد والإيمان، وفي هذا المعنى قال: ''اعلم أن تكرار آية: ﴿فبأيّ الآءِ رَبّكُما تُكَذّبانِ﴾ في مقاطع الآيات التنزيلية المشيرة إلى الآيات التكوينية المتنوعة المختلفة في سورة 'الرحمن' يدل على أنّ أكثر عصيان الجن، والإنس وأشدّ طغيانهما وأعظم كفرانهما يتولد من: عدم رؤية الإنعام في النعمة... والغفلة عن المنعم... وإسناد النعم إلى الأسباب و التصادفات... حتى يصيرا مكذّبين بآلآء الله. فلا بد للمؤمن من أن يبسمل بدء كل نعمة قاصداً بها أنها منه، أنا آخذها باسمه وبحسابه، لا بحساب الوسائط، فله الشكر والمنة.''[17]

إن مدار الاستقامة في تفسير هذه الآية هو إثبات الحقائق الإيمانية وتثبيتها؛ وقد تكررت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة في سياق الحديث عن تَعداد بدائع صنع الله، وعجائب خلقه؛ وقد خاض كثير من المفسرين والأدباء والبلاغيين في توجيه الحكمة من تكرار هذه الآية كتوجيه ابن قتيبة الذي فهم التكرار من منظور بلاغيّ ورأى أن هذا الأسلوب من مذاهب العرب وسننهم في التعبير،[18] كما التفت محمود الكرمانيّ – رحمه الله– إلى فلسفة توزيع العدد (٣١) المكرَر في الآية إلى العدد سبعة وثمانية بعدد أبواب الجنة، وجهنّم وعدد الآلآء المذكورة في سياق تعداد نعم الله تعالى،[19] وأعتقد أن النورسيّ أصاب كبد الحقيقة، وأتى مؤتى يوجب الفضيلة البيانية حين فسّر تجدّد الإقرار بنعم الله تعالى بعد كل فصل بغفلة الجن، والإنس عن فعل الإنعام الذي هو مدار الطلب، ومصدر النعمة الذي هو الله تبارك وتعالى؛ ومن ثم يقع الانحراف في عدم تقدير النعمة ونسبتها إلى غير الله جلّ وعلا؛ وبالتالي يفضي الانكار إلى تكذيب نعم المنّان؛ وقد أشار النورسيّ إلى حقيقة الإقرار المتجسّد في ردّ النعمة إلى المنعِم لا إلى غيره من البشر؛ وكأنه يشير إلى حقيقة التوحيد الموجبة لتجديد العهد مع المنعِم، والاعتراف بفضله.

ومن الآيات القرآنية التي استوقفت بديع الزمان سعيد النورسيّ البسملة التي اعتبرها نبراساً مضيئاً لهذا الكون، وحاجة تتجاوز الحاجات البيولوجية إلى حاجة ضرورية لا غنى عنها للإنسان؛ وفي هذا الصدد قال: ''فعلى سبيل المثال إن جملة ﴿بسمِ الله الرّحمٰنِ الرّحِيم﴾ هي آية واحدة تتكرر مائة وأربع عشرة مرة في القرآن

الكريم، ذلك لأنها حقيقة كبرى تملأ الكون نوراً وضياءً وتشد الفرش بالعرش برباط وثيق [...] فما من أحد إلا وهو بحاجة ماسة إلى هذه الحقيقة في كل حين، فلو تكررت هذه الحقيقة العظمى ملايين المرات فالحاجة مازالت قائمة باقية لا ترتوي. إذ ليست هي حاجة يومية كالخبز، بل هي أيضا كالهواء والضياء الذي يُضطر إليه ويشتاق كل دقيقة''.[20]

فتكرار البسملة ليس من قبيل التكرار الذي يُملّ؛ وإنما هو تكرار روحيّ يربط الأرض بالسماء؛ ولعل في هذا التعانق المتين، والرباط المكين ما يكفي لتعزيز موقع البسملة في حياة المسلم الذي يزداد شوقاً وتعلقاً بهذه العلاقة الروحية التي تتخطّى إطار الكائن الحيّ في حاجاته الجسمانية إلى احتياج كونيّ.

ولعل مما له دلالة في هذا الصدد توجيه النورسيّ لتكرار الآية التاسعة التي تكررت في سورة الشعراء ثماني مرات وليس في تكرارها ما يعيب السياق القرآنيّ، وجمال العبارة؛ وإنما هو إثراء للسياق، وتجديد لمسالك التعبير. وقد علّق بديع الزمان سعيد النورسيّ قائلاً: ''وإن الآية الكريمة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تتكرر ثماني مرات في سورة 'الشعراء'. فتكرار هذه الآية العظيمة التي تنطوي على ألوف الحقائق في سورة تذكُر الأنبياء عليهم السلام وعذاب أقوامهم، إنما هو لبيان: أن مظالم أقوامهم تمسّ الغاية من الخلق، وتتعرض إلى عظمة الربوبية المطلقة، فتقتضي العزة الربانية عذاب تلك الأقوام الظالمة مثلما تقتضي الرحمة الإلهية نجاة الأنبياء عليهم السلام. فلو تكررت هذه الآية ألوف المرات لما انقضت الحاجة والشوق إليها، فالتكرار هنا بلاغة راقية ذات إعجاز وإيجاز.''[21]

إن القراءة الهادئة المتأنية لتفسير النورسيّ تقودنا إلى فهم المقابلة الدلالية التي تناولها في سورة الشعراء؛ وهي مقابلة تكشف عن الغاية السامية من الخلق وهي عبادة الله تعالى، والانحراف عن الفطرة موجب لعذاب الله؛ كما أن دعوة الأنبياء لأقوامهم ومعاناتهم مصونة برعاية الله. فما السرّ في تكرار هذه الآية ثماني مرات في سورة الشّعراء؟

لا مرية في أن المقصد الأزليّ الذي من أجله خُلق البشر هو الامتثال لأوامر الله، واجتناب نواهيه؛ وتنكب جادة الاستقامة الإلهية يفضي إلى عقاب الله تعالى، وهو

عقاب عزيز رحيم؛ لأن جسامة الجرم المرتكب ''المروق عن الدين'' بعد دعوة الأنبياء لأقوامهم وصبرهم على مشقة التبليغ يناسب طبيعة الجزاء؛ وقد أشار النورسيّ إلى سرّ هذا التكرار الذي فسّره في رحاب الاحتياج، والاشتياق إلى تكرار الآية؛ لما فيها من الإيجاز والإعجاز الذي تضمّن الجمع بين العزة، والرحمة في سياقين مختلفين.

وانتقل النورسيّ إلى فضاء دلاليّ آخر له تعلق بتكرار النعيم الأبديّ السرمديّ الذي أعدّه الله تبارك وتعالى لمحبيه وعباده المخلصين. فقال: ''فمثلاً: أن حقيقة الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾البروج:١١ هي بشرى السعادة الخالدة تزفّها هذه الآية الكريمة إلى الإنسان المسكين الذي يلاقي حقيقة الموت كل حين، فتنقذه هذه البشرى من تصور الموت إعداماً أبدياً، وتنجيه –وعالمه وجميع أحبته– من قبضة الفناء، بل تمنحه سلطنة أبدية، وتكسبه سعادة دائمة... فلو تكررت هذه الآية الكريمة ملياراً من المرات لا يُعد من الإسراف قط، ولا يمسّ بلاغته شيء.''[22]

ومن المفيد القول هنا: إنّ اللغة العرفانية المهيمنة على تفسير هذه الآية الكريمة تجعل القارئ يستحضر هذا الفضاء المنعَّم، الذي اعتبره النورسيّ رحلة في فضاء المطلق؛ وقد قدّم مفهوماً لفلسفة الموت في منتهى القوة والسداد؛ بيان ذلك أنه استقرّ في نفوس البشر أن هاجس الموت يلاحق الإنسان منذ ولادته؛ ولعل في هيمنة هذا الشعور القاتم ما يجعل الإنسان يتخذ فلسفة ما في فهم الحياة، والتعامل مع مشكلاتها؛ بيد أن النورسيَّ يرى في الجنة البشرى السرمدية، والأبدية التي تنتشل البشر من سطوة الفناء الذي هو مصير كل الكائنات؛ فالموت ليس إعداما أزلياً للبشر؛ وإنما هو نقلة إلى عالم السعادة الكبرى، والراحة العظمى؛ ومن ثم تكرار هذه الحقيقة القرآنية في تجلياتها الفلسفية يصوّب كثيرا من التصوّرات الخاطئة، ولا يقدح في بلاغة القرآن، وسموه الفنيّ.

وتأكيداً لمنهج تصويب بعض الأفكار، والتصورات المتعلقة بالموت، و العذاب، والجحيم والكفر يوّسع النورسيّ من دائرة الممارسة التطبيقية؛ فتناول الآية السادسة والثلاثين من سورة فاطر، والآية الثانية والعشرين من سورة إبراهيم. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾.فاطر:٣٦ ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.إبراهيم:٢٢ قال النورسيّ معلّقاً على الآيتين الكريمتين: ''فلو يكرر سلطان الكون

في أوامره تلك الجناية العظمى ''الكفر'' وعقوبتها بأسلوب في غاية الزجر والشدة ألوف المرات، بل ملايين المرات، بل مليارات المرات لما عُدّ ذلك إسرافاً مطلقاً ولا نقصاً في البلاغة، نظراً لضخامة تلك الجناية العامة وتجاوز الحقوق غير المحدودة، وبناء على حكمة إظهار أهمية حقوق رعيته سبحانه وإبراز القبح غير المتناهي في كفر المنكرين وظلمهم الشنيع. إذ لا يكرر ذلك لضآلة الإنسان وحقارته بل لهول تجاوز الكافر وعظم ظلمه.''[23]

قدّم النورسيّ تصوراً للكفر غاية في الابتكار؛ ذلك أن الكفر يتجاوز حدود عدم الإيمان بالله تعالى إيماناً مطلقاً إلى قبح غير متناهٍ؛ وفي دلالة كلمة ''القبح'' ما يوحي بجهل الكافر لجمال الكون وخالقه؛ فهو تعدٍ على مصدر هذا الجمال الإلهيّ في تجلياته المختلفة؛ لأن الإيمان في بعده العقديّ إقرار بجمال المولى تبارك وتعالى واعتراف بمطلق حسنه؛ ومن اللافت للنظر في تفسير النورسيّ ربطه الظلم بتجاوز الحد في الاعتداء على حقوق الناس المطلقة؛ ومن ثم فالكفر والظلم تجاوز لامحدود؛ وإن ارتبط التعدي الأول بالبعد العقديّ، وتعلق الثاني منه بالتعدي الأخلاقيّ في المعاملات البشرية. ويفسّر النورسيّ –رحمه الله– الحكمة من التكرار الذي يراه بلاغة عالية، وصنعة سامية بطبيعة الجرم المرتكب، والجناية الكبرى التي يرتكبها الكافر والظالم؛ مع إقراره بآدمية الإنسان، واحترامه.

فالتكرار له ما يسوّغه بالنظر إلى جسامة الكفر، وفداحة الظلم؛ لتجاوزه إطار القيم العقدية والأخلاقية؛ وبالتالي ناسب أسلوب التكرار سياق الشّدة، والزجر مناسبة تامة؛ وأغلب الظن أن في هذا الزجر ردع للمعتدي وجهله بحقوق الآخرين التي صانها القرآن الكريم؛ بل إن الظالم للبشر ظالم لله تعالى؛ وهو الواحد القهّار.

٣. التقرير والتأكيد والتثبيت:

من مقاصد التكرار التي ذكرها النورسيّ في كليات رسائل النور التقرير والتأكيد والتثبيت، وكلها معانٍ ذكرها المتقدمون وأفاضوا في شرحها وتفصيلها؛[24] غير أن بديع الزمان النورسيّ عالجها من منطلق الحقائق الإيمانية؛ ومن ثم انفرد في منهج المعالجة؛ وقد ذُكرت هذه المقاصد في سياق متصل أحياناً، وفي مقامات مختلفة أحياناً أخرى.

قد يكون من المفيد أن نتذكَّر آراء المستشرقين الذين تناولوا أسلوب التكرار من منطلق واضح الفساد، ظاهر البطلان؛ ويشهد على تهافت آرائهم، أنهم نظروا إلى التكرار من زاوية ضيقة ترى فيه دليلاً على قصور العبارة القرآنية، التي تستنجد بالتكرار اللفظيّ كلما ضاقت الدائرة التعبيرية حسب زعمهم؛ وهي رؤية تعزّز قلة اطّلاعهم على معارف المتقدمين البلاغية، وضعف استئناسهم بمقاصد التكرار وجمالياته. وقد عبّر النورسيّ في أكثر من موضع عن قصور أفهام هؤلاء، ومن اقتفى أثرهم من الباحثين العرب قديماً وحديثاً. قال النورسيّ بنبرة من النّقد اللاذع: ''اعلم أن القرآن لأنه كتاب ذِكر، وكتاب دعاء، وكتاب دعوة، يكون تكراره أحسن وأبلغ بل ألزم، وليس كما ظنّه القاصرون، إذ الذِكر يُكرّر، والدعاء يُردّد، والدعوة تُؤكّد. إذ في تكرير الذِكر تنويرٌ، وفي ترديد الدعاء تقريرٌ، وفي تكرار الدعوة تأكيدٌ.''[25]

لقد ربط النورسيّ التكرار بمسائل الإيمان المحوجة إلى التمكين، والترسيخ والتثبيت؛ لأن هذه الشعائر التعبدية ألصق بالقلب، والوجدان وهو موطن التأثير؛ وكل شعيرة روحية لها سبب ونسب بالتكرار في مستوياته المختلفة؛ فالذِكرُ المُكرَر إنارة للقلب وإضاءة للروح، والدعاء المردَّد اعتراف باحتياج الداعي، واشتياقه إلى رحمة الله تعالى ورأفته، والدعوة أداة لتثبيت الرسالة الموجّهة للعامة، وتحقيقها قصد الإقناع.

وتتجلى جماليات التكرار في صور شتى من التقرير والتأكيد والتثبيت؛ وكلها أنماط لها تعلق بالحقائق الإيمانية الموجبة لتثبيت العقيدة، وترسيخها في قلوب عامة الناس؛ فطبيعة الحقيقة الإيمانية وخصوصية وسائل تبليغها وتوصيلها إلى المتلقي تزكّي مسلك التكرير الذي يفضي إلى الإقناع والتحقيق واليقين؛ وفي هذا المعنى قال النورسيّ –رحمه الله–: ''اعلم! أن القرآن يبحث عن وسائل عظيمة ويدعو القلوب إلى الإيمان بها، وعن حقائق دقيقة ويدعو العقول إلى معرفتها... فلا بد لتقريرها في القلوب وتثبيتها في أفكار العامة من التكرار في صور مختلفة وأساليب متنوعة''.[26]

٤. التأسيس:

انفرد النورسيّ –فيما نعلم– بمقصد من مقاصد التكرار؛ وهو التأسيس الذي يستند إليه التأكيد؛ واللافت للنظر أن بديع الزمان لم يحدّد تحديداً دقيقاً هذا المفهوم؛ وإنما مثّل له بشواهد؛ ويبدو أن التأسيس هو كالمقدمة لتأكيد سياق التكرار فتسبقه وتعضّده.

قال النورسيّ، مسترشداً بالأذكار التي تُردّد بعد عقب كل صلاة مثل: الله أكبر، الحمد لله، سبحان الله: ''هذه الكلمات المباركة التي تتكرر بعد الصلوات؛ شاهدتُ أنها ليست تكراراً، بل تأسيس [...] أو تأكيد في تأسيس معانيها متساندة لا متحدةً. مثلاً: رميتَ حجراً في وسط حوض كبير تقول للدائرة المتشكّلة من وقوع الحَجر: واسعة... واسعة... واسعة... كلما تتلفظ بواسعة تتظاهر دائرة أوسع. وكذا تأكيدٌ في المعنى، تأسيسٌ في المقاصد والثمرات.''[27]

وظاهر كلام النورسيّ أن التأسيس هو توليد للمعاني، وإثراء للمقاصد؛ فاللفظ المكرر ظاهراً هو امتداد للمعنى المتواصل؛ وتوسيع من المجال الدلاليّ للكلمات؛ لبلوغ الغاية من التأييد، والتقرير والتأكيد؛ فاللفظ المردَّد يعضد قرينه في سلسلة متعاضدة ومتساندة، لا اتحاد بينهما إلا في الصورة اللفظية.

وزاد النورسيّ –رحمه الله– من توضيح معنى التأسيس من منطلق صوفيّ عرفانيّ في تناول مسألة التوحيد قائلاً: ''فاعلم أن 'لا إله إلا الله' يتضمن من التوحيد، ومن أحكام التوحيد عدد الأسماء الحسنى... فهذا الكلام الواحد يشمل على ألوف كلام، كل كلام مثل هذا الكلام مركب من نفي وإثبات. ولأجل أن النفي يتوجه على فردٍ فرد بالاستغراق الفرديّ؛ يكون في الإثبات، إثبات مجموع ما نفي عن الغير، بالقاعدة المقررة في المنطق. فكأنه قيل: 'لا خالق، ولا رازق، ولا قيوم، ولا مالك، ولا فاطر، ولا قهّار إلا الله'... وهكذا؛ فيمكن أن ينبسط هذا الكلام للذاكر المترقي في الأطوار والمراتب، على كل مراتبه وأحواله، فيكون التكرار كالتأكيد بالتأسيس''.[28]

يتجلى من كلام النورسيّ أن كلمة التوحيد فيها من الكثافة الدلالية والإشعاع اللفظيّ ما يجعل الذاكِر لها يرتقي في مدارج السّالكين، غارقاً في الملكوت الإلهيّ، وكأنها معراج العارفين؛ كلما انتقل من مرتبة إلى أخرى ازداد يقين الذاكِر بحقيقة التوحيد، وترسّخت معاني الأسماء الحسنى؛ وتراءت للناظر العاشق ثمرات الخلق، ومقاصد الرزق والملك والقهر وغيرها. فالتكرار غرضه تأكيد أسماء الله الحسنى في منطق متدرج يؤسّس لمعنى تلو الآخر.

٥. التيسير على قارئ القرآن:

يرتبط هذا المقصد من التكرار بتوفير الجهد على قارئ القرآن الكريم؛ وقد استعان

النورسيّ في تأصيل الحكمة من التكرار بتعميم مقاصد القرآن، واختزالها في سور بعينها حتى يكون هذا الاختصار مُعيناً لكل المتلقين على تفاوت درجة إيمانهم ومواظبتهم على التلاوة والقراءة. وفي هذا المقام أشار النورسيّ قائلاً: ''واعلم أنه لا يمكن لكل أحد في كل وقت قراءة تمام القرآن الذي هو دواء وشفاء لكل أحد في كل وقت. فلهذا أدْرَجَ الحكيمُ الرحيمُ أكثر المقاصد القرآنية في أكثر السور؛ لا سيما الطويلة منها، حتى صارت كل سورة قرآناً صغيراً، فسهَّل السبيل لكل أحد، دون أن يَحْرُم أحداً، فكرر التوحيد والحشر وقصة موسى عليه السلام''.[29]

وربما يكون من المناسب هنا أن نرفع اللبس والغموض عن عبارة ''قرآن صغير أو مصغّر''[30] كما وردت في كليات رسائل النور؛ وقد أشرنا إلى هذه المواضع في الهامش؛ ولعل مقصد النورسيّ خلاف ما قد يُتوهم من وجود أكثر من قرآن؛ ثم إن الصفة لا تنطبق على الموصوف؛ وقد يكون السبب في ذلك الترجمة من اللغة التركية؛ والعارف بمنبع العلاّمة النورسيّ –رحمه الله– وحرصه على قداسة القرآن وحرمته؛ بل عشقه اللامحدود للإسلام؛ فضلاً عن حرص العالم الجليل –أدام الله عزه ورفع في الدارين علاه– إحسان قاسم الصالحي الذي ترجم رسائل النور ترجمة في منتهى التحقيق والعرفان؛ كثيراً ما كان يصطدم ببعض العبارات التي تحتاج جهدا لغويّا شاقا في ترجمتها؛ كل ذلك يجعل القارئ الأمين الذي لا يخالطه غرور المتعالمين، وشرور المستشرقين أن يأخذ العبارة على محمل الحسن؛ ثم إن ظروف تحرير رسائل النور السياسية والنفسية والفكرية تدلّل على أن كاتبها كان يعاني من البحث عن العبارة المناسبة اللائقة؛ وهو جنديّ في جبهات القتال في الحرب العالمية الأولى، كما أن ضخامة رسائل النور ''١٣٠ رسالة''، قد يحمل على الاعتقاد الصادق بأن النورسيّ – رحمه الله– قصد الدلالة الإيجابية التي لا تقدح في قداسة القرآن الكريم؛ ومهما يكن من أمر فإن فلسفة التيسير مما له أثر بارز في مجال التلاوة.

والمستقرئ لمصنفات القدماء يلفي أنهم ركّزوا على مفهوم التيسير؛ مراعاة لتباين القدرات الاستيعابية للبشر، واختلاف مداركهم؛ وقد ذكر ابن قتيبة الدينوري ذلك صراحة بقوله: ''ولم يفرض الله على عباده أن يحفظوا القرآن كله، ولا أن يختموه في التعلم، وإنما أنزله ليعملوا بمُحْكمه، ويؤمنوا بمتشابهه، ويأتمروا بأمره، وينتهوا بزجره: ويحفظوا للصلاة مقدار الطاقة، ويقرءوا فيها الميسور''.[31]

فالطاقة الروحية والعقلية هي مناط التيسير على العباد الذين قد تعوزهم الحاجة على اختلافها من حفظ القرآن، وتشغلهم كثرة العوائق والعلائق عن قراءة القرآن؛ فيكفي القدر اليسير مؤونة للممارسة التعبدية؛ ذلك أن ترجمة تجربة الوحي إلى سلوك عمليّ هو المقصد الأسنى من قراءة القرآن.

٦. الجواب عن أسئلة مكررة لتكرر الحاجات:

من المقرر في فلسفة التشريع الإسلاميّ أن الجواب عن الأسئلة المكررة تستدعيه الحاجة البشرية للفهم والإدراك؛ ولما كان القرآن هو دستور الحياة ومنهاج لترشيد البشر إلى الحقيقة النورانية الخالدة وجبَ الإقرار بمركزيته في الإقناع والتقرير والتأييد لمبادئه وأصوله. وقد أومأ النورسيّ إلى طبيعة العلاقة المحكمة والصلة الوطيدة بين القرآن والتكرار باعتباره أداة تعضده، وتسنده في إرشاد البشر إلى نور الهداية السرمديّ فقال: ''اعلم! أن القرآن مؤسِّس لهذا الدين العظيم، وأساسات لهذا العالم الإسلاميّ، ومقلِّبٌ لاجتماعيات البشر ومحوّلها ومبدّلها، وجواب لمكررات أسئلة الطبقات المختلفة للبشرية بألسنة الأقوال والأحوال.. ولا بدّ للمؤسّس من التكرير للتثبيت، ومن الترديد للتأكيد، ومن التكرار للتقرير والتأييد.''[32]

فضرورة التأسيس موجبة للتكرار الذي يزيد من قوة الإقناع الداعية إلى التمسك بتعاليم الدين، والاسترشاد بهديه؛ فالحجة الدامغة وقوة الدليل وسداده مما ينتهي إلى ثلج يقين المتلقين بضرورة التعلق بالقرآن الكريم الذي يخاطبهم وفق منطق التدرج الذي يراعي التباين الشديد بين طبقات المجتمع الإنسانيّ؛ ولهذا يأتي الجواب القرآنيّ في قوة السداد والإقناع والتقرير، ويتخذ لهذا المسلك الإقناعيّ التعبير اللفظيّ والتعبير الصامت ''الحال''.

فما طبيعة الجواب، وما سمة السؤال؟

لا محالة أن ما اختص به مفهوم التأسيس من سلطة التأثير يدفعنا إلى المزيد من استكناه حقيقة التكرار التي تميزّ الخطاب القرآنيّ بخصوصية التبليغ المسّدَد بالوحي الإلهيّ؛ ذلك أن دورة التخاطب في القرآن تسلك مسلكاً يحفّز العقل الإنسانيّ للتأمل الرصين في خلق المخلوقات؛ وبهذا الاعتبار تتّسم أجوبة القرآن بقوة الدليل وسلطانه؛ لأنها خلاصة طبيعية لقوة الوحي. وفي هذا الصدد قال بديع الزمان النورسيّ: ''إن

تكرر الحاجة يستلزم التكرار، هذه قاعدة ثابتة، لذا فقد أجاب القرآن الكريم عن أسئلة مكررة كثيرة خلال عشرين سنة، فأرشد بإجاباته المكررة طبقات كثيرة متباينة من المخاطبين. فهو يكرّر جُملاً تملك أُلوف النتائج، ويكرر إرشادات هي نتيجة لأدلة لا حدّ لها.[33]

فالدليل القرآنيّ ناطق بقوة سداده، ومتانة سلطان حجّته؛ لأنه مجموع تكرارات إرشادية لا أجوبة مرتجلة غير مسدَّدة بالحقائق الإيمانية؛ ولعل خصوصية الجواب القرآنيّ تكمن في التوجيه، والإرشاد الذي ينم عن طاقة التحقيق، والسداد.

٧. التكرار باعتباره فهرستة إجمالية:

لعل من إنجازات العلاّمة النورسيّ الخالدة تأصيله لمصطلح يعبّر عن معنى من معاني التكرار، وهو المعروف بقدرة فائقة على توليد المصطلحات القرآنية. فما المقصود بالفهرستة؟

من الثابت في الدراسات المنهجية في البحث العلميّ أن يتضمّن الكتاب فهارس مختلفة للموضوعات والآيات القرآنية، والأحاديث، والأشعار وغيرها مما هو ثابت في أصول التصنيف الأكاديميّ؛ بيد أن النورسيَّ يوظّف هذا المصطلح في سياق الإجمال الذي يجمع مقاصد مختلفة. وقد أجلى هذا المعنى في سياق حديثه عن أسرار البسملة وجهاتها فقال: ''وأيضاً فيها أحكام ضمنية: كالإشارة إلى التوحيد والنبوة والحشر والعدل أعني المقاصد الأربعة المشهورة، مع أن في أكثر السور يكون المقصود بالذات واحداً منها، والباقي استطرادياً. فلِمَ لا يجوز أن يكون لجهة أو حُكم أو مقام منها مناسبة مخصوصة لروح السورة وتكون موضوعاً للمقام بل فهرستة إجمالية باعتبار تلك الجهات والمقاصد؟''[34]

فالمناسبة هي الجامعة للمقاصد باعتبارها الوعاء الذي يضم ما تفرقّ من الجهات لتصب في رافد واحد كون التكرار خلاصة موحّدة لهذه المقاصد الأربعة: التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدل؛ ومن ثم تُرتبّ هذه المقاصد كما تُرتب الفهارس؛ وهي خلاصات لموضوعات متفرّقة جمعت في إطار واحد؛ وكأنَ الفهرستة هي العنوان الناطق بمضامين، ومحتويات شتى.

الخاتمة:

قوام الأمر أن بديع الزمان سعيد النورسيّ –أسبغ الله عليه شآبيب رحمته– لامس كثيرا من القضايا البلاغية التي عايشها معايشة وجدانية، وصاغها بأسلوب جماليّ يبعث على المزيد من التقّصي في استكناه عناصر الإبداع الفنيّ، والأدبيّ، والفكريّ في كليات رسائل النور.

وبعد فراغنا من تحرير هذا البحث الذي لم بلغ الغاية من القوة والسداد؛ لضخامة الرسائل وروحانيتها الخاصة التي تجعل الأكباد عطشى إلى الظفر بمكنوناتها، والاستئناس برقائقها وحقائقها؛ نستجمع بعض النتائج التي توصلنا إليها بعد معاناة معرفية، وعلاج طويل لكثير من مقاصد التكرار. ولعل هذه النتائج غير فاضلة عن الكفاية ولا مجزئة عن قراءة الرسائل التي تعدُّ معيناً زاخراً بالغُرر والدُرر، وإجمالاً هي كالآتي:

– تؤكد مقاربة النورسيّ لأسلوب التكرار في القرآن الكريم أن الدلالة النفسية هي قوام التكرار، وعمدته ومِلاكه.

– لا وجود لتكرار مجانيّ في القرآن كما زعم بعض الباحثين، والمستشرقين؛ لأن التكرار بفروعه وأقسامه وضروبه وارد في كلام العرب وأشعارهم؛ بيد أن المعيب منه لم يرد في كتاب الله تعالى.

– تباين آراء الكثير من الباحثين قديماً وحديثاً في إشكالية التكرار مصدره معالجة الموضوع من منطلقات اصطلاحية؛ غارقة في التقعيد والتقسيم والتفريع، وتصيد الشواهد الشعرية، وإقحامها في تفسير الشواهد القرآنية.

– الحكمة النفسية في تجلياتها المختلفة هي المرشدة إلى إدراك كنه التكرار، وجمالياته الفنية والروحية.

– أصّل النورسيّ في مقاربته لأسلوب التكرار لبعض الحِكم: كالتأسيس، وتكرر الحاجة الذي يستلزم التكرار، الفهرستة، وغيرها من المفاهيم التي تُشكّل شبكة من المصطلحات المتداخلة.

– اللذة النفسية، والروحية حاصلة من كل تكرار في القرآن الكريم.

– كثرة تشبيه اللّذة البيولوجية عند الإنسان بلذة التكرار المتجدّدة.

– التكرار أداة للإرشاد والتوجيه الإلهيّ، ووسيلة لإثبات الحقائق الإيمانية، وتثبيتها.

– السياق الدلاليّ بسوابقه، ولواحقه له أثر بارزٌ في إدراك جماليات التكرار.

ونعوذ بالله من طمس السريرة، وعمى البصيرة.

* * *

مصادر البحث ومراجعه:

١. القرآن الكريم، مصحف المدينة النبوية للنشر الحاسوبيّ.

٢. ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدّمه وعلّق عليه، أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة – القاهرة [د.ت].

٣. ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، شرَحه ونشرَه السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ١٣٩٣هـ -١٩٧٣م، الطبعة الثانية.

٤. أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ديوان شعر، وقفَ على طبعه وضبَطه وعلّق على شرحه شاهين عطية، طبع في المطبعة الأدبية، ١٨٨٩م.

٥. بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، مصر، ٢٠٠٢م، الطبعة الثالثة.

٦. بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، مصر، ١٤١٤هـ– ١٩٩٣م، الطبعة الثانية.

٧. بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، مصر، [د. ت].

٨. بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، المثنوي العربي النُّوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، مصر، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م، الطبعة الأولى.

٩. بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر بمصر، ٢٠٠١م، الطبعة الثالثة.

١٠. بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، الملاحق في فقه دعوة النور، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر– فرع القاهرة، مصر، ١٩٩٩م، الطبعة الثالثة.

١١. البوصيريّ، الكواكب الدرية في مدح خير البرية، طبعة ضبَطها أحمد علي حسن وعلَّق بهامشها مختصر شرح شيخ الأزهر، إبراهيم الباجوري، مكتبة الآداب، القاهرة، [د.ت].

١٢. الزركشيّ، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث بالقاهرة، [د.ت].

١٣. محمود الكرمانيّ، أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، مراجعة وتعليق أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، [د.ت].

* * *

الهوامش:

[1] باحث وأستاذ أكاديميّ من الجزائر.

[2] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، الملاحق في فقه دعوة النور، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر- فرع القاهرة، مصر، ١٩٩٩م، الطبعة الثالثة، ص: ١٠٦.

[3] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، مصر، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، الطبعة الثانية، ص: ٩٥.

[4] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، مصر، ص: ١١٩.

[5] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، الشعاعات، ص: ٣٠٥.

[6] محمود الكرمانيّ، أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، مراجعة وتعليق أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، ص: ٤٤- ٤٥من كلام محقق الكتاب.

[7] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر بمصر، ٢٠٠١م، الطبعة الثالثة، ص: ٢٦٨.

[8] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، المكتوبات، ص: ٢٦٨.

[9] المصدر نفسه، ص: ٢٦٨.

[10] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، مصر، ٢٠٠٢م، الطبعة الثالثة، ص: ٣٩.

[11] أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ديوان شعر، وقف على طبعه وضبَطه وعلّق على شرحه شاهين عطية، طبع في المطبعة الأدبية، ١٨٨٩م، ص: ٩١. أخلق الثوب: أبلاه، الديباجتان: الخدان، السرمد: الدائم.

[12] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، المثنوي العربي النُّوري، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، مصر، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م، الطبعة الأولى، ص: ٢٣٠.

[13] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، المثنوي العربي النُّوري، ص: ٢٣٠.

[14] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، الشعاعات، ص: ١٧٧. وقد يبيّن النورسيّ في موضع آخر من رسائل النور مفهوم الفطرة السليمة في إدراك حقائق التكرار قائلاً: ''وهكذا فلأن حقائق القرآن المكررة تملأ هذه القيمة الراقية وفيها من الحِكم ما فيها، فالفطرة السليمة تشهد أنّ في تكراره معجزة معنوية قوية وواسعة، إلا من مرِض قلبه وسقم وجدانه بطاعون المادية فتشمله القاعدة المشهورة: قد ينكر المرءُ ضوء الشمس من رَمَد ويُنكِرُ الفمُ طعم الماء من سَقَمِ''. الشعاعات، ص: ٣١٤.
والبيت الشعريّ للإمام البوصيريّ، الكواكب الدرية في مدح خير البرية، طبعة ضبَطها أحمد علي حسن وعلّق بهامشها مختصر شرح شيخ الأزهر، إبراهيم الباجوري، مكتبة الآداب، القاهرة، ص: ١٨.

[15] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، الشعاعات، ص: ٣١١.

[16] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص: ٣٩.

[17] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، المثنوي العربي النُّوري، ص: ١٨٩. ينظر في تكرار آيات سورة الرحمن الشعاعات، ص: ٣٠٧.

[18] لمزيد من التفصيل والإشباع في تفسير ابن قتيبة للتكرار ينظر: تأويل مشكل القرآن، ص: ٢٣٥.

[19] للتوسع في تفسير محمود الكرمانيّ ينظر كتابه: أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، مراجعة وتعليق أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، ص: ٢٣١.

[20] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، الشعاعات، ص: ٣٠٦.ينظر الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر، القاهرة، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م، الطبعة الثانية، ص: ٥٢٩.

[21] المصدر نفسه، ص: ٣٠٧.

[22] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، الشعاعات، ص: ٣١١.

[23] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، الشعاعات، ص: ٣١٢.

[24] فقد أفرد الزركشيّ في الجزء الثالث من كتابه: البرهان في علوم القرآن القسم الرابع عشر للتكرار؛ والراغب في التوسع في هذه الأسرار والفوائد الرجوع إلى الكتاب المذكور من ص: ٨،٣٣. ففيها إضاءات مقنعة، وإشراقات مشبعة.

[25] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، المكتوبات، ص: ٢٦٧. ينظر الكلمات، ص: ٢٦٥. والمثنوي العربيّ النُّوري، ص: ٧١، ٤١٠، واللمعات، ص: ٤٢٠.والراغب في الاستزادة في موضوع غرض التأكيد والتثبيت الرجوع إلى كتاب: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، القسم الثالث، فقد أفرد المؤلف النوع السابع عشر للتكرار من ص: ٣، ٤٠.

[26] المصدر نفسه، ص: ٢٦٨.

[27] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، المثنويّ العربي النوري، ص: ١٣٩.

[28] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، المكتوبات، ص: ٤٠٢. ينظر الشعاعات، ص: ٣١٢-٣١٤. وقد شبّه النورسيّ الكلمة التوحيدية بالسراج المنير.

[29] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، المكتوبات، ص: ٢٦٨.للإحاطة الشاملة بوصف النورسيّ الحكمة من تيسير التلاوة بالقرآن المصغر. ينظر الكلمات، ص: ٢٦٥، ٥٣٦، والشعاعات، ص: ٣١٣.

[30] وقد ورد عن بعض السلف وصف السورة بأنها صغيرة، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده:'' ما من المفصل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا وقد سمعت رسول الله ﷺ يؤم الناس بها في الصلاة المكتوبة''. رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب من رأى التخفيف فيها، رقم الحديث ٨١٤، ورواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر، رقم الحديث ١٣٣٥٩، ٣٦٥/١٢. (المترجم).

[31] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: ٢٣٣.

[32] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، المكتوبات، ص: ٢٦٨.

[33] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، الشعاعات، ص: ٣٠٦. ينظر المثنوي العربي النوري، ص: ٢٣٠.

[34] بديع الزمان سعيد النورسيّ، كليات رسائل النور، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص: ٤٠.

التاريخ عند بديع الزمان سعيد النورسي
دراسة في التمثل والتفسير

محمد بكور[1]

''إن أساس مسلكي منذ أيام صباي –ولا فخر– إزالة الشبهات التي تلوث حقائق الإسلام سواءً بالإفراط أم بالتفريط، وصقل تلك الحقائق الألماسية. والشاهد على هذا تاريخ حياتي في كثير من حوادثه''.[2]

مقدمة:

عاش النورسي في لحظة تاريخية حرجة من تاريخ الأمة الإسلامية، بلغ فيها تأثير الثقافة الأوروبية أوجه، فكان تأثيرها في نفوس المسلمين جليا. وزاد هذه الثقافة سحرا وتأثيرا الانتصارات القوية التي حققتها الأمم الأوروبية في العالم عموما وفي أراضي المسلمين خاصة. وكان انتصار الأمم الأوروبية على الدولة العثمانية مركز الخلافة الإسلامية ضربة موجعة لكل المسلمين، جعلت كثيرا من أبناء المسلمين تلتهمهم الشكوك حتى مست أقدس مقدساتهم وهو إيمانهم بالله وبالآخرة.

وهكذا أصبح الإسلام يحارب بالسلاح المادي والمعنوي من قبل الأعداء الخارجيين، ومن قبل شرذمة من أبناء المسلمين من ضعاف النفوس الذين مالوا بكليتهم إلى مدنية الفلسفة المادية وتجار الكفر والإلحاد، فأصبحوا نوابا عنها في نفث سمومها وبث ادعاءاتها.

كانت تركيا أسرع البلدان الإسلامية في سيرها الحثيث نحو اللائكية المتطرّفة القائمة على اجتثاث الدين من الضمائر والنفوس والقلوب والعقول، لأجل الخلوص إلى إنكار حقائق الدين. وتأكيدا لرجحان اختياراتهم والبرهنة العملية على صحّة

آرائهم، استغلوا ارتباط السلطة السياسية السابقة ''المستبدة'' بشعار الخلافة –التي لا تخفى ملامحها الدينية– تشنيعا عليها، فأظهروا أنّها خضعت للاحتلال الأجنبي وخنعت له، وما قاد المقاومة غيرهم، فكأنّ المقاومة لن تكن على غير أيدي اللائكيين والقوميين، والانتصارات كانت نسيج أيديهم، وواقع هذا شأنه كما يتصوّرون مهيّأ لقبول الفلسفة المادية واستبعاد الإيمان من الحياة، بسحب تقديرهم.

لم يكن النورسي بعيدا عن هذا المخاض، فامتلك عليه ما يحاك للإيمان من مؤامرات –تشيب هلا الولدان– أنفاسه، فكان أوضاع الأمّة بداية القرن العشرين دافعا قويا للتفكير في مسالك جديدة للاستئناف حمل لواء الدفاع عن قدسية الإسلام، ومصدره الرباني، ودوره في النهوض الحضاري للأمم الإسلامية.

أبدع النورسي، خلال حياته الطويلة والحافلة، خطابا تجديديا راقيا بقصد إثبات صدق الرسالة المحمدية والدفاع عن جوهر الإيمان. وتعتبر رسائل النور بحق عملا رائعا أنقذ إيمان الإسلامية في تركيا، وبها يسعف سائر المسلمين

كانت علاقة النورسي بالتاريخ إذن، من حيث هو صيرورة أحداث ووقائع، قوية للغاية. فقد كانت المرحلة التي عايشها بحق لحظة انكسار تاريخي عنيف خلخل كل مقومات الأمة بلا استثناء، وأصبح ما كان يشكل كينونة الأمة وقوامها عبر التاريخ محل تساؤل بل رفض وتطاول.

ولكون النورسي كان عالما ومثقفا وسياسيا ومصلحا، وشارك في مختلف مفاصل الحياة الاجتماعية والسياسية والدعوية، فقد اكتسب وعيا تاريخيا عاليا ومكثفا. وكان من حسن ألطاف الله أن زوده بحاسة إيمانية مرهفة جعلته يرى واقع الأمة من خلال عينين: عين التجربة والخبرة والاطلاع، وعين التوفيق الرباني والكشوفات الرحمانية.

مشكلة البحث:

أثناء قراءتي السريعة لكليات رسائل النور لاحظت أهمية دراسة البعد التاريخي ضمن هذا الخطاب التجديدي، وعناية الأستاذ بالبعد التاريخي كان تبعيا ولم يكن أصليا، فالنورسي لم يصنف في التاريخ، ولكن المادة التاريخية كانت حاضرة بشكل لافت للانتباه، وكان حجم تحصيله من المادة تاريخية ليس قليلا، فقد نقلت مصادر

التعريف به اعتكافه في مدينة وان على مطالعة العلوم المختلفة ومن بينها التاريخ.[3] وكان حضور المادة التاريخية مركزيا في رسائل النور.

لأجل بيان حضور المادة التاريخية في رسائل النور، آثرت الاستقصاء قبل الفصل في الحكم بنسبة حضور المادة التاريخية في رسائل النور، ذلك أنّ الخطاب النوري يكتنز في العمق ما يجعله عصيا على الاستنتاجات المتسرعة، فاحتاج الأمر تنقيبا عميقا يتغيى كشف نسق هذا الخطاب وإدراك آلياته.

كشفت القراءة المتأنية أن رسائل النور جميعها هي جواب فكري وسلوكي عن سؤال تاريخي عميق: ما الذي دهى الأمة الإسلامية حتى انكفأت على نفسها ورضيت بالزاوية الهامشية من التاريخ الإنساني؟ وكيف السبيل للنهوض الحضاري وإعادة الحق والعدالة إلى نصابهما؟

يسعى هذا البحث إلى تتبع حضور الوعي التاريخي عند النورسي ورصد تحولاته من جهة، ومن جهة ثانية الكشف عن تمثلاته للتاريخ وأدواته التفسيرية لحركية المجتمعات البشرية. لتحقيق ذلك نقترح تقسيم الموضوع إلى ثلاثة عناصر:

١- في حضور الوعي التاريخي عند النورسي.
٢- في مستويات التمثل التاريخي عند النورسي.
٣- في تفسير التاريخ عند النورسي.

I- في حضور الوعي التاريخي عند النورسي:

نستطيع القول إن عصر النورسي يمثل بحق ذروة دركات الانحطاط التي بلغها العالم الإسلامي عبر تاريخه الطويل، فبالرغم من الهزائم الكثيرة التي مني بها المسلمون في المشرق أو المغرب والأندلس... فإن هزائم القرنين التاسع عشر والعشرين رافقها غزو فكري كثيف للحضارة المتغلبة التي أثبتت غلبتها بتفوقها المادي، وسعت للهيمنة على كل المعمورة، فنتج عن ذلك انبهار غير مسبوق لكثير من أبناء المسلمين بالمدنية الغربية.

نشأ النورسي في شرقي الأناضول داخل مجتمع كردي متشبث بإسلامه وتقاليده. كانت أسرته بسيطة، وكان أبوه رجلا صوفيا مقبلا على العبادة وأعمال الفلاحة. تلقى تعليمه في المدارس الدينية بهذه المنطقة. ولم تكن هذه المدارس تتيح لطلابها أكثر

من العلوم الدينية واللغوية التقليدية المعزولة تماما عن الواقع المعيش. كان النورسي شديد الذكاء، ملّكه الله ذاكرة قل نظيرها في الحفظ والفهم. ولم يكن ليقنع بهذا التعليم، لأنّه لم يكن في مستوى طلعات الأمة، فسعى بإرادته الفردية للمشاركة في العلوم ''الدنيوية'' الجديدة منها والقديمة. ''إنّ كمّ الكتب الهائل الذي قرأه سعيد، وحفظه عن ظهر قلب، واستوعبه خلال تلك الفترة القصيرة، قد أظهر قدرته الفائقة على الحفظ، وذكاءه وفهمه غير العاديين. وكان عمره آنذاك أربعة أو خمسة عشر عاما''.[4] وفي هذه الفترة أعجب به الملا فتح الله أفندي في ''سعرد'' وقربه منه ومنحه اسم ''بديع الزمان''[5] تيمّنا ببديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات.

كانت وضعية مسلمي شرقي الأناضول في حرج كبير، فبالإضافة إلى حركة الدعوة الشيعية في المنطقة،[6] كان هناك عاملان مهمان'' نشاط الإرساليات التبشيرية والقضية الأرمينية... ومن المؤكد أن هذه الأحداث أثرت بعنف في وعيه ''النورسي''، وكانت قوة مؤثرة ودافعة له''.[7] وإذا كانت هذه العوامل وفرت الأرضية للقوى الأوربية لزيادة الضغط على العثمانيين، فإن ''الإحباط والإحساس بالضعف اللذين انعكسا على الإسلام، كان حافزا دائما لحث سعيد الصغير الطموح على السعي في جهوده من أجل بث روح الحياة مرة أخرى في الإسلام''.[8]

غير أن ''اليقظة السياسية'' لم تتحقق للنورسي إلا بعد أن التحق بـ ''ماردين''. فهناك التقى بعض الشخصيات التي تحمل أفكارا سياسية واجتماعية وجدت استجابة فطرية لديه، فتلقاها بكل جدية وحزم. جاء في سيرة النورسي: ''وفي هذه الأثناء التقى طالبين، أحدهما من طلاب السيد الأفغاني والآخر من منتسبي الطريقة السنوسية. فاطلع بواسطتهما على منهج السيد جمال الدين الأفغاني والطريقة السنوسية''.[9] ويقوم هذا المنهج على إنشاء اتحاد إسلامي وبعث الحضارة الإسلامية عن طريق تطوير مناهج التعليم وإقامة نظام دستوري يقطع مع الاستبداد. وفي ذات السياق فإن لقاءه بماردين مع الشاعر نامق كمال[10] بلورت لديه أفكاره السياسية الجديدة القائمة على ''المسلك المعتدل القويم في السياسة''. لقد ''كانت الفترة التي قضاها الملا سعيد في ''ماردين'' هي المرة الأولى التي أدرك فيها حقيقة الصراع من أجل الحرية، كما أدرك مفهوم الحكومة الدستورية التي طالما حلم بها العثمانيون الجدد''.[11]

استفاد النورسي في مدينة ''وان'' من مكتبة طاهر باشا واعتكف على مطالعة الصحف والدوريات وكتب العلوم الحديثة المختلفة.[12] وكان التاريخ، سواء القديم أو المعاصر، ضمن العلوم التي أثارت انتباهه، ولا نعدم الحجة إذا زعمنا أن هذه المطالعات المكثفة قد أخرجت النورسي من الدائرة الضيقة للعلوم اللغوية والدينية وفتحت مداركه على حركية المجتمعات البشرية وتدافعها عبر التاريخ الطويل.[13] وهناك أدرك الفروق المفزعة في التقدم المادي والعلمي والتقني بين الأمم الأوروبية والأمة الإسلامية، كما استوعب البون الشاسع بين ماضي هذه الأمة المجيد وحاضرها المهزوم المأزوم. دفعه هذا الوعي إلى التفكير في إصلاح التعليم كخطوة أساسية في طريق تحرر الأمة، فعمل على تأسيس مدرسة تستجيب لتطورات العصر وتحافظ على المقومات الدينية بإدماج العلوم الدينية مع العلوم الحديثة.[14] في هذه الفترة حدث انقلاب عميق في أفكار ونفسية النورسي، فأثناء إقامته بـ ''وان'' علم، من طاهر باشا، بالتصريح الحاقد لوزير المستعمرات البريطاني: ''مادام هذا القرءان بيد المسلمين فلن نحكمهم حكما حقيقيا، فلنسع إلى نزعه منهم''.[15] أحدث هذا التصريح ثورة عارمة أفكار النورسي. وعلم أن هناك مؤامرة دنيئة يحيكها الغرب المنتصر ضد القرءان الكريم، فأعلن: ''لأبرهنن للعالم بأن القرءان شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها''.[16]

تتيح هذه الواقعة إمكانيات كثيرة للقراءة والتأويل. فالوضع المأساوي الذي كانت تعيشه الإمبراطورية العثمانية، وتوالي الضربات الخارجية والداخلية على مقاومتها، كانت تستفز النورسي، وتوجه ذكاءه الحاد نحو مساءلة هذا الواقع المستجد. وكان احتكاكه مع ''العثمانيين الجدد'' قد أفاده كثيرا في فهم هذا الواقع. إلا أن هذه الحادثة أنضجت وعيه التاريخي، حيث استطاع تحديد ''الوجهة'' ومعرفة بؤرة الصراع المستقبلية، والهدف الخفي للهجمة الامبريالية الغربية. لقد كان الهدف إذن هو سلخ المسلمين من هويتهم وإبعادهم عن ''نقطة ارتكازهم'': القرءان الكريم. وهذا لا يعني أن النورسي لم يكن يعلم قيمة الوحي ومركزيته في توحيد الأمة وحفاظها على مقوماتها، ولكنه الآن أدرك أن هذا الكنز الرباني محل حرب مدمرة يستعمل فيها العدو كل الأسلحة المادية والمعنوية الممكنة.

وانطلاقا من ذلك نذر النورسي حياته للدفاع القرآن وتسخير علومه ومعارفه الكثيرة

لاستكشاف أسراره وإثبات حقائقه وتنبيه الناس إلى أنواره ومكنوناته. وشكّل هذا المسعى مشروعه الشخصي الذي عمل على تحقيقه طوال خمسة عقود من الزمن.

ظن النورسي في البداية أن تحقيق هذا المشروع يمر عبر المشاركة في الحياة السياسية والاجتماعية لإنقاذ الإمبراطورية من السقوط وذلك من خلال منظمة ''الاتحاد المحمدي''،[17] فشدّ رحاله إلى إسطنبول (١٩٠٧م). وهناك انخرط بحماسته المعهودة في النضال السياسي والاجتماعي. وظهرت عليه في هذه الفترة معالم الحماسة الشديدة في الدفاع عن ''المشروطية والحرية'' والترويج لهما في صفوف الأكراد بشرقي الأناضول.[18] وقد كان على قناعة راسخة بأن المشروطية هي الطريق لنشر الإسلام والحفاظ على إمبراطوريته وهي مسلك مهمٌ للتقدم والاتحاد.

انفتح الأستاذ في إسطنبول على الأفكار والتنظيمات السياسية. وكانت خيبته كبيرة عندما عاين استقطاب الأفكار المادية والمذاهب الإلحادية للشباب المسلم الذي لم يعد يقيم للدين ولا للأخلاق أي وزن. وتنبه إلى خطورة هذا التَحَوُّل فصرّح في محاورة مع الشيخ محمد بخيت أحد علماء الأزهر قائلا: ''إن الدولة العثمانية حُبْلَى بدولة أوروبية، كما أنّ أوربا حُبْلَى بالإسلام، ويوشك أن تلده يوما ما''.[19] ولتدارك حال الأمة المنبهرة بالتقدم الأوربي المتسارع في المعارف والمخترعات، شرع في بيان جواهر القرآن الكريم، وعجّل بكتابة تفسيره ''إشارات الإعجاز'' الذي تابع كتابته وهو في خنادق الجبهات الأمامية أثناء الحرب العالمية الأولى.

كان يؤمن بأن الإسلام والحضارة الإسلامية الحقّة ستكون لهما السيادة في المستقبل: ''إنّ المستقبل الذي لا حكم فيه إلا للعقل والعلم، سوف يسوده حكم القرآن الذي تستند أحكامه إلى العقل والمنطق والبرهان''.[20]

احتفى بهذه الفكرة الجديدة، ساعيا إلى استعادة القرآن الكريم حضوره في دفع العدوان الفكري والأدبي، ولكنّه في الوقت نفسه عايش بألم وحسرة شديدين الانقلاب المزلزل الذي قاده مصطفى كمال منشئ الجمهورية العلمانية. فاعتزل النورسي الحياة السياسية وخصّص جهده لكتابة رسائل النور بهدف إحياء الإيمان والدفاع عن القرآن الكريم ضد الفلسفات الإلحادية والضغط العلماني.

كتب النورسي عندما سئل عن سر اعتزاله السياسة قائلا: ''إن الحياة البشرية ما هي

إلا كركب وقافلة تمضي، ولقد رأيت بنور القرآن الكريم في هذا الزمان، أن طريق تلك القافلة الماضية أدت بهم إلى مستنقع آسن، فالبشرية تتعثر في سيرها فهي لا تكاد تقوم حتى تقع في أوحال ملوثة منتنة''. وأنوار القرآن هي الكفيلة بإخراجها منها. إن ''النور لا يقابل بالعداء قطعا، ولا ينفر منه إلا الشيطان الرجيم. ولذلك قلت: أعوذ بالله من الشيطان والسياسة لكي أحافظ على نور القرآن''.[21]

لم يكن اعتزاله للسياسة خوفا من المواجهة أو تهربا من تحمل المسؤولية. إنما كان نتاج وعيه التاريخي الثاقب. لقد أصبحت سيطرة التيار العلماني، تلميذ الثقافة الغربية، على مقاليد الأمور واضحة، وأصبح يملك مؤسسات الدولة بما تتيحه من إمكانيات هائلة للدعاية والتأثير. ومن ثمَّ فإنَّ المواجهة السياسية لهذا التيار لا شك ستكون نتيجتها محسومة لصالحه في ظل معطيات الواقع، وهذا بحسب النواميس السننية، ذلك أنّ التدخّل في مثل هذه الظروف سيفضي إلى الهزيمة المحققة.

كما أنّ هذه المواجهة ستكون وبالا على الأمة، ولذلك فإنّ ''الانسحاب'' إلى القواعد الخلفية هي استراتيجية للملمة الجراح وإعادة بناء الصفوف استعدادا للمعركة القادمة. ولم تكن هذه الاستراتيجية إلا إحياء الإيمان في القلوب وإظهار جواهر الإسلام وألماساته، وفضح الكفر والإلحاد بالحجج والبراهين العقلية والقلبية. من جهة أخرى فقد كان النورسي يرى أن اهتمامه بالمسائل السياسية والحركية الاجتماعية مشوّشا مرعبا على نقاوة الفكرة القرآنية، وتنزيلها على أرض الصراع السياسي البشري، فيصبح خطأ حامل الفكرة تخطيئا للفكرة نفسها.[22]

II- في مستويات التمثّل التاريخي عند النورسي:

يحضر التاريخ بكثافة في كتابات النورسي، ليس كأحداث ووقائع فقط، وإنما كزاوية نظر تتكامل مع الرؤية الشمولية للكون والحياة. لقد انبنى فكر النورسي على حقائق القرآن الكريم، فلا غرو أن تصطبغ رؤيته للتاريخ الإنساني بصبغة قرآنية، وفي هذا السياق نتساءل: كيف تمثّل النورسي التاريخ؟

يمكن تلمس مستويين اثنين لهذا التمثّل، ولكلّ مستوى نوع حضور متميّز عن الآخر في رسائل النور.

١- التاريخ المثال:

لا يعني التاريخ عند النورسي مجموعة متراكمة من الأحداث والوقائع ترتبط فيما بينها بروابط وأسباب مادية دون قصد أو غاية. بل إن التاريخ حركة بشرية عبر الزمن ترافقها يد المشيئة الإلهية التي تتدخل بوسائل مختلفة لمساعدة هذا الإنسان وتوجيهه نحو الهداية والخير. وتعد النبوة الرحمة الإلهية التي ما فتئ الله سبحانه يكلف بها من اصطفى من عباده لإضاءة مسيرة التاريخ الإنساني.

لب التاريخ وجوهره إذن هو بعثة الأنبياء. وتاريخ الأنبياء عامة وخاتمهم النبي محمد ﷺ خاصة، هو النموذج التاريخي الذي نسعى لإتباعه، والمعيار الذي نزن به الوقائع التاريخية.

نذر النورسي جزءا من رسائله لتأكيد حاجة البشرية إلى النبوة المطلقة، وإثبات حقائق وبراهين نبوة محمد ﷺ. إنّ تميّز الإنسان عن سائر الحيوانات جعل ''النبوة المطلقة في نوع البشر قطب بل مركز ومحور تدور عليه أحوال البشر''.[23] فالإنسان ميّال بطبعه للإفراط في رغباته وغرائزه، ولا يستطيع أن يدرك حقيقة العدالة بسبب ''اللاتناهية المغروزة فيه، وميله إلى التجاوز في طبيعته، وعدم تحدد قواه. وعدم انضباط آماله''. وبما أن خلق الكون والإنسان ليس عبثا، والله تعالى منزه عن العبث، فإن حكمة الله اقتضت عدم ترك الإنسانية في تيه وحيرة، من ثمّ تكفّل الله الرحيم بعباده بإرسال مرشدين لها من جنسها.

قال الأستاذ: ''إن النبوة التي هي قطب المصالح الكلية ومحورها ومعدن حياتها ضرورية لنوع البشر. فلو لم تكن النبوة لهلك النوع البشري''.[24] وإذا كان الأمر كذلك في النبوة المطلقة؛ فكيف سيكون في النبوة المخصوصة لمحمد ﷺ الذي ''هو أستاذ أبناء البشر في سن كمال البشر، ومنبع العلوم العالية في مدرسة جزيرة العرب ومعلمها''.[25] إنها بدءا ونهاية برهان من براهين وحدانية الله سبحانه.[26]

لا يقتصر النموذج التاريخي على الأنبياء فقط، بل يأتي بعدهم الصحابة الذين هم أفضل البشر بعد الأنبياء عليهم السلام. وهذه الأفضلية نالوها بفضل تربية النبي ﷺ ورعايته، فقد أحدث الرسول ﷺ ''تحوُّلاً عظيما في مجرى الحياة، سواء في المجتمع أو الفرد، وأبرز الخير والحق وأظهر نصاعتهما الباهرة، وكشف عن خبث الشر والباطل

وبيّن سماجتهما وقبحهما''.[27]

ويوضح النورسي ثلاثة أسباب من أسباب كثيرة جعلت جيل الصحابة جيلا فريدا لا يمكن أن يتكرر.

أولا: إن الصحبة النبوية إكسير عظيم، لها من التأثير الخارق ما يجعل الذين يتشرفون بها لدقيقة واحدة ينالون من أنوار الحقيقة ما لا يناله من يصرف سنين من عمره في السير والسلوك. ومن هذا السر نرى أنه لا يستطيع أن يرقى أعظم ولي من أولياء الله الصالحين إلى مرتبة صحابي كريم للرسول الأعظم ﷺ.

ثانيا: الصحابة الكرام هم في قمة الكمال الإنساني، فقد وُهبوا فطراً سليمة ومشاعر سامية، وشدوا أنظارهم إلى الذي تسنَّم ذروة الكمال والداعي إلى الخير والصدق والحق، بل هو المثال الأكمل والنموذج الأتم، ذلكم الرسول الكريم حبيب رب العالمين محمد ﷺ، فبذلوا كل ما وهبهم الله سبحانه من قوة للإنضواء تحت لوائه، بمقتضى سجيتهم الطاهرة وجبلتهم النقية.

ثالثا: سمو منزلة العاملين في دائرة النبوة وهم الصحابة الكرام الذين كانوا أقرب النجوم إلى تلك الشمس الساطعة. فلا يمكن اللحاق بهم في اجتهادهم وعبادتهم وجهادهم.

تأخذ هذه الفترة الزمنية إذن صبغة الأنموذج المحتذى والمثال المبتغى، والذي تحرص كل نفس مؤمنة على الاقتراب من دائرته. ''فالصحابة الكرام هم مؤسسو الإسلام، وجذور شجرة الإسلام المنيرة، وبداية الخطوط الأساسية لبناء الإسلام، وركيزة المجتمع الإسلامي وأئمته، وأقرب الناس إلى شمس النبوة المنيرة وسراج الحقيقة''.[28]

لم تبق الأوضاع على ما كانت عليه في عهد الصحابة الكرام البررة، ففقدت الدعوة ملامحها النبوية الكريمة، فتحوّلت تدريجياً بمرور الزمن حتى غطت اللطائف في نوم عميق، وغفلت المشاعر والحواس وانصرفت عن الحقائق ففقدت الأجيال اللاحقة شيئاً فشيئاً قدرتهم على استشعار حلاوة الكلمات الطيبة ومنعت من التسرب إلى قلوب المؤمنين، فغدت لديهم كالثمار الفاقدة لطراواتها ونضارتها، حتى لكأنها جفت ويبست ولم تعد تحمل لهم إلا نزراً يسيراً من خصائصها الطيّبة، لا تستخلص إلا بعد إعمال الذهن والتفكر العميق، وبذل الجهد وصرف الطاقة، لذا فالصحابي الجليل

الذي ينال مقاماً وفضيلة في أربعين دقيقة لا يناله غيره إلا في أربعين يوماً، بل في أربعين سنة، وذلك بفضل الصحبة النبوية الشريفة.[29]

٢- التاريخ العبرة:

ارتبط التاريخ في الثقافة الإسلامية بالعبرة والاعتبار، انسجاما مع الخطاب القرآني الذي أورد عددا من قصص الأنبياء والأقوام السابقة، بقصد ضرب الأمثال وأخذ العبر المناسبة. قال تعالى:﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَار﴾.

وتعني العبرة الحكمة الناتجة عن التفكّر في الحدث من حيث أسبابه ونتائجه. ثم اتّخاذ هذه الحكمة دليلا ونورا لخوض مجاهيل المستقبل.

يأخذ التاريخ عند النورسي، في المرتبة الثانية، هذه الصفة ''الاعتبارية''. إنه يحتوي من الحكم ومن الدروس ما يكفي لتعلُّم الأمة أصول التمييز بين الخير والشر، وبين العدل والظلم. والمتأمل في رسائل النور يجد استشهادات وأمثلة تاريخية كثيرة تندرج ضمن سياق الاعتبار والاستفادة من تجارب الأمم الماضية.

ولما كانت أسباب هزيمة المسلمين تتمثل في الابتعاد عن الدين وإهمال أركانه، ونشوء القومية البغيضة المؤدية إلى الفرقة، فإنّ العبر التاريخية التي يجب أن تنتبه الأمة إليها تدور حول قضيتين رئيستين: التشبث بالدين وإقامة فرائضه، والالتزام بالوحدة ونبذ كل عوامل الفرقة.

حسب النورسي فإن ''التاريخ يرينا أنه متى ما كان المسلمون متمسكين بدينهم فقد ترقوا بقدر تمسكهم بدينهم، بينما تدنوا كلما بدأ ضعف الدين يدب فيهم. بخلاف ما يحدث لأصحاب الأديان الأخرى، إذ متى ما تمسكوا بدينهم فقد أصبحوا كالوحوش الكاسرة، ومتى ماضعف لديهم الدين ترقوا في مضمار الحضارة''.[30] إنها خاصية أساسية تميزنا عن الغرب، فلا نقاس بهم.

التجارب التاريخية الإسلامية كلّها تؤكّد هذه الحقيقة. يستشف هذه المعاني المتأمل في تاريخ الأمة الاسلامية، فقد كانت قوية خلال قرونها الأولى، عندما كانت الدعوة متميّزة بإخلاص أفرادها، وكان التزام أهلها بالشريعة واسعا عاما، وعندما خَلَفَ

من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الإخلاص واتّبعوا الشهوات بدأت إرهاصات هزيمتهم الحضارية. وحال الأفراد لا يختلف عن حال الأمم والدول، فالدول الإسلامية التي تأسست على عمد الإصلاح الديني الراشد نظرا وتدبيرا انتصرت وبلغت أقصى الأطراف في فتوحاتها، وعندما دبّ في أوصالها الافتتان بالدنيا، فرّطت في أمر ربها، وجاءتها الهزائم تترى الواحدة بعد الأخرى.

العبرة الثانية التي عليها مدار نظرة النورسي للتاريخ هي مسألة القومية. يرفض النورسي التفسير القاصر لوقائع الفتنة الكبرى التي ترجع كلّ عللها إلى نفر قليل من اليهود، ويؤكّد على دور القومية في ذلك الانكسار التاريخي المفجع.

قال النورسي: ''إن الذي كان وراء حوادث الفتن ليس هو عدداً قليلاً من اليهود... إذ بدخول أقوام كثيرة متباينة إلى حظيرة الإسلام، تداخلت واختلطت تيارات متناقضة وغير متجانسة في باطنها مع عقيدة الإسلام. وبخاصة أولئك الذين أصيب غرورهم القومي بالضربات القوية من يد سيدنا عمر ﷺ. فكانوا يضمرون في نفوسهم الانتقام... لذا فقد كانوا يحملون إحساساً بالانتقام من خلافة الإسلام''.[31]

وأظهر بعضهم في السياق نفسه أنّ الصراع بين الإمام الحسين والأمويين هو صراع بين الدين وبين القومية. وقومية هذا شأنها تنبني بطبيعتها على أسس ظالمة عنصرية. ولذلك فهي تفرّق بدل أن توحّد. وإذا كان يمكن التمييز –حسب النورسي– بين قومية إيجابية تناصر الدين ''التعدد القومي في إطار الوحدة الاسلامية''، وبين قومية سلبية تعادي الدين، إلا أنّ الفكر القومي المنتشر حاليا هو الفكر السلبي الذي يثيره الأوربيون الماكرون حتى يمزقوا العالم الاسلامي ويسهل عليهم ابتلاعه.[32]

ظهرت طوال التاريخ أضرار كثيرة نجمت عن القومية السلبية: فقد خلط الأمويون شيئا من القومية في سياستهم فأسخطوا العالم الإسلامي وقامت فتن وبلايا بسبب سياسة قائمة على أساس الفرز القومي. ونتائج الأساس القومي للعلاقات بين المجتمعات وخيمة في المجتمعات الإنسانية قاطبة، وآثارها مرعبة مدمّرة، لا يمكن لعقال بسبب آثارها التدميرية مناصرتها، وأبرز مثال على ذلك في العصر الحديث الصراع القومي بين الفرنسيين والألمان، فقد نجمت عنه حوادث مريعة ودمار رهيب.

والخلاصة أنّ طريق التقدّم أمام المسلمين يمرّ عبر استفادتهم من أحداث التاريخ

وأخذ العبر المناسبة حتى لا نكرر الأخطاء نفسها، ونضيّع فرصة التأهُّل لنيل رحمات الله سبحانه.

III- في تفسير التاريخ عند النورسي:

١- غاية التاريخ:

إن فكرة غاية التاريخ، مستجلبة من سر نقل خَبَرِ من غَبَرَ لأجل استجلاب العِبَرِ، وهو المعنى المستفاد من سر القصص في القرآن الكريم، بل وقصة الحياة الإنسانية نفسها، ذلك أنّ صناعة التاريخ هي العلاقة السننية بين الدنيا بالآخرة، فبقدر الارتباط بالآخرة تصنع التاريخ، وهي التي تعطي ''معنى الوجود''، ومن هذا المفهوم المركزي صاغ النورسي رؤيته للتاريخ.

إنّ الله تعالى لم يخلق هذا الكون عبثا. ولما كان الإنسان هو مركز هذا الكون و ''ثمرته'' فإن وجوده وحركيته لهما معنى ومغزى. فحياة الإنسان هي اختبار وامتحان، وبعد موته يتلقى جزاءه إما خيرا أو غير ذلك.

إنّ إيماننا بحياة أخرى نفضي إليها بعد موتنا، وهي حياة أبدية خالدة لا نهاية لها، يضفي على التاريخ معنى. فلا تعود أحداث التاريخ أشتاتا لا ناظم لها، كما لا يعود الزمن التاريخي بلا هدف، بل إنّه زمن بدايته معروفة ونهايته معلومة. يبدأ هذا التاريخ منذ أراد الله خلق الإنسان وحقق إرادته بخلق آدم، وينتهي بيوم القيامة. وهو تاريخ لا يسير في طريق مستقيم نحو التقدّم كما يعتقد الوضعيون، بل هو صراع مستمر بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، بين العدل والظلم.

يستعمل النورسي كثيرا كلمة التقدّم، لكنّه لا يقصد المفهوم المادي الذي ينظر الى التقدّم كقيمة مطلقة تتحقّق بالضرورة مع مرور الزمن. يعني التقدّم تحقيق الانسان لحقيقة الاستخلاف في الأرض، وإقامة الشريعة. ومن ثمّ فإنّ مسيرة الإنسان تتأرجح بين التقدم وضده. وما تزعم المدنية الغربية لنفسها من تقدّم فهو على وجهين: جزء هو شر ووبال على الإنسانية كصناعة الأسلحة المدمّرة، والسفاهة الأخلاقية، والصراعات القومية. وجزء إيجابي يخدم الانسانية، هو في الأصل من تأثيرات الشرائع السماوية، كالنظام، والقانون، والشورى، والعدل...

إنّ التقدّم هنا لا يكفي نفسه بنفسه بل يحتاج لشيء متعال يقرر حقيقته. وليس هناك سوى الشريعة معيارا لمحاكمة حقيقته.

يعتبر النورسي أنّ غاية التاريخ إيجابية تتمثل في تحقيق الحرية والعدالة للإنسان: الحرية بالعبودية لله سبحانه. وانطلاقا من ذلك فإنّ المشروع الحضاري لكلّ الشرائع السماوية يسعى لبلوغ الحرية والعدالة، حيث هما شرطان لتحقق التكليف الشرعي. وبالرغم من قوة الباطل وجبروته، فإنّ التاريخ يسير في اتجاه ''التقدّم'' أي تحقيق الشريعة. ولذا فإنّ المستقبل يكون للإسلام لا لغيره.

٢- مراحل التاريخ:

جاء في كتاب صيقل الإسلام: ''وأقصد من أبناء الماضي أولا: القرون الأولى والوسطى لما قبل القرن العاشر لغير المسلمين. أما الأمة الإسلامية فهي خير أمة في القرون الثلاثة الأولى، وأمة فاضلة عامة إلى القرن الخامس، وما بعده حتى القرن الثاني عشر أعبّر عنه بالماضي. أما المستقبل فأعده ما بعد القرن الثاني عشر''.

يلخص هذا النص التحقيب الجديد الذي يقترحه النورسي للتاريخ. والملاحظ أنه تحقيب لا يراعي استمرارية الزمن وتواصله، بل ينبني على معايير إيمانية وأخلاقية وحضارية. وهو تحقيب يشمل ثلاث مراحل تارخية: الماضي –أمة الخيرية والأفضلية– المستقبل.

- رمزية الماضي:

يدخل ضمن الماضي تاريخ غير المسلمين وتاريخ المسلمين في عصور الانحطاط ''مابين القرنين الخامس والثاني عشر هجري''. ما الذي يجمع بين هذه الأزمنة والمجتمعات المختلفة؟

في الماضي ''كان السائد في الأغلب هو: القوة، والهوى، والطبائع، والميول، والأحاسيس، لذا فإنّ إحدى سيّئاته أنّه كان هناك في كلّ أمر من أموره –ولو بصورة عامة– تحكّم واستبداد... ومداخلة الالتزام والتعصب... والانحياز المانع عن كشف الحقيقة''.[33] يصبح الماضي هنا رمزا للمعصية والابتعاد عن الشريعة. فمتى ساد الباطل وتقهقر الحق فثمة الماضي.

رمزية أمة الخيرية والأفضلية:

تمثل القرون الثلاثة الأولى بعد النبوة فترة الخيرية بدلالة نص الحديث النبوي، ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ أنّه قال: ''خيرُ الناسِ قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: ثم يَتَخَلَّفُ من بَعْدِهِم خَلَفٌ تَسْبِقُ شهادةُ أحدهم يمينَه ويمينُه شهادتَه''. أسفل النموذج.

تُعَدُ هذه المرحلة التاريخية وحيدة في تاريخ الإنسانية، جمع الله فيها عددا هائلا من أهل الصلاح والخير، فقد ''كان المهيمن في خير القرون وعصور السلف الصالح هو الحق والبرهان والعقل والشورى، ولم يكن للشكوك والشبهات موضع''. أما بعد هذه القرون الثلاثة فقد تراجع التشبّث بالحق والعدل، إلاّ أنّ الأمة حافظت على مرتبة الأفضلية بما بقي فيها من صلاح وطاعات.

- رمزية المستقبل:

أدخل النورسي المستقبل ضمن التاريخ باعتباره مرحلة بالرغم من أنّها لم تأت بعد إلا أنّ حقيقتها أصبحت ماثلة أمامه معلومة لديه. المستقبل للإسلام هذه حقيقة كان يراها النورسي رأي العين. وقد تحقق له ذلك بالبراهين العقلية والكشوفات الرحمانية. ولا يمل من تكرار هذه الحقيقة وتقديم الحجج المقنعة خلال كل كتابته. ثم إنّ هذا المستقبل الموعود هو الامتداد الطبيعي لأمة الخيرية.

٣- التاريخ والقدر:

خصّص النورسي رسالة خاصة في القدر ''الكلمة السادسة والعشرون'' محاولا من خلالها بيان أسرار مسألة ''القدر الإلهي والجزء الاختياري''. ويرى أن ''المؤمن يعطي لله كلّ شيء، ويحيل إليه كلّ أمر... ولكي لا ينجو في النهاية من التكليف والمسؤولية يبرز أمامه الجزء الاختياري قائلاً له: أنت مسؤول، أنت مكلف''.[34]

إنّ القدر الإلهي يعني تصرّف الله في كلّ شيء، غير أنّه منزه عن القبح أو الظلم، فالله سبحانه لا يفعل إلا ما فيه خير الإنسان. إلاّ أنّ هذا الإنسان لا يفهم سر الحكمة الإلهية التي تظل كثيرا مخفية عن إدراكه.

وهذا لا يعني أنّ الإنسان مُسَيَّرٌ في أفعاله، كما لا يعني أنّ المجتمع البشري موجّه

في حركيّته التاريخية بشكل خارج عن اختياره، بل إنّه يملك المساحة الكافية للفعل التاريخي الحرّ القائم على الاختيار بين مسارات متعددة.

تقف رؤية النورسي للحدث التاريخي بين رؤيتين مفَرّطتين: النظرة الغيبية التي تغيّب الفعل البشري في حركة التاريخ وتجعل الأمر جبرية صارمة لا يملك الإنسان إلا أن يخضع لها، والنظرة المادية التي تغيّب القدر الإلهي وتلصق بالإنسان صفة الهيمنة والإنفراد بالتصرّف.

الحدث التاريخي من فعل الإنسان، لكنّ الله يفعل في الحدث التاريخ وفق قانون القدر الإلهي الموجود بوضوح في كل حادثة تاريخية. قال الأستاذ: "إنّه مهما كان الإنسان فاعلا ذا اختيار إلاّ أنّ المشيئة الإلهية هي الأصل، والقدر الالهي حاكم مهيمن والمشيئة الالهية ترد المشيئة الانسانية، بمضمون قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. الإنسان:٣٠

يترتب على ذلك أنّ كلّ حدث تاريخي هو حدث إيجابي مهما تبيّن لنا فيه من ألم أو مصائب. لأنّ كل حدث يحمل حكمة ورحمة ربانيتين تسعيان لإسعاد هذا الانسان وتطهيره من النقائص.

في جواب عن سؤال حول فاجعة الإمام الحسين ﷺ يقدّم النورسي قراءة عميقة لهذا الحدث التاريخي الذي يمكن عدّه حدثا مفصليا في انقسام الأمة الإسلامية. تبدأ القراءة بإبراز دور الفعل البشري، حيث أن المحيطين بالإمام –باستثناء المقرّبين– كان يوجّههم التعصّب القومي لا خدمة القضية. فجاء الخذلان من فساد النية. ثم ينتقل لاكتشاف الحكمة من زاوية القدر الالهي مبيّنا أنّ الله سبحانه كان يهيّئهم لتَسَنُّم سلطنة الأولياء المعنوية بدل السلطنة الدنيوية الفانية، فأراد أنْ يُطَهِّرَهُم من هذه الدنيا وما علق في قلوبهم منها. فكان هذا الحدث الذي نراه بأبصارنا الحاسرة مصيبة، فتحا وترقية في عالم الولاية.[35]

لم يكن النورسي غافلا عن الأسباب المادية الفاعلة في حركة التاريخ، إلاّ أنّه كان ينظر إليها كنواميس كونية متممة لخطة القدر. وتبرز التفسيرات المادية في كثير من الأحداث التاريخية التي أوردها النورسي. ويكفي أن نذكر هنا تفسيره لمعضلة العصر: رُقي أوربا وتخلّف المسلمين؟ حيث يُقَدِّم تحليلا يبرز قوة الفكر التاريخي عند

النورسي وقدرته على ربط الأسباب والعلل وفق منظور علمي دقيق.

يذكر الأستاذ أنّ التفاوت بين أوربا والعالم الإسلامي راجع لأسباب ملحوظة أهمها:

الوضع الفطري لأوروبا، ومنبع حياتها، فهي ضيقة، جميلة، تملك الحديد، متعرجة السواحل، تلتف فيها الأنهار والبحار، مناخها بارد. وهذا جعلها تستقطب ربع البشرية رغم أنّ مساحتها الصغيرة، ولكون إنتاج الأرض لا يستوعب تلك الحاجات التي تتزايد باستمرار، تصبح الحاجة إلى الاختراع والصناعة ضرورية، كما يغدو حب الاستطلاع والميل الى المعرفة بابا للعلم والتقدم.

ثم إن كثرة البحار والأنهار، تتيح التعارف وتطور التجارة، والتعاون والاشتراك في الاعمال، مثلما يحقق تلاحق الأفكار والمنافسة والتسابق. ونتج عن هذا التنافس صناعة الأسلحة التي أثقلت كفة أوربا.

ومن الأسباب الأخرى أيضا قوّة الكنيسة النصرانية، التي تُشَكِّلُ نقطة استناد قوية تُعَزِّزُ قوّة أبنائها المعنوية وتبعث فيهم الحياة.

أما من جهة المسلمين فإنّ ابتعادهم عن نقطة ارتكازهم وهي الإسلام والقرآن الكريم، وإشاحة وجههم عن قراءة كتاب الله المنظور ''نواميس الكون وقوانينه'' هي أسباب هزيمتهم.[36]

غير أنّ كلّ هذه العلل والقوانين –في نظر النورسي– لا تخرج عن فاعلية القدر الإلهي وحكمه، إنّ القدر يهيء المستقبل للإسلام. فالتقدّم الغربي ومستلزمات مدنيته أصبحت عبئا ثقيلا يعيق مسيرته، في حين أن العالم الاسلامي لا زال في طور شباب المدنية، لذا فإننا ''سنلحق بهم بل نسبقهم إنْ حالفنا التوفيق الالهي لأنّ حملهم ثقيل وحملنا خفيف''.[37]

خاتمة:

كان النورسي واحدا من مجددي المائة الرابعة عشرة. هيّأه الله تعالى لإنقاذ إيمان أمة كان دورها عظيما في نصرة الاسلام والدفاع عن حرماته، لكنّ مكر الاستعمار الشيطاني استطاع أن يغرّر بكثير من أبنائها ليقذفهم في حمأة الإلحاد وإنكار جواهر هذا الدين.

وقد استطاع النورسي، من خلال تجذّر إيمانه بحقيقة الإسلام، ووعيه بمتغيرات العصر وتحوّلاته العميقة أن يبلور مشروعا نفّذه بكل حزم وصبر بالرغم من جسامة المحن وعظم البلاء.

نعتقد أنّ توفيق الله وتأييده قد أحاط بشخصية لها وعي رصين بالتاريخ ونفاذ بصيرته لفهم التحولات السريعة التي كان يمر منها العالم عامة وبلاد المسلمين خاصة، استطاع بما وهبه الله من حدّة ذكاء ونفاذ بصيرة أنْ يقوم بهذا الدور العظيم في بعث أمة من موتها.

وفي سياق مواز فإن النورسي بلور ''فلسفة تاريخية'' تستمد من روح القرآن الكريم، وتستلهم دروسه الكثيرة. وقامت هذه الفلسفة على النظر إلى التاريخ كمجال لحركة الإنسان وإبداعه في ظل الرعاية الربانية المتمثلة في التوجيه والهداية عبر السلسلة النورانية للأنبياء والرسل، ومن ثمّ فإنّ هذا الإنسان يصلُح تاريخه كلّما اقترب من هذه الرحمة الالهية، ويُظلم مساره كلما غرق في الكفر وابتعد عن مصدر النور.

* * *

الهوامش:

[1] محمد أحمد بكور، باحث مسجل لنيل الدكتوراه في التاريخ المعاصر، طنجة، المغرب.

[2] النورسي، صيقل الإسلام، ص: ٦٤

[3] شكران واحدة، الإسلام في تركيا الحديث: بديع الزمان النورسي، ترجمة محمد فاضل، طبعة ٢٠٠٧. ص: ٤٥.

[4] شكران واحدة، ص: ٢٦. وتضيف الباحثة: ''كان النورسي يفهم أي كتاب يقرأه دون معونة أحد، وكان يقرأ في اليوم الواحد ما يقارب من مائتي صفحة أو يزيد من متون أمهات الكتب مع الفهم التام إلى حد أنه ما كان يسأل سؤالا عن أي علم كان إلا ويجيب عنه إجابة شافية''.٢٧.

[5] نفسه، ص: ٣١. سيرة ذاتية، ص: ٦٥.

[6] شكران، ص:٣٠.

[7] شكران، ص:٣٤. ''بنهاية القرن كانوا ''البروتستانت الامريكان'' قد أقاموا ما يقرب من أربعمائة مدرسة في جميع أنحاء الامبراطورية تتسع لأكثر من ثلاثين ألف طالب. ووفرت هذه الرساليات تعليما متميزا كان هدفه الرئيسي هو أن يعتنق الناس المسيحية... لقد دمرت هذه الارساليات التبشيرية الدولة العثمانية بشدة من عدة جهات، وكانت تمثل إحدى العقبات الرئيسية أمامها... وقامت هذه الرساليات بعمل الكثير، بالتعاون مع القوى العظمى خاصة روسيا وبريطانيا، لتأييد الحماس الوطني لإظهار القضية الأرمنية.'' ص:٣٥.

[8] شكران، ص: ٣٦. ''في تيللو رأى مناما دفعه أن يبدأ عمله كمصلح بين القبائل ورجل دين بشكل عام، حيث

رأى في المنام الشيخ عبد القادرالكيلاني وهو يخاطبه قائلا: ملا سعيد، اذهب إلى مصطفى باشا، رئيس عشيرة ميران''، وادعه الى الهداية والرشاد والاقلاع عن الظلم، وليقم الصلاة ويامر بالمعروف. واقتله ان لم يستجب''.

[9] سيرة، ص: ٥٨.

[10] محمد نامق كمال (١٨٤٠-١٨٨٨/ ١٢٥٦-١٣٠٦هـ) شاعر وكاتب تركي، أحد مؤسسي جمعية تركيا الفتاة. بث أفكاره من خلال مقالاته الصحفية المتعددة. كان متأثرا بأفكار الثورة الفرنسية، وكان يؤمن بحاكمية الأمة التي تتجلى مهمتها في حماية العدالة التي لا تتحقق الا من خلال الشريعة الاسلامية. انظر مقال ''الحاكمية عند المفكرين الأتراك''، بسطامي محمد سعيد خير، موقع المختار الاسلامي:
http://www.islamselect.com

[11] شكران، ص:٤٥.

[12] انتقل اليها على الأرجح ما بين عامي (١٨٩٥ و١٨٩٦م) عندما كان في التاسعة عشر أو العشرين من عمره. واحتضنه الوالي طاهر باشا الذي كان راعيا للعلم والتعلم، شغوفا بتتبع أخبار التطورات العلمية. كما كان يمتلك مكتبة ضخمة. واستمر في دعم بديع الزمان حتى وفاته عام ١٩١٣. شكران، ص: ٥٤.

[13] شكران، ص: ٤٨

[14] كان الهدف الرئيسي للملا سعيد هو انشاء جامعة في شرقي الاناضول... وقد أطلق على هذه الجامعة اسم ''مدرسة الزهراء'' على غرار جامعة الأزهر في القاهرة... ويتم بها تدريس العلوم الطبيعية جنبا الى جنب مع العلوم الدينية. شكران، ص: ٥٧.

[15] سيرة، ص:٦٥.

[16] نفسه، ص: ٦٦.

[17] كان النورسي يقصد بهذا الاسم اتحاد المسلمين تحت راية النبي محمد ﷺ. ورفض اتخاذ جمعية، أسست بإسطنبول، لهذا الاسم الذي هو ملك للأمة جمعاء. واحتلت فكرة الاتحاد الأولوية لدى النورسي... ومن خلال دراسة كتابات النورسي يتبين أنه ركز على الاتحاد على اختلاف مستوياته. وفي كل خطبه ونصائحه لأتباعه يحث النورسي على الاتحاد. شكران، ص.١٠٨

[18] انظر المحاكمات، ص: ٦٠.

[19] سيرة، ص: ٨٤، ملحق اميرداغ ٢، ص: ٣٨٦.

[20] صيقل، ص: ٤٩٥.

[21] المكتوب الثالث عشر، ص: ٥٨.

[22] صيقل، ص: ٣٦١.

[23] صيقل،١٣٨.

[24] نفسه، ١٤٠. ''فإذا قلت إننا نشاهد أن أحوال الملحدين أو ذوي الأديان المنحرفة تجري على وفق العدالة والانتظام. الجواب: إن تلك العدالة والانتظام انما نشأ بتذكير أهل الدين وارشاداتهم. فأسس العدالة والفضلية شيدها الانبياء عليهم السلام... ثم أخذ هؤلاء بالفضيلة وعملوا بها''.

[25] نفسه، ص: ١٤١.

[26] يذكر أربعة براهين على حقيقة ''لا إله إلا الله'': البرهان الأول هو محمد ﷺ. والثاني: هذا الكون وذلك الانسان الأكبر، ذلك الكتاب الكبير المنظور. الثالث هو القرءان الكريم. الرابع هو الوجدان الحي أو الفطرة الشاعرة الذي يمثل نقطة اتصال عالمي الغيب والشهادة. المثنوي العربي، ص: ٤٢١.

[27] الكلمات، ص:٥٧٣.

[28] الكلمات، ص:٥٨٠.

[29] الكلمات، ص:٥٧٦.

[30] صيقل الاسلام، ص: ٣٥١.

[31] المكتوب الخامس عشر، ص: ٦٤.
[32] المكتوب السادس والعشرون، ص: ٤١٤.
[33] صيقل الاسلام، ص: ٥٠.
[34] الكلمات، ص:٥٤١.
[35] المكتوبات، ص: ٦٩.
[36] صيقل الاسلام، ص: ٣٦٨.
[37] صيقل الاسلام، ص:٥١.

قواعد وضوابط في تفسير القرآن عند النورسي من خلال كتابه إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز

أ. د. مشعان سعود عبد[1]

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن العالم الرباني بديع الزمان سعيد النورسي، الذي له من المصنّفات والأعمال، ما يشهد له بالألمعية والتبصّر بأسئلة زمانه وقضايا أمته، فكانت له آراء سديدة ونظرات ثاقبة، استنبطها بغوصه العميق في معارف الوحي، مما يدل على أنّ هذا الرجل من نوع فريد قل أمثاله في هذه الأمة، وقد أقامه الله حجة في عصر انحطاط وتردي المسلمين، فاستعمله الله في حفظ نضارة هذا الدين وحيويته، وأفاض الله به على هذه الأمة بقوة دعوته وصدق رسالته، ما جعله قدوة بل مدرسة خرجت الآلاف بل الملايين، وهي اليوم شامخة، تتقدم بخطى حثيثة، وتتبوء مكانة سامقة بين أخواتها من العاملين في ساحة العمل للإسلام.

وكان من أهم أعماله العلمية وثقافته الرصينة رسائل النور، التي تنوعت موضوعاتها وعلاجاتها، مستمدة أصولها ومسالكها من فهم دقيق للإسلام، ومؤسسة مسالك تدبيرها من رسالة تثقيف الإنسانية بما يواجه به تقلبات العصر وأفكاره واتجاهاته.

وكان المنطلق الأكبر له هو القرآن الكريم الذي عاش أجواءه وظلاله مدى حياته، ولعل في كتابه ''إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز'' قواعد وضوابط لتفسير كتاب الله، أحببنا أن نقف عليها، وأن نبرزها للقراء والباحثين، لتكون لنا إحدى الشعاعات التي كان يطلقها لتنير الدرب لفهم كتاب الله، ضمن دعوة الرجوع إلى هذا المصدر

الذي قد أهمل ومالت الناس عنه مع أهميته، فأعرضت عن توجيهاته، وذهبت تتلمّس حلولا لفهم نفسها وأوضاعها من خارجه.

ودفعا لهذا الإعراض عن كتاب الله، أكّد الأستاذ في غير ما موضع من رسائل النور أنّ في القرآن كلّ ما يطلب، والإقبال عليه بإخلاص تنكشف الأسرار والكنوز بطريق لا تتصور وبغزارة لا حدّ لها، ويطلب ببركته قضاء حاجاته كلّها حتى الدنيوية منها ويحصل له مطلوبه.[2]

وبيّن مما سبقت الإشارة إليه أنّنا أمام عَلَمٍ جعل من القرآن أساس التصورات والتنزيل والتدبير، لهذا فالحاجة ماسة إلى معرفة مسالك تفسيره وتعامله مع القرآن الكريم، من هنا آثرت أن يكون عنوان البحث: ''قواعد وضوابط في تفسير القرآن عند النورسي''، ونظرا لسعة الموضوع اكتفيت في هذه العجالة الكتابة في الدراسة من خلال ''إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز''.

تحقيقا لما أشرت إليه قسّمت بحثي هذا إلى تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد فقد عرفت فيه بالكتاب، ولم أر داعيا إلى الحديث عن المؤلف لشهرته. وعرضت المبحث الأول نظرة الأستاذ للتفسير، والحاجة إليه وبيان الأساسيات العامة في القرآن موضع التفسير، وضمّنت المبحث الثاني بيان القواعد والضوابط التي يحتكم إليها في تفسير كتاب الله، والتي يجب على المفسر أن يكون عالما بها لكي لا ينحرف عن فهم

كتاب الله، ثم تناولت في المبحث الثالث قضية الإعجاز وتعريفه ووجوه الإعجاز، ثم عرجت على نظرية النظم التي فسر القرآن على أساسها وعرضت المفهوم العام والخطوط العريضة لها، ولم أدخل في تفاصيلها وجزئياتها ومراحلها وتطبيق هذا المنهج على تفسيره؛ لأنّه مقام لا تسعه هذه الصفحات القليلة.

سائلا المولى ﷻ أولا أن يرحم هذا العالم الرباني، ويجزيه عنا أفضل الجزاء، وأن يخلف على الأمة الإسلامية من يعوضها لأمر دينها، وأن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم، وأن يجنبني الزلل ويعصمني من الانحراف ويوفقني إلى سواء السبيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

تمهيد

التعريف بكتاب ''إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز'':

ينصب هذا الكتاب كما هو بيّن من عنوانه على إظهار الإعجاز في القرآن الكريم، والذي تبنى فيه الأستاذ بديع الزمان النورسي نظرية النظم المعروفة، وطبّقها تطبيقا حرفيا على ما تناوله في هذا الكتاب من تفسيره للآيات التي صب فيها جهده وأفرغ فيها وسعه، وكانت على قلتها خير شاهد ودليل إثبات ما كان يومئ به ويذهب إليه، بقوله: ''إن مقصدنا من هذه الإشارات تفسير جملة من رموز نظم القرآن، لأن الإعجاز يتجلى من نظمه، وما الإعجاز الزاهر إلا نقش النظم''.[3]

ولسنا في معرض الحديث عن هذه النظرية، وكيف تناولها، وتتبّع الفكرة فيها، فإن هذا مما تعجز عن استيعابها مقالة، بل أردنا الوقوف على هذا الجزء من التفسير لآخذ من خلال تفسيره البلاغي والنظمي القواعد والأسس في التفسير بصورة عامة، فقد أودع فيه كثيرا من علوم القرآن ومعارفه وأسس التفسير وضوابطه، لأنّ هذا الجزء له أهميته وقيمته العلمية، وقد كان يريد أن يؤلف تفسيرا كاملا في هذا الاتجاه، ولو استمر في عمله لبلغ عشرات المجلدات في ضوء ما قدمه في هذا الجزء من التفسير.[4]

وإذا كان هذا الكتاب الوحيد من حيث عنوانه خاصا بتفسير القرآن من وجهة إعجاز القرآن الكريم، فإن سائر رسائل النور لا تقل أهمية عن هذا الكتاب، فهي بالفعل تفسير حقيقي للقرآن الكريم، تفسير بمسلك خاص وبمقاصد محددة سلفا، لخصها في تثبيت وإثبات الحقائق الإيمانية في ظل وضع أراد المسيطرون عليه تجفيف منابع الدين من الصدور ومن السطور.

كان الأستاذ معتزا بكتاب ''إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز''، ويراه ''تحفة رائعة من تحف سعيد القديم بالرغم من أخطائه وذنوبه''،[5] وعدّه ''كفارة لذنوبه'' ويدعو ربه أن يبعث رجالا يستطيعون فهمه حق الفهم.

وقد كانت نيته تتجه إلى أن يكون هذا الجزء لتوضيح الإعجاز النظمي من وجوه إعجاز القرآن، بينما تكون الأجزاء الباقية كل واحد منها وقفا على سائر أوجه الإعجاز، كما كان يرى أن رسائله قد تضمنت كثيرا من حقائق التفسير، لو ضمت لأصبح تفسيرا بديعا جامعا للقرآن المعجز البيان.[6]

المبحث الأول: نظرته إلى التفسير

المطلب الأول: إيمانه بالتفسير الجماعي

نظرا لأهمية كتاب الله من حيث كونه جاء تشريعا عاما للناس كافة، يخاطب فيه الجميع بمختلف طبقاتهم، وفي كل العصور، فإنّه يرى أن الفهم الفردي لا يسعه ويعجز عن بلوغ غاياته، ولا يعطي تصورا كاملا شاملا لحقائقه؛ لذا يرى أن تجتمع جماعة كبيرة تشبه الإجماع، لتقوم بتفسير القرآن، ليكون ذلك أكثر حجية، وإن وجود علماء محققين يقومون بتفسير كتاب الله، يكون كفالة ضامنة للأمة، حتى يكون بذلك مصدر طمأنتها، وليكون أبعد عن الانحراف والزلل، ومثله مثل كثير من الأحكام التي تنظم من قبل جماعة لكي تكون مطردة، وترفع الفوضى الناشئة من فوضى الفكر التي تسمّت حرية، ولذا فهو يردد عبارة ''للكل حكم ليس لكل'' ويكون ذلك بمثابة شخص معنوي متولّد من امتزاج الأرواح وتساندها وتلاحق الأفكار، وتظافر القلوب وإخلاصها.

ولولا تخوّفه من بعض غيبيات القدر وتقلّب الأحوال وبخاصة ما كان يمر به في زمنه من تخاذل المسلمين في ظل الأوضاع المزرية التي عرفتها بلاد المسلمين وظهور علامات حرب عالمية، لما كان قيّد هذا التفسير، ولذا مع تقييده لهذا التفسير فهو لا يصرحه بعدّه تفسيرا كاملا للقرآن، وإنما ''نوع مأخذ لبعض وجوه التفسير''.[7]

إن هذا الاحتياط في التفسير له ما يبرره ويسوغه، حيث إن التفسير هو بيان مراد الله سبحانه، وهو أمر صعب المنال، ولولا تعين بيانه على العلماء لما أقدموا عليه، ولذا كان جلّة من السلف لا يفسّرون القرآن خوفا من أن يخطئوا مراد الله، أو أن يقولوا على الله ما لا يعلمون، وهي قضية تناولها العلماء قديما وحديثا، وأبدى بعضهم تخوفه من الزلل في كلام الله.

لذلك تراهم يضيفون في تعريف مصطلح التفسير عبارة: ''بيان مراد الله حسب الطاقة البشرية'' احتياطا وعذرا لهم في ذلك.[8]

من هنا كان الاهتمام بالتفسير الجماعي للقرآن الكريم، ذلك أنّ التفسير المستفاد بطريق الإجماع أبعد عن الخطأ، وأقرب إلى الصواب.

أما قول الأستاذ النورسي بأنّ ما كتبه ليس تفسيرا للقرآن، فيقصد من الناحية الفنية، ولهذا انتهى إلى أنّه نوع مأخذ لبعض وجوه التفسير، فهذا صحيح؛ لأنه ليس للقرآن وفهمه حد ينتهى إليه، كما قال سهل بن عبد الله التستري (ت ٢٨٣هـ): "لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه؛ لأنّه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنّه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه".[9]

المطلب الثاني: القرآن الكريم ومقاصده

أولا: تعريف القرآن الكريم في رسائل النور

عرض النورسي رحمه الله تعريف القرآن الكريم من خلال سؤال وجواب، ولم يقصد بجوابه التعريف العلمي أو التعريف بالحد، فمال عن التعريف وفق الصيغ الفنية المشهورة، وعدل عنه إلى تعريف ضمّنه أوصاف القرآن الكريم وأهدافه وغاياته ومحتوياته وعلومه ومواقف الناس منه.[10]

وكل ذلك من باب الرسوم وليس الحدود، ابتعد عن التعريف المشهور عن القرآن بأنه: كلام الله المتعبد بتلاوته المبدوء بالفاتحة المختتم بالناس، أو ما هو شبيه منه،[11] وأورد ما ركّز به على هداياته وهي الأمور العملية التي تحتاجها البشرية، ولا تقف عند الحد المعروف له المجرد من الروح والحركة والعمل والتفاعل.

ثانيا: مقاصد القرآن الكريم في رسائل النور

فقد بيّن أنّ المقاصد الأساسية من القرآن وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة.

وسبب حصرها في هذه الأربعة هي ما يشغل هذا الإنسان من أسئلة معروفة: من أين؟ وإلى أين؟ ما تصنعون؟ من سلطانكم؟ ومن خطيبكم؟

ثم قال: والمجيب على هذه الأسئلة الجواب الصحيح ليس إلاّ القرآن ذلك الكتاب، وأنّ هذه المقاصد الأربعة تتجلى في القرآن كله سورة سورة، وفي كلّ كلام، بل قد يرمز إليها في كلمة كلمة.[12]

المطلب الثالث: الحكمة من اختلاف المفسرين مع وضوح القرآن وبلاغته وهدايته

يرى النورسي رحمه الله أنّ هذه الاختلافات قد يكون الكل حقا بالنسبة إلى سامع

فسامع، إذ القرآن ما نزل لأهل عصر فقط، بل لأهل جميع الأعصار، ولا لطبقة واحدة، بل لجميع طبقات الإنسان، ولا لصنف فقط، بل لجميع أصناف البشر، ولكلّ فيه حصة ونصيب من الفهم.

ثم قال: فكم من أشياء تستحسنها فقط طائفة دون طائفة، وتستلذها طبقة ولا تتنزل إليها طبقة، فلأجل هذا السر والحكمة أكثر القرآن من حذف الخاص للتعميم ليقدّر كل مقتض ذوقه واستحسانه.

ثم قال: فإذاً يجوز أن تكون الوجوه بتمامها مرادة بشرط أن لا تردها العلوم العربية، ويشرط أن تستحسنها البلاغة، وبشرط أن يقبلها علم أصول مقاصد الشريعة.[13]

ولهذا أورد سؤالا عن هذه الاختلافات ومدى شرعيتها، فقال: إن قلت إن القرآن من الضروريات، وقد اختلف في معانيه؟ قيل لك: إنّ في كل كلام من القرآن ثلاث قضايا: إحداها: ''هذا كلام الله''، والثانية: ''معناه المراد حق''، وإنكار كل من هاتين كفر! والثالثة: معناه المراد هذا، فإنْ كان محكما أو مفسرا فالإيمان به واجب بعد الاطلاع والإنكار كفر، وإنْ كان ظاهرا أو نصا يحتمل معنى آخر، فالإنكار بناء على التأويل دون التشهد ليس يكفر.[14]

إذن فهو يرى جواز اختلاف المفسرين، ويرى مبدئيا قبول هذه الأقوال باعتبارها تلبي حاجة كل إنسان، أو كل عصر، وفي جميع الأحوال.

وهذا ما يفسر الأقوال المتعددة الواردة عن السلف في تفسير بعض الآيات، وهوما أطلق عليه ابن تيمية رحمه الله: ''أنه اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد''،[15] وقبول النورسي للاختلاف والتنوع المؤسسة على حاجة وطبيعة الإنسان وذوقه واستحسانه.

وأما ما وصفه من شروط لقبول هذه الاختلافات فهي شروط ضرورية ومهمة تمنع خروج الاختلافات عن الضوابط الأصولية حتى لا يدخل في كتاب الله الزيغ والانحراف، كما حصل لكثير ممن خرجوا على هذه القواعد، فكان تفسيرهم مصادما للقرآن وهدايته.

المطلب الرابع: القرآن يلبي فهم كل عصر بما يناسبه

القرآن هو الكتاب المعجز الخالد الذي أودع الله فيه من العلوم والأسرار الكثير،

عرض حقائق الخلقة وفنون الكائنات، على ما توصل إليه العلم الحديث والمكتشفات الإنسانية في شتى مجالات الحياة؟

يحرر ذلك النورسي بقاعدة استفادها من واقع الحياة وسننها التي بثها الله في مخلوقاته وهي "أنّ في شجرة العالم ميل الاستكمال، وتشعب منه في الإنسان ميل الترقي، وميل الترقي كالنواة، يحصل نشوؤه ونماؤه بواسطة التجارب الكثيرة، ويتشكّل ويتوسّع بواسطة تلاحق نتائج الأفكار، فيثمر فنونا مترتبة، بحيث لا ينعقد المتأخر إلا بعد تشكل المتقدم..."[16]

وبناء على هذه الحقائق والمقدمات المهمة والتي تعد عصارة فلسفة التاريخ، فإنه يرى لو أراد أحد تعليم فن أو تفهيم علم، وهو إنّما يتولّد بتجارب كثيرة، ودعا الناس إليه قبل هذا بعشرة عصور لا يفيد إلا تشويش أذهان الجمهور ووقوع في السفسطة والمغالطة، فلو قال القرآن: "يا أيها الناس انظروا إلى سكون الشمس وحركة الأرض، واجتماع مليون حيوان في قطرة، لتتصوروا عظمة الصانع" لأوقع الجمهور إما في التكذيب، وإما في المغالطة مع أنفسهم والمكابرة معها... وهذا مناف لمنهاج الإرشاد وروح البلاغة".[17]

وما ذهب إليه النورسي يؤيّده الواقع، حيث هناك مئات الآيات الكونية المبثوثة في القرآن لم تفسّر من قبل الرسول ﷺ ولا سأل عنها الصحابة؛ لأنّ الوصول إلى حقائق معاني تلك الآيات ليس من مهمة النبوة، وإنّما هو من مهمة العقل الإنساني يكتشف قوانين الوجود ويصل إلى معرفة تفاصيلها عبر المسيرة الحضارية البشرية الطويلة.[18]

كما يرى النورسي: أنّ المقصد الأصلي في القرآن إرشاد الجمهور إلى الأساسيات الأربعة التي ذكرناها التوحيد والنبوة والحشر والعدالة، فذكر الكائنات في القرآن إنّما هو تبعي واستطرادي، لأنّ القرآن ما أنزل لدراسة الجغرافيا وعلم العلل، بل ذكر الكائنات للاستدلال بالصفة الإلهية والنظام البديع على النظام الحقيقي جل جلاله.[19]

كما يؤكد هذه الحقيقة بقوله: إن المقصد من القرآن الكريم ليس درس تأريخ الخلقة بل نزل لتدريس معرفة الصانع.[20]

وهذه السعة في الخطاب القرآني جعلته يلبي أفهام الجميع، ويتّفق مع تطور الفكر البشري، واختلاف قابليات البشر، فالكلّ يفهم منه على قدر علمه وخاصيته، قال

النورسي: ''اعلم، أنك إذا تفكرت في وسعة خطابات القرآن الكريم ومعانيه ومراعاته لأفهام عامة الطبقات من أدنى العوام إلى أخص الخواص ترى أمرا عجيبا، مثلا من الناس من يفهم من 'سبع سموات' طبقات الهواء النسيمية، ومنهم من يفهم منه الكرات النسيمية المحيطة بأرضنا هذه وأخواتها ذوات ذوي الحياة، ومنهم من يفهم منه السيارات السبع المرئية للجمهور، ومنهم من يفهم من طبقات سبعة أثيرية في المنظومة الشمسية، ومنهم من يفهم منه سبع منظومات شمسية أولاها منظومة شمسنا هذه، ومنهم من يفهم منه انقسام الأثير في التشكل إلى طبقات سبعة، ومنهم من يرى جميع ما يرى مما زين بمصابيح الشموس والنجوم الثوابت سماء واحدة هي السماء الدنيا وفوقها ست سموات أخرى لا ترى، ومنهم من لا يرى انحصار سبع سموات في عالم الشهادة فقط، بل يتصورها في طبقات الخلقة في العوالم الدنيوية والأخروية الغيبية، فكل يستفيض بقدر استعداده من فيض القرآن ويأخذ حصته من مائدته فيشتمل على كل هذه المفاهيم''.[21]

بل إنّه يرى أنّ الإيجاز في القرآن الذي هو منشأ الإعجاز: لكون المخاطبين بالقرآن على طبقات متفاوتة، وفي عصور مختلفة، وبما أنّ البلاغة هي مطابقة مقتضى الحال، فلمراعاة هذه الطبقات واختلاف العصور ليستفيد كل نوع بما قُدِّر له من الفهم، فحذف الكثير للتعميم وللتوزيع، وأطلق الكثير للتشميل والتقسيم، وأرسل في كثير لتكثير الوجوه وتضمين الاحتمالات المستحسنة في نظر البلاغة والمقبولة عن السامع.[22]

وقد ذكر مثلا للإطلاقات التي تفهم التعميم قوله تعالى:﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾البَقَرَة:٥ فقال: ''إن مخاطب القرآن على طبقات مطالبهم مختلفة، فبعضهم يطلب الفوز من النار، وبعض إنما يقصد الفوز بالجنة، وبعض إنما يتحرى الرضا الإلهي، وبعض ما يحب إلا رؤية جماله... وهلم جرا... فأطلق هنا لتعم فائدة إحسانه فيجتني كل مشتهاه''.[23]

المبحث الثاني: القواعد التي تضبط فهم القرآن

المطلب الأول: المتشابهات والمجاز

يرى النورسي رحمه الله أنّ ورود المتشابهات والمجاز إنّما كان مراعاة لواقع

اختلاف البشر، فهم ليسوا على مستوى واحد في الفهم والاستقبال، لذا فإن خطابات القرآن تستجيب لجميع المستويات، يقرر هذا المعنى بقوله: ''إن حكمة المتشابهات وهي التنزلات الإلهية إلى عقول البشر؛ لتأنيس الأذهان وتفهيمها، كمن تكلم مع صبي بما يألفه ويأنس به، فإن الجمهور من الناس يجتنون معلوماتهم عن محسوساتهم، ولا ينظرون إلى الحقائق المحضة إلا في مرآة متخيلاتهم ومن جانب مألوفاتهم، وأيضا المقصود من الكلام إفادة المعنى، وهي لا تتم إلا بالتأثير في القلب والحس، وهو لا يحصل إلا بإلباس الحقيقة أسلوب مألوف المخاطب، وبه يستعد القلب للقبول.

ولذا فإن معنى الرحمن الرحيم وأمثالهما وتفسيرهما بمبادئهما محال في حقه تعالى، كرقة القلب، وإن أريد منها النهايات''.[24]

وهو يرى ''أنّ متشابهات القرآن عند أهل التحقيق نوع من التمثيلات العالية وأساليب لحقائق محضة ومعقولات صرفة؛ ولأن العوام لا يتلقون الحقائق في الأغلب إلا بصورة متخيلة ولا يفهمون المعقولات الصرفة إلا بأساليب تمثيلية لم يكن بدّ من المتشابهات، كـ ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾الأعراف:٥٤ لتأنيس أذهانهم ومراعاة أفهامهم''،[25] وهو ذات ما ذكره الإمام الرازي رحمه الله.[26]

وهو بهذا يذهب مذهب المؤولين الذين يرون تأويلها على ما يليق بجلاله تعالى، وهو مذهب الخلف ومذهب كثير من المتكلمين، ويميل كثير من العلماء والفقهاء والمحدثين إلى طريقة السلف وهو تفويض معناها إلى الله سبحانه، وهي مسألة طويلة خاض فيها البعض كثيرا فأنكر عليه، وأوغل آخرون في التأويل، ومال ثالث إلى المغالاة في التفويض حتى أخذ بالظاهر، والمسألة اجتهادية، وليست من الأمور القطعية اليقينية حتى يحكم فيها بكفر أو إيمان.[27]

المطلب الثاني: حكمة التكرار في القرآن

اهتم الأستاذ النورسي بمسألة التكرار في القرآن الكريم، ويجيب النورسي عن وجود أشياء مكررة كثيرا في القرآن الكريم الموجز مع أنه معجز، مثل البسملة و ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ﴾ و ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ وقصة موسى وأمثالها، مع أنّ التكرار ممل وينافي البلاغة، فقال: ''إن التكرار قد يمل لا مطلقا، بل قد يستحسن وقد يسأم، فكما أنّ في غذاء الإنسان ما هو قوت كلّما تكرّر حلا وكان آنس، وما هو تفكه إن تكرر مل، وإن

تجدد استلذ، كذلك في الكلام ما هو حقيقة وقوت وقوة للأفكار وغذاء للأرواح، كلما استعيد استحسن واستؤنس بمألوفه كضياء الشمس، وفيه ما هو من قبيل الزينة والتفكه، لذته في تجدد صورته وتلون لباسه''.

ثم يستطرد قائلا: ''هذا بناء على تسليم التكرار، وإلا فيجوز أن تكون قصة موسى مثلا مذكورة في كل مقام لوجه مناسب من الوجوه المشتملة هي عليها''.[28]

ثم وضّح ما في البسملة من معان وإيحاءات وأحكام على كل مورد ترد فيه تشير إلى بعض تلك المعاني والأحكام ومناسبة مخصوصة لهذه السورة أو فهرسة إجمالية على حسب الاعتبارات الواردة أو المقامات.

هذا، وقد ذكر العلماء كثيرا من فوائد التكرار في القرآن الكريم، منها التوكيد، ومنها زيادة التنبيه، ومنها إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد ثانيا تطرية له وتجديدا لعهده، أو للتهويل والتعظيم، أو للوعيد، أو للتعجب.

وأما ما أشار إليه في قصة موسى ﷺ، وأنّ لكل مقام ذكرت فيه إنّما ذكرت لوجه مناسب، فهو أمر حق بيّنه العلماء، وأكّدوا على أنّ كل موطن فيه زيادة ونقصان، وتقديم وتأخير تخالف نظيراتها من نوع زائد فيه، فيوقف عليه من المعاني دون غيرها.[29]

ولهذا نشأت عندنا كتب تختص بدراسة التكرار في القرآن الكريم، منها كتب أسرار التكرار، وملاك التأويل وغيرهما، وما كتب حديثا وهو كثير، لعل منها كتب الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، وكتب التعبير القرآني.[30]

المطلب الثالث: صيغة المضارع بدل صيغة الماضي

يرى الأستاذ أنّ مراعاة الأكثر في الواقع أوفى لحق البلاغة، فمثلا يرى ''في أساليب التنزيل كثيرا ما يبتلع الزمان الماضي المستقبل، ويتزيّ المضارع بزي الماضي، إذ فيه بلاغة لطيفة؛ لأنّ من سمع الماضي فيما لم يمض بالنسبة إليه اهتز ذهنه، وتيقظ أنه ليس وحده، وتذكر أن خلفه من الصفوف بمسافات، حتى كان العصور مدارج، والأجيال صفوف قاعدون خلفها، وتنبه أن الخطاب والنداء الموجه إليه بدرجة من الشدة والعلو يسمعه كل الأجيال، وهو خطبة إلهية تنصت لها كل الصفوف في كل

العصور، فالماضي حقيقة في الكثير من أكثر الأزمان، ومجاز في القليل في أقلها، ومراعاة الأكثر أوفى لحق البلاغة''.[31]

ذكر ما سبق نقله تعليقا على قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ...﴾ وبالنظر إلى صيغته الماضية مع أنّه لم يتم النزول إذ ذاك، إشارة إلى تحققه بمنزلة الواقع.

ولعل قوله هذا أولى من قول بعضهم: إن الذي يؤمن بما أنزل يستمر إيمانه بكل ما ينزل على الرسول، فالإيمان في المستقبل حاصل بفحوى الخطاب، فإيمانهم بما سينزل مراد من الكلام، كما ذهب إلى ذلك ابن عاشور ''محمد الطاهر''.[32]

ويقال في مثل: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ...﴾النحل:١ قال: أتى، جاءت بصيغة الماضي والمراد بها المستقبل، ''إن ذلك صحيح من جهة التأكيد، وإذا كان الخبر حقا فيؤكد المستقبل بأن يخرج في صيغة الماضي، أي كأنه لوضوحه والثقة به قد وقع، ويحسن ذلك في خبر الله لصدق وقوعه''.[33]

المطلب الرابع: المشترك ودلالته

يرى النورسي أن المشترك الذي تتعدد معانيه إنّما هو في الأغلب معناه واحد، ثم بالمناسبات وقع تشبيهات... ثم منها مجازات... ثم منها حقائق عرفية... ثم يتعدد حتى إن العين التي معناها الواحد البصر والمنهل تطلق على الشمس أيضا بالرمز إلى أن العالم العلوي ينظر إلى العالم السفلي بها، أو أن ماء الحياة الذي هو الضياء يسيل من ذلك المنبع في الجبل الأبيض المشرق... وقس على ذلك.

ولهذا، فهو يرى كما يرى سيبويه أن الحروف التي تتعدد معانيها كمن وإلى والباء وغيرها أصل المعنى فيها واحد لا يزول، لكن باعتبار المقام والظرف قد يتشرب معنى معلقا ويجذبه إلى جوفه، فيصير المعنى الأصلي صورة وأسلوبا لمسافره.[34]

وهذا التفسير للمشترك يحل كثيرا من الخلافات التي تجري في المشترك، أيحمل على معنى واحد أم على جميع معانيه؟ وهل أن الأصل المعنى الفلاني أو الفلاني؟ وأسباب وجود المشترك؟[35] وغير ذلك، إنّه يتّفق مع كثير من العلماء والمحققين في القول بأنّ المعاني المختلفة للفظ الواحد إنّما لها جامع يجمعها ومعنى واحدا تنطلق منه، وممن نحا هذا المذهب ابن فارس (٣٩٢هـ) في كتابه ''مقاييس اللغة''[36] وكذلك

من كان قد تناول الوجوه والنظائر فحاول أن يرجع اختلافات معاني كل كلمة إلى أصل يجمعها كالحكيم الترمذي (٣٢٦هـ) في ''تحصيل الوجوه والنظائر''.

كما أن قضية الحروف ومعانيها الأصلية وغيرها جديرة بدراسة وافية، فلكلّ أداة في القرآن خاصية تكشف عن عادة القرآن في استخدامه لهذه الحروف، لأن كثيرا من المعاني تتوقف على معاني الحروف ودلالتها.[37]

المطلب الخامس: تترك الحقيقة لوضوح المجاز أو التشبيه

من المعلوم أن حمل الكلام على حقيقته أولى وأوجب ما لم يكن هناك داع إلى استخدام المجاز أو التشبيه، والمجاز واقع في الكتاب العزيز وقوعا كثيرا، والإنكار لهذا الوقوع إنكار لبعض وجوه البلاغة،[38] لأنّ حمل بعض الكلام على حقيقته قد ينافي الواقع.

ويمثّل النورسي لذلك: بما وقع لبعض المفسرين في تفسير السماء من قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾[البقرة:١٩] وقوله: ﴿يُنزلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ فقال: فنظر البلاغة لا يرى عليه سكة الحقيقة، بل المعنى من جهة السماء والتقييد لما عرفت، وقد قيل السماء ما علاك، فالسحاب كالهواء سماء.

ثم أخذ يبيّن كيفية تكوّن السحب من بخار المياه في الأرض حتى تصعد فتكون سحابا ثم يشتد تكاثفها فتصير قطرات فتنزل على الأرض مطرا.

ثم بيّن سبب خطأ بعضهم في قولهم بوجود بحر سماوي منه ينزل الماء هو من قبيل تصور المجاز حقيقة، وأنّ الجمهور على الظاهر مع التوقّد في الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾[النور:٤٣] إنما هو جمود بارد وخمود ظاهر، فإنّ فيها استعارة بديعة عجيبة مستملحة، مؤسسة على خيال شعري بالنظر إلى السامع، وهو مبني على ملاحظة المشابهة والمماثلة بين تمثل العالم العلوي وتشكل العالم السفلي، ولهذا استحسن أسلوب العرب تشبيه السحاب بالجبال والسفن والبساتين وقافلة الإبل، فيرى السحاب متوضعا على الجبل ويصير الجبل كأنه مرسى لسفن السحاب ترسي عليه.

فوجود هذه المناسبات في كلام العرب وخيالاتهم تجعل من ''السماء'' أي من جهته، و ''من جبال'' أي من سحاب كالجبال، و ''من برد'' أي في لونه ورطوبته

وبرودته ثم يلوم القائلين بالحقيقة ''ما أجبرك على وجود هذا التأويل الذي تقبله البلاغة على اعتقاد نزول المطر بدقيقتين من مسافة خمس مائة سنة المخالف لحكمة الله الذي أتقن كل شيء صنعا''.[39]

المبحث الثالث: ماهية الإعجاز عند النورسي

إنّ القرآن الكريم جاء لمقاصد كثيرة، منها إثبات نبوة محمد ﷺ بأكمل معجزاته الذي هو التحدي بإعجاز القرآن الكريم، أي أن دلائل نبوته كثيرة في القرآن، وأهمّها إعجاز القرآن، المعجزة المتحدى بها، وقد أقام دلائل كثيرة على ذلك، استغرقت صفحات عديدة من خلال النصوص العامة، ومن إيحاءات الخطابات والقصص ومن واقع النبي ﷺ وتأثيره في أمة أمية فقلبها إلى أمة حضارة وعلم وفكر...[40]

كذلك بيّن أنّ الشريعة الإسلامية مبنية ومؤسسة على البرهان العقلي، ملخصه من علوم وفنون تضمنت جميع أنواع العلوم الأساسية التي تحتاجها البشرية، من فن تهذيب الروح، وعلم رياضة القلب، وعلم تربية الوجدان، وفن تدبير الجسد، وفن سياسية المدنية، والحقوق علم المعاملات والآداب.

وكلّ هذه العلوم أو بعضها بقيت بالرغم من تلاحق الأفكار وتوسّع نتائجها، فإنّها تدفعنا إلى الاعتقاد بأن حقيقة هذه الشريعة خارجة عن طاقة البشر دائما، لاسيما في ذلك الزمان.[41]

وخاصة إذا تصورنا أنها ولدت في صحراء شاسعة مترامية الأطراف، لا معين فيها لهذا الإنسان، كما لم تكن له سلطة يبارز الدنيا بها، ثم إنّ الله قد أَيّد نبيّه ﷺ بمعجزات كثيرة منها إرهاصات من حين ولادته، ومنها بعدها، وقد تكون خوارق غيبية كبيرة، أو خوارق حسية كانشقاق القمر وغيره.[42]

انتقل بعدها إلى دراسة بعض وجوه إعجازه، فتوقف عند الآية: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ...﴾ فقال بعد إثبات التوحيد تثبت نبوة محمد عه السلام، الذي هو من أظهر دلائل التوحيد، ثم إن إثبات النبوة بالمعجزات وأعظم المعجزات هو القرآن الكريم، وأدق وجوه إعجاز القرآن ما في ''بلاغة نظمه''.

ثم بيّن أنّ المحققين اختلفوا في طرق الإعجاز، لكن لا تزاحم بين تلك الطرق، بل

كل اختار جهة من جهاته، فعند بعض إعجازه إخباره بالغيوب، وعند بعض جمعه للحقائق والعلوم، وعند بعض سلامته من التخالف والتناقض، وعند بعض غرابة أسلوبه وبديعيته في مقاطع ومبادئ الآيات والسور، وعند بعض ظهوره من أمي لم يقرأ ولم يكتب، وعند بعض بلوغ بلاغة نظمه إلى درجة خارجة عن طوق البشر... إلخ.[43]

ولذا، فإن ملخص الإعجاز هو ما جاء في معنى الآية السابقة ''إن كنتم في ريب أنه كلام الله يجب عليكم أن تتعلموا إعجازه، فإن المعجز لا يكون كلام البشر، ومحمد ﷺ بشر، وإن أردتم ظهور إعجازه فجربوا أنفسكم ليظهر عجزكم فيجب عليكم التشبث بإتيان سورة من مثله'' ثم قال: ''فللّه در التنزيل ما أوجزه وما أعجزه''.[44]

ولذا قال الأستاذ: إن معرفة هذا النوع من الإعجاز تفصيلا إنما تحصل بمطالعة أمثال هذا التفسير أي تفسير ''إشارات الإيجاز''.

ثم قال: إما إجمالا فيعرف بثلاث طرق كما حققها عبد القاهر الجرجاني شيخ البلاغة، والزمخشري والسكاكي والجاحظ، وهذه الطرق نلخصها فيما يأتي:

١- إن العرب كان ديوانهم الشعر وعلمهم البلاغة ومفاخرتهم بالفصاحة، فلما طلع عليهم القرآن ببلاغة بهرتهم، وما عارضوه، مع شدّة تحدّي النبي ﷺ وتسفيه أحلامهم، فلولا أنهم أرادوا وجربوا أنفسهم فأحسوا بالعجز فسكتوا عن المعارضة، فعجزهم دليل إعجاز القرآن.

٢- إنّ الذين يعرفون خواص الكلام ومزاياه لما تأملوا في سوره سورة سورة، وآية آية، شهدوا أنه جامع لمزايا لا تجتمع لبشر، فهؤلاء كثر، كما أنّ القرآن أحدث تحوّلا عظيما وديانة واسعة.

٣- إنّ الفصحاء والبلغاء مع شدّة احتياجهم إلى إبطال دعوى النبي ﷺ تركوا المعارضة وهو الطريق الأقرب والأسلم، ولجأوا إلى المقارعة بالسيوف وهو طريق صعب، فلولا أنّهم قد أحسُّوا بالعجز ما سلكوا الطريق الثاني وتركوا الطريق الأول.[45]

ثم بيّن أنّه على مرّ التاريخ لم يظهر من عارضه، ولو وجد لتناقل الناس ذلك، وما نقل عن مسيلمة الكذاب فهو مسخرة وأضحوكة.

ولذا يرى النورسي رحمه الله أن الإعجاز إنما هو ''نظم المعاني دون نظم الألفاظ'' وهو عبارة عن توخي المعاني النحوية فيما بين الكلمات، أي إذابة المعاني الحرفية بين الكلم لتحصيل النقوش، ونظم المعاني هو الذي يشيد بقوانين المنطق، وأسلوب المنطق هو الذي يتسلسل به الفكر إلى الحقائق، والفكر الواصل إلى الحقائق هو الذي ينفذ في دقائق الماهيات ونسبها، ثم يربط بينه وبين الكائنات في انتظامها، ويقول: إن الكائنات قد أنشأها وأنشرها صانعها فصيحة بليغة، فكل صورة وكل نوع منها بالنظام المندمج فيه معجزة من معجزات القدرة، فالكلام إذا حذا حذو الواقع وطابق نظمه نظامه حاز الجزالة بحذافيرها، وإلا فإن توجه إلى نظم اللفظ وقع في التصنع والرياء، كأنه يقع في أرض يابسة وسراب خادع.[46]

الخاتمة

بعد هذه الجولة السريعة في كشف معالم التفسير وبيان أصوله وقواعده عند الإمام النورسي رحمه الله، توضحت لنا حقائق عدة، عن مكانة هذا الرجل، وقدمه الراسخة في علم التفسير، وأهم معالم هذه الجولة:

أولا: إن بديع الزمان كان عالما بكتاب الله تعالى، مطلعا على معانيه، هاضما لحقائقه، إنه يصح أن يكون في زمرة المفسرين الأوائل، وممن له إسهامات وإبداعات في تجلية مراد الله سبحانه، لم يكن ناقلا فحسب، بل هو غائر على صدفه وجواهره.

ثانيا: إن نظراته في التفسير لم تكن تقليدية، وإنما كانت من صميم الواقع حاضرة مع الزمن وتطوره، ولم يكن بعيدا عن علوم عصره وثقافة الوقت.

ثالثا: نظرا لسعة أفقه وانفتاحه على العلوم الأخرى، فقد وضع قواعد وأصول هذا العلم في هذا الكتيب الصغير، وجعلها مرجعا لمن أراد الخوض في علم التفسير.

رابعا: كانت نظرية النظم التي نادى بها كبار علماء البلاغة والبيان هي الأساس والمنطلق لإعجاز القرآن الكريم، وأخذ بتطبيقها في سورة الفاتحة وجزء من سورة البقرة، ليثبت صحة دعواه، ولذلك طال نفسه في كثير من المواطن التي أظهر فيها ترابط أجزاء القرآن بآياته وجمله وكلماته.

ولم أكن لأتوسع في إعجاز القرآن، وقصرت ما كتبت على قواعد التفسير وأسسه

لأضعها أمام الباحثين والمعنيين بهذا العلم... نسأل الله أن يرحم عالمنا وأن يجزيه عنا خير الجزاء، لما قدم من خدمة لكتاب الله وللإسلام والمسلمين.

* * *

المصادر

١- الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٨م.

٢- إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول: محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) دار الفكر، بيروت، ط٧، ١٩٩٧م.

٣- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: بديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، مطبعة الخلود، بغداد، ط١، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

٤- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٥- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، د.ت.

٦- تطور تفسير القرآن: د. محسن عبد الحميد، بيت الحكمة، جامعة بغداد، ١٩٨٩م.

٧- التفسير القرآني: د. فاضل صالح السامرائي، بيت الحكمة، جامعة بغداد، ١٩٨٦م.

٨- الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت.

٩- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

١٠- العقيدة الإسلامية ومذاهبها: د. قحطان عبد الرحمن، كتاب ناشرون، لبنان، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

١١- قراءات في فكر سعيد النورسي –السنة النبوية: أديب إبراهيم الدباغ، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، مطبعة الشعب، بغداد، ط١، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

١٢- الكشاف: جار الله محمود الزمخشري (ت ٥٤٨هـ) دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٤٧م.

١٣- محاكمات عقلية في التفسير والبلاغة والعقيدة: بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، مطبعة المنير، بغداد، ط١، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

١٤- المحرر الوجيز: محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، وزارة الأوقاف، دولة قطر، ط٢، ٢٠٠٧م.

١٥- مقدمة في أصول التفسير: ابن تيمية الحراني الدمشقي، تحقيق محمود نصار، مكتبة التراث الإسلامي، د.ت.

١٦- مناهل العرفان: محمد عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية، د.ت.

الموافقات: أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) دار الفكر، بيروت، د.ت.

* * *

الهوامش:

[1] أستاذ التفسير في كلية الإمام الأعظم الجامعة ورئيس قسم أصول الدين/ الفلوجة، العراق

[2] ينظر: كتاب السنة النبوية، قراءات في فكر سعيد النورسي، لأديب إبراهيم الدباغ: ١٣ – ١٤.

[3] الإشارات: ٢٩.

[4] ينظر: مقدمة الكتاب للدكتور محسن عبد الحميد: ٦.

[5]- الإشارات: ٢١ – ٢٢.

[6]- ينظر: الإشارات: ٢٢.

[7] الإشارات: ٢٦.

[8] ينظر في ذلك: الموافقات للشاطبي: ٣/ ٢٥٧، والبرهان: ١/ ٢٩.

[9] البرهان: ١/ ٢٩ – ٣٠.

[10] ينظر: الإشارات: ٢٨.

[11] ينظر بعض التعريفات: إرشاد الفحول للشوكاني: ٦٢.

[12] الإشارات: ٢٩ – ٣٠.

[13] الإشارات: ٦٢ – ٦٣، وينظر أيضا: ٦٩.

[14] الإشارات: ٩٢.

[15] مقدمة في التفسير: ٤٨.

[16] الإشارات: ٢٢٠ – ٢٢١ بتصرف يسير، وينظر: محاكمات عقلية: ٢٥.

[17] ينظر: الإشارات: ٢٢١ بتصرف.

[18] ينظر: تطور التفسير للدكتور محسن عبد الحميد: ١٩.

[19] الإشارات: ٢٢٢.

[20] الإشارات: ٢٨٥.

[21] الإشارات: ٢٨٧ – ٢٨٨.

[22] الإشارات: ٦٩.

[23] الإشارات: ٨٩.

[24] الإشارات: ٣٣، ٢١٩، ومحاكمات عقلية: ٦٥.

[25] الإشارات: ١٤٨، ٢١٩.

[26] ينظر: مناهل العرفان: ٢/ ١٧٩.

[27] ينظر: الإتقان: ٣/ ١٣ وما بعدها، مناهل العرفان: ٢/ ١٨٣، العقيدة الإسلامية ومذاهبها، د. قحطان الدوري: ٣٥٣.

[28] الإشارات: ٥٠.

[29] ينظر: البرهان: ٣/ ١٢ وما بعدها.

[30] ينظر: التعبير القرآني، للدكتور فاضل السامرائي: المقدمة وما يليها.

[31] الإشارات: ٧١.

[32] ينظر: التحرير والتنوير: ١/ ٢٣٨.

[33] المحرر الوجيز لابن عطية: ٣/ ٣٧٧.

[34] الإشارات: ١٥٥.

[35] ينظر: إرشاد الفحول للشوكاني: ٤٥ وما بعدها.

[36] ينظر: مقاييس اللغة: ١/ ٣.

[37] ينظر: التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل، د. زيد عمر العيص: ٥٥٥.

[38] ينظر ذلك في كتب الأصوليين، منها على سبيل المثال لا الحصر: إرشاد الفحول: ٥١ وما بعدها.
[39] ينظر هذا المثال ص: ١٧١ – ١٧٤ باختصار من كتابه الإشارات.
[40] ينظر: الإشارات: ٢٠٧ – ٢١٤.
[41] الإشارات: ٢١٥ – ٢١٦.
[42] الإشارات: ٢٢٣ – ٢٢٥.
[43] ينظر: الإشارات: ٢٢٦، وينظر: تفسير القرطبي: ١/ ٧٣، والبرهان: ٢/ ١٠٦ – ١٠٧، والإتقان: ٤/ ١٥.
[44] الإشارات: ٢٣٠.
[45] ينظر: الإشارات: ٢٢٦ – ٢٢٨، والإتقان: ٤/ ٥، وإعجاز القرآن للباقلاني: ٣٧.
[46] ينظر: الإشارات: ١٤٩، وينظر: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني: ٢٨٢.

الحوار والإصدارات والمؤتمرات

حوار مع د. مأمون فريز جرار

دأبت مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية على استضافة أعلام الفكر والأدب والدراسات الحضارية شرقا وغربا، وتأكيدا منها على التنوّع المعرفي والمنهجي، واستثمارا لتنوّع الروافد الفكرية للمحاوَرين، وإيمانا منها بتعدد مسالك التعرّف على رسائل النور، استضافت المجلة لقرائها الكرام أحد أعلام الأدب في البلاد العربية والإسلامية، ورائدا من رواد الأدب الإسلامي، الكاتب الأكاديمي الدكتور مأمون فريز جرار حفظه الله ورعاه ونفع به.

جرت العادة أن نستهل الحوار بالتعرّف على الضيف، فمن هو مأمون فريز جرار؟

بداية أشكركم على التفضل بإجراء هذا الحوار معي، سائلا الله تعالى أن يوفقنا جميعا إلى ما يحب ويرضى، وأن يجعلنا طلاب نور صادقين.

ولدت في غرة المحرم من العام الهجري ١٣٦٩ الموافق ١٠/٢٣/ ١٩٤٩ في قرية صانور الواقعة بين جنين ونابلس في فلسطين المحتلة، وأتممت المرحلة الثانوية في مدينة جنين في عام النكسة ١٩٦٧، وتوجهت بعد ذلك إلى مدينة عمان لإتمام الدراسة في الجامعة الأردنية مبتعثا على نفقة وزارة التربية والتعليم في منحة دراسية. حصلت على الشهادة الجامعية الأولى عام ١٩٧١ وبدأت العمل معلما في وزارة التربية والتعليم، وخلال ذلك حصلت على دبلوم التربية عام ١٩٧٣ والماجستير في اللغة العربية وآدابها عام ١٩٨٠ وبقيت في التعليم العام من عام ١٩٧١ حتى ١٩٨٢، وفي عام ١٩٨٢ انتقلت من الإمارات العربية التي عملت فيها سنتين إلى جامعة الملك سعود في الرياض محاضرا في قسم اللغة العربية، وسجلت خلال ذلك لنيل الدكتوراه في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض. وحصلت عليها عام ١٩٨٧. غادرت السعودية عام ١٩٩٠، وبقيت في العمل الجامعي حتى عام ٢٠١٠ حيث تفرغت لدار المأمون للنشر والتوزيع التي أنشأتها عام ٢٠٠٥، ولخدمة رسائل النور.

خلال رحلة العمر كان لي نشاط كتابي مبكر في الصحف وفي نظم الشعر، وفي تقديم برامج إذاعية والمشاركة في برامج تلفزيونية، وكان حصاد رحلة القلم أكثر من خمسة وعشرين كتابا في الأدب العربي والفكر الإسلامي، وكانت لي مشاركات في عدد من المؤتمرات العلمية، والانتساب إلى عدد من المؤسسات الفكرية والأدبية، ومنها رابطة الأدب الإسلامي وجمعية الدراسات والبحوث في الأردن، والجمعية الأردنية لإعجاز القرآن والسنة.

لا شك أنّك تعرّفت على الفكر الإصلاحي في مقتبل العمر، كيف كان ذلك؟ وما أبرز المدارس التي تعرّفت عليها؟

من فضل الله عليّ أنّه أتاح لي الاتصال بعدد من مدارس الفكر الإصلاحي الإسلامي، وأولها: جماعة الإخوان المسلمين، فقد كان والدي رحمه الله منتميا إلى هذه الجماعة وعضوا في مجالسها القيادية في الأردن، وكذلك عمي مفتي جنين الشيخ توفيق جرار –رحمه الله–، وقد أتاح لي هذا الاتصال الاطلاع على كثير من كتب الفكر الإسلامي في وقت مبكر من عمري، فاطلعت على رسائل الإمام حسن البنا وكتب سيد قطب ومحمد قطب وأبي الأعلى المودودي، كما اطلعت على مجموعة من المجلات الإسلامية ومنها: ''المسلمون'' التي كان يصدرها الدكتور سعيد رمضان، وجريدة المجتمع ثم الشهاب اللبنانيتين ومجلة المجتمع الكويتية ولواء الإسلام والأزهر المصريتين، وغيرها.

بقيت علاقتي التنظيمية مع الإخوان إلى عام ١٩٧٤ ثم كانت لي جولات مع مدارس فكرية أخرى منها: السلفية، وذلك من خلال الصلة مع الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله، الذي كان مقيما في سورية وكان يتردد على الأردن وكان له أتباع من بعض أفراد الإخوان المسلمين في مدينة الزرقاء، وحضرت له عددا من اللقاءات، واشتدت العلاقة بعد استقراره في الأردن حيث تزوج قريبة لزوجتي.

وكانت لي صلة كذلك مع الصوفية حيث انتسبت إلى الطريقة الدرقاوية مدّة من الزمن.

وكانت لي صلة وجولات مع جماعة الدعوة والتبليغ، وقد خرجت معهم مدة من الزمن.

هذا التجوال بين الجماعات الإسلامية ولّد لديّ وعيا باتجاهات الإصلاح

المعاصرة، وجعل لدي نوعا من التسامح والانفتاح والحب لدعاة الإسلام على تنوع اجتهاداتهم، والإيمان بأنّ الساحة الإسلامية تحتمل التعدد في مشاريع الإصلاح، وعلى الدعاة أن يسلموا بذلك ويتخذوا منهج التساند والتعاون لا التخاصم والتدابر، فلن يستطيعوا أن يضعوا الناس جميعا في قالب واحد. وقد حط رحالي أخيرا ومنذ سنوات في ركاب رسائل النور، أسأل الله القبول والسداد.

كيف تعرّفتم على رسائل النور؟ ومتى كان ذلك؟

أشعر أنني قد تأخرت كثيرا في الانضمام إلى قافلة النور، ولكن لكل أجل كتاب، فقد فاتني حضور المؤتمرات الدولية التي عقدت في إسطنبول حول رسائل النور، وما يتيح ذلك الحضور من زيادة معرفة بالرسائل من خلال مرايا من سبقوني إليها، ومن خلال الاتصال المباشر بهم، ولكن أحمد الله أني أتيت ولو متأخرا! وفاتني لقاء طلبة الأستاذ النورسي قبل أن يدخلوا مرحلة الشيخوخة.

كنت أقرأ في جريدة الشهاب اللبنانية تقارير عن الحركة الإسلامية في تركيا وعن طلاب النور، لكن الصورة بقيت غائمة، وحضرت مؤتمرا عن رسائل النور عقد في عمان عام ١٩٩٧ وحضره باحثون من تركيا وغيرها، ولا أدري لماذا لم يولّد لدي ذلك المؤتمر الشوق إلى رسائل النور، وذكرياتي عن ذلك المؤتمر تأتي من جب عميق! وأذكر أنّ الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، بارك الله فيه، أهداني بعض الرسائل الصغيرة وأقول بصراحة إنها لم تشدني ولم أكمل قراءتها، وأذكر أنّ منها رسالة الطبيعة! يبدو أنني لم أكن يومها مؤهلا للدخول إلى عالم النور، ومضت الأيام، ولقيت الأستاذ إحسان في المغرب في أكثر من لقاء حول الأدب الإسلامي، ولقيته في عمان في زيارة له في بيت الدكتور أحمد شكري، ولم أكن قد اقتربت من الرسائل ولم أكتشفها، لكن تلك اللقاءات كانت تمثل خيطا من التواصل نما من بعد بفضل الله حتى صار عروة وثقى!

ومما زادني معرفة برسائل النور حضور الدكتور عبد الحليم عويس رحمه الله إلى الأردن أستاذا زائرا في جامعة اليرموك، وكانت صلتي به قديمة من خلال رابطة الأدب الإسلامي، وكانت معرفتي به في السعودية حيث كان هو في جامعة الإمام وكنت في جامعة الملك سعود، وكانت اجتماعات الرابطة الدورية واجتماعات مجلس الأمناء

تجمعنا، والدكتور عبد الحليم عويس خبير برسائل النور وعلى صلة بطلابها من قديم، كما كانت له صلة بطلبة الأستاذ فتح الله كولن، وعند حضوره إلى الأردن عرفني على بعض الإخوة من طلبة الأستاذ فتح الله، وكنا نلتقي معهم لقاء دوريا نقرأ فيه رسائل النور، وامتد اللقاء سنوات، ولم أكن أعرف فرقا بين الجماعتين، بل كنت أعلم أنهم من طلاب النور حتى سنوات تلت بدأت فيها أقرأ للأستاذ فتح الله وبدأت بعض كتبه تقرأ في اللقاء إلى جانب الرسائل، هذا اللقاء الدوري قربني من رسائل النور وفتح لي بعض آفاقها. وفي عام ٢٠٠٦ حضرت ندوة في رابطة الأدب الإسلامي في القاهرة حول رسائل النور والتصوف، ويومها قلت للأستاذ إحسان: سأوفر رسائل النور في دار المأمون للنشر والتوزيع ليطلع عليها القراء في الأردن، فأجابني جوابا كان الشرارة التي أوقدت لدي الشوق إلى رسائل النور، والرغبة في قراءتها، قال: ذلك لا يكفي، نريدك أن تقرأ الرسائل وأن تكتب عنها. وبدأت المشوار من يومها فقد بدأت القراءة، وقدمت برنامجا إذاعيا في إذاعة حياة إف إم كان مختارات من رسائل النور. وبدأت الكتابة عن رسائل النور في مقالي الأسبوعي في جريدة الدستور الأردنية، فاختصرت السيرة الذاتية لتعريف القراء بالأستاذ النورسي رحمه الله، وبدأت بكتابة مقالات من وحي رسائل النور، وقدمت من بعد برنامجا بعنوان: طريق النور كان مضمونه مستوحى من الرسائل، واستمر عدة دورات إذاعية في إذاعة القرآن الكريم التابعة لإذاعة المملكة الأردنية الهاشمية. وشاركت بعد ذلك في عام ٢٠٠٩ في مؤتمر عن رسائل النور في القاهرة ببحث أعددته.

وأقول إن معرفتي الحقيقية بالرسائل بدأت عام ٢٠١١، ففي هذه السنة يسّر الله لي حضور ندوة الأكاديميين الشباب في إسطنبول، كما يسر لي حضور لقاء ''المشورة'' في أنقرة الذي يجتمع فيه ''الأوقاف'' من طلاب النور من أنحاء العالم ليستعرضوا واقع الدعوة ويتشاوروا في أساليب نشرها، وزرت بعد اللقاء بارلا وإسبارطة وقونية، وكان ذلك كله فرصة للاقتراب من رسائل النور وطلبتها والعيش في ''مدارسها'' وذلك ما لم يتح لي من قبل. واشتدّت الصلة بعد ذلك وبدأت الصورة بالتجلي شيئا فشيئا مع مشاركتي في ندوة الأكاديميين ومع حضوري دورات رسائل النور التي يعقدها الأستاذ إحسان قاسم الصالحي في مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم ويحضرها محبو الرسائل من بلاد شتى، وللإخوة الكرد من شمال العراق قصب السبق في هذا المجال. وفي كل مرّة أزور فيها تركيا أزداد معرفة برسائل النور وطلبة النور.

نظرا لاشتغالكم الأكاديمي بالأدب الإسلامي، هل من صلة لرسائل النور بالأدب الإسلامي؟

صلتي بالأدب الإسلامي ذات وجوه، فمن فضل الله أنني نظمت الشعر لسنوات طويلة، وكنت ممن ورد ذكرهم في الطبعة الأولى من كتاب: شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، للأستاذين: أحمد الجدع وحسني جرار، وكان لي اهتمام مبكر بالأدب الإسلامي دراسة وكتابة، ثم لما أنشئت رابطة الأدب الإسلامي كنت من الذين بادروا إلى الاشتراك فيها، وصرت في مرحلة من وجودي في الرياض عضوا في مكتب البلاد العربية ''المسؤول عن مكاتب الرابطة في العالم العربي'' وعضوا في مجلس الأمناء، ثم عند عودتي من السعودية إلى الأردن توليت رئاسة المكتب الإقليمي للرابطة في الأردن من عام ١٩٩٥ حتى عام ٢٠٠٥، ولم يكن طول المدة برغبة مني أو لحرص على المنصب بل كان ذلك بسبب ضغط من إخوتي أعضاء الرابطة في الأردن.

وفي شأن الصلة بين رسائل النور والأدب الإسلامي أقول مطمئنا إنّ رسائل النور سبقت منظري الأدب الإسلامي المعاصرين ووضعت ملامح الأدب الإسلامي في وقت مبكر، ووجدنا الأستاذ النورسي بذوقه العالي وقدرته النقدية المتميزة يوازن بين أدب القرآن وأدب أوربا، ويضع في هذه الموازنة أسس الأدب الإسلامي، وقد كتب صديقنا الدكتور حسن الأمراني في هذا المجال، لكن المجال مايزال مفتوحا للبحث عن نظرية الأدب الإسلامي في رسائل النور، وما كتبه الأستاذ النورسي في اللغة العربية يدلّ على قدرة هائلة في اللغة العربية أداء وفهما وبعض نصوصه العربية يحلق فيها إلى آفاق من التصوير والتعبير والتفكير تجعلنا نقدمها نموذجا راقيا للأدب الإسلامي رؤية وأداء.

ما أبرز ما استوقفكم في رسائل النور، من حيث مضمونها العام، وموضوعاتها ومنهجها العام؟

ألخص ما شعرت به من صلتي برسائل النور في جملة مختصرة:

تدهشك، تشدك، تؤثر فيك!

الذي يقرأ رسائل النور بوعي وإقبال عليها يشعر لا محالة أنّه أمام شيء مختلف عمّا أَلِفَه في كتب الفكر الإسلامي أو كتب التزكية والسلوك. إنّها ليست ثمرة بحث

وتفكير عقلي بحت، ليست مما هو مألوف في كثير من الكتب الإسلامية من كونها مؤلفات في موضوع محدد يراد به تحقيق هدف علمي بحثي محدد! إنها شيء مختلف.

إنّها تغوص بك في أعماق الذرات، وتحلق بك في آفاق المجرات، تحملك على أجنحة التفكر لتطوف بك في كل شيء وتفتح لك نافذة تدلك على الله في كل شيء.

تخاطب عقلك فتجدك في أدق حالات التنبه والوعي، وتخاطب قلبك فتجدك في أجمل لحظات الخشوع والوجد!

تجد نفسك مع الله في كل حال وشأن ولمحة وطرفة عين وأنت تعيش في أنوار رسائل النور!

رسائل النور تلامس ما في الإنسان من اللطائف التي تعرف ربها بالفطرة منذ استمعت إلى النداء الرباني: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الأَعْرَاف:١٧٢.

روعة رسائل النور، أنّها لا تدخلك في زاوية أو تكية، بل تحوّل الكون كلّه من حولك إلى زاوية! ليس المنشدون فيها من أصحاب الصوت الجميل من البشر بل فيها إنشاد الطيور التي علم كل منها صلاته وتسبيحه، وإنشاد الهواء بدرجات هبوبه، وإنشاد الأشجار بحفيف أوراقها، وإنشاد السماء بأصوات رعودها، وتلألؤ نجومها، بل إنّك تحسّ وأنت تمر على الأشجار وتسلم عليها أنها ترد عليك السلام، بل نصل إلى الدرجة التي تفتح لنا فيها رسائل النور النوافذ الحسية التي تجعلنا نسمع تسبيح كل شيء؟

رسائل النور كما هو متعارف عليه رسائل في الإيمان، في الفقه الأكبر الذي يكشف لغز الوجود ويجيب عن الأسئلة الأساسية في حياة الإنسان: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ والإيمان كالروح في الجسد والعافية في البدن والدم للإنسان والشمس للأرض. فإذا وجد الإيمان وجد كل خير وإذا فقد الإيمان فقد كل خير. رسائل النور تحدثك عن الله تعالى حديثا نديا ليس فيه جفاف أسلوب علم الكلام القديم، فتجليات الأسماء الحسنى تتجلى لك في آثارها التي تلمسها في كل ما حولك. وانظر إن شئت حديث الأستاذ النورسي عن اسم الله الأعظم الذي يرى أنه مكون من الأسماء الستة: فَرْدٌ حيٌّ قيوم حكم عدل قدوس، إنّ حديثه يقرّب لك تجليات الأسماء الحسنى

وتلمسها بحواسك إلى جانب عقلك وقلبك. وانظر كيف يحدّثك عن الشخصية المعنوية للرسول ﷺ، وقارنها بالسيرة التاريخية التي تجدها في كتب السيرة لتجد التاريخ في جانب وتجد الشخصية الحية في الجانب الآخر.

وانظر كيف يحدثّك عن الآخرة عن البعث والحشر، وانظر كيف تتجلى لك أدلة البعث وتجلياته فيما حولك من الأدلة التي تجعل البعث والحشر يقينا لا ريب فيه.

وهكذا تجد نفسك في رسائل النور أمام كتاب لا يشبهه ما تعرف من قبل من الكتب، فتجد في قلبك ما يقول لك: إن في هذه الرسائل علما لدنيا أكرم به الله الأستاذ النورسي، وذلك حين وحد القبلة واتخذ القرآن الكريم مرشدا فأفاض عليه القرآن الكريم من أنواره رشحات إعجاز، وتفسيرا يقرب حقائق القرآن إلى القلوب والعقول.

سيدي الكريم، لو تكرّمتم بتعريفنا بما كتبتم عن النورسي من مقالات وكتب وفق ترتيبها التاريخي، وتعليقها على هذا الترتيب.

بدأت كتابة سلسلة مقالات عن رسائل النور منذ عام ٢٠٠٦ في جريدة الدستور الأردنية وما زلت أكتب عنها، وقد جمعت بعض تلك المقالات في كتاب: في ظلال رسائل النور الذي طبع في عام ٢٠١٢، كما جمعت ما سبق أن كتبته من مقالات مستمدة من السيرة الذاتية للأستاذ النورسي رحمه الله ونشرتها في كتاب بعنوان: بديع الزمان سعيد النورسي: ملامح صورة وسيرة. والكتابان صدرا عن دار المأمون للنشر والتوزيع في عمان. واعتدت أن أكتب دراسة أو بحثا في كل ندوة من ندوات الأكاديميين أشارك فيها، كما أنّني شاركت في عام ٢٠١٣ في مؤتمرات حول رسائل النور في الهند ومصر وأعددت عددا من البحوث لتلك المؤتمرات، ولعلي أجمعها بإذن الله قريبا في كتاب بعنوان: دراسات في رسائل النور.

ومن عناوين هذه البحوث التي أعددت لمؤتمري الهند: النورسي والحداثة، والنورسي رجل السلام. ومن بحوث مصر: العمل الإيجابي ومنزلته في دعوة النور ومستقبل العالم الإسلامي في رسائل النور "الخطبة الشامية نموذجا". وآخر هذه البحوث ما قدمته في ندوة الأكاديميين عام ٢٠١٣ بعنوان: صورة الموت في رسائل النور. ومنذ سنتين بدأت سلسلة مقالات بعنوان: اللؤلؤ والمرجان من حكم بديع الزمان سعيد النورسي، وانتهيت من كتاب الكلمات من مدة قصيرة وبدأت بالمكتوبات وسأصدر الجزء الأول من اللؤلؤ والمرجان المستخلص من الكلمات قريبا بإذن الله.

ما أهمية الدراسة التدبرية لرسائل النور بالنسبة للفرد والمجتمع والأمة والإنسانية؟

لا تتحقق الفائدة المنشودة في رسائل النور من غير القراءة التدبرية، فالقراءة السريعة أشبه بإيصال جهاز الهاتف النقال بالشاحن لمدة قصيرة لا يؤدي إلى شحن حقيقي، وكالنظرة الشمولية التي تعطي معرفة عمومية لكنها تخفي كثيرا من الحقائق التي لا تنال بغير التفحص الدقيق والتفكير العميق.

هذه القراءة التدبرية تملأ قلب الإنسان الفرد نورا ورضى، وتملأ عقله يقينا لأنها تصل به إلى الإيمان التحقيقي الذي لا يجعل لريب أو شك مجالا أو منفذا. وكم نجد من المسلمين من يقيم دينه على ظن أو شبه يقين، فلا يسلم من الخلخلة والزلزلة، فهو يقين أقرب إلى الشك، فمن قرأ رسائل النور وتدبّرها اختلف حاله وتغير أمره، وصار إيمانه تحقيقيا يقينيا.

وأما المجتمع فالقراءة التدبرية تسهم في تغيير العلاقات الاجتماعية، وتقيم مجتمعا برؤية إيمانية، تعيد إنتاج مجتمع الصحابة ﷺ، فمن ثمرات القراءة التدبرية إحياء روح الأخوة الإيمانية، وإعادة ترتيب العلاقة بين الإنسان والمال، وكيفية إنفاقه، يصبح المال وسيلة وأداة وليس غاية، بل يعيد ترتيب العلاقات الاجتماعية من خلال الرؤية الإيمانية أولا ومن خلال التوجيهات التي تلامس القلب والعقل في شبكة العلاقات الاجتماعية. وَمنْ نظر في التجربة التركية لطلاب النور وجد نفسه أمام صورة جديدة لمجتمع إسلامي متكافل، تقوم العلاقة فيه على أساس الإيمان، وهي ثمرة التلقي من رسائل النور تقدم لمن يطلب النموذج.

وأما حاجة الأمة إلى القراءة التدبرية فإن أمة الإسلام قامت على أساس الإيمان ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾. الْحُجُرَات:١٠ ورسائل النور بإحياء الإيمان في القلوب تعيد إحياء الأساس الذي قامت عليه الأمة، ومن غير الإيمان تتحول إلى شعوب وقبائل متناحرة متدابرة تغلب رابطة الدنيا على رابطة الإيمان. فإذا انتشرت رسائل النور بين أمة الإسلام وتدبروها فإن فجرا جديدا لهذه الأمة يؤذن بالبزوغ بإذن الله لأنها ستحقق ما تحدث عنه الأستاذ النورسي رحمه الله من الاتحاد الإسلامي.

علمنا منكم التسجيل الصوتي لكثير من رسائل النور، متى كانت الفكرة، وكيف؟

أشكر الله تعالى الذي أعانني على تسجيل رسائل النور كلها إلا شيئا قليلا وهي:

رسائل المنطق في صيقل الإسلام، وبعض مرافعات المحامين في سيرة ذاتية، وأسأل الله تعالى أن يرزقني الإخلاص وقبول العمل. بدأت صلتي بتسجيل الرسائل في إذاعة حياة إف إم في الأردن عام ٢٠٠٦ على ما أذكر حيث سجلت مختارات من الرسائل امتدت لدورة إذاعية كاملة أي حوالي ثلاثة أشهر، وقد كان لذلك التسجيل صدى طيب لدى من سمعه، مما شجعني على التفكير في تسجيل الرسائل، وقد حان الوقت يوم شاركت في مؤتمر عن رسائل النور في القاهرة عقد بالتعاون بين رابطة الأدب الإسلامي ودار سوزلر للنشر في القاهرة عام ٢٠٠٩، وقد ألهمني الله تعالى في الجلسة الختامية للمؤتمر أن أدعو الدعاء الآتي: ''اللّهم كما يسرت لإحسان قاسم الصالحي ترجمة رسائل النور إلى العربية يسر لي تسجيلها بصوتي''.

وكان من الحضور إخوة أتراك كثيرون، وأمّن الحاضرون على الدعاء، ولعل منهم من كان مستجاب الدعوة فحقق الله لي الأمر، وذلك بإشراف الأخ عبد الكريم بايبارا مدير دار سوزلر للنشر في القاهرة التي تبنت الأمر وموّلت كلفة التسجيل الذي تم في مؤسسة روافد النور للإنتاج الفني في عمان. وقد يسّر الله تعالى إتمامه في حدود سنة ونصف. وقد صدرت النسخة الأولى من التسجيل في قرص ''ديفيدي'' واحد، ووضع التسجيل على موقع خاص على الإنترنت: www.nur.org/ar

وقد لاحظت أن المعالجة الفنية للتسجيل أضاعت محتوى بعض الملفات أو نقصت منه، والآن هناك إعادة للمعالجة الفنية لتلافي ما سقط من النسخة الأولى الذي يبلغ تسع ساعات من التسجيل وسيكون الإصدار الجديد في قرصي ''ديفيدي'' حرصا على نقاء الصوت.

ومما يستحق الإشارة أن التسجيل لم تصاحبه متابعة من مدقق أو مراقب للتسجيل في الاستوديو لتلافي السقطات أو الهفوات التي تحدث أثناء التسجيل، وكنت أرجو ذلك، كما لم يتبعه تدقيق ومراجعة لتلافي تلك الأخطاء في مصر، حيث كنت أتوقع أن تقوم لجنة مختصة بالمراجعة، فوقعت في التسجيل أخطاء يستغرب صدورها مني، ويبدو أن الذهن يولد أحيانا تركيبا يخالف المنطوق فيه المكتوب، وأنا على استعداد لتعديل ما يمكن تعديله أو إعادة ما يحتاج إلى تسجيل جديد. فتسجيل الرسائل عندي أهم من كثير مما أنجزته في حياتي، وأرجو أن يكون من الأجر الباقي الممتد ما بقيت الرسائل تسمع، ولله الحمد أولا وآخرا.

لا شك أنّ للتسجيل الصوتي لرسائل النور سحرا لا ينكر، ما الذي استوقفك في تسجيلها؟

أريد أن أبوح بأمر يتعلق بالتسجيل هو أنني يوم بدأت التسجيل لم أكن أتممت قراءة الرسائل كاملة، وربما لم تتجاوز قراءتي الكلمات والمكتوبات، وكنت أدخل الاستوديو من غير تحضير مسبق لما سيتم تسجيله، فلم يكن لدي من الوقت ما ييسر ذلك، فقد كنت عند بدء التسجيل مستمرا في العمل الجامعي ولدي متابعة دار المأمون للنشر. ومن فضل الله تعالى كنت أحس بالتسديد في القراءة وأستغفر الله من كل خطأ جرى على لساني من غير قصد. وكنت أتفاعل مع ما أقرأ، وإن كان في بعض المقاطع شيء من آثار التعب فلدي حساسية في الصدر، وأعاني من تهيّج في الحلق كانت تظهر آثاره في التسجيل، وكنت أحيانا أوقف التسجيل حتى يعتدل الصوت. ومن المقاطع التي تفاعلت معها إلى حدّ البكاء في السيرة الذاتية موقف عودة الأستاذ النورسي رحمه الله إلى بارلا بعد سنين من مغادرته لها، وتركت التسجيل كما هو شاهدا على التفاعل والانفعال. التسجيل الصوتي ييسر التواصل مع النص وخصوصا وأنت في السيارة أو المكتب ويدخلك في عالم النص ربما بطريقة لا تتيحها القراءة الورقية، كما يمكن استخدامه ضمن الوسائل الحديثة في الإنترنت والإذاعة والتلفزيون وغير ذلك.

ما درجة تجاوب المستمعين بالتسجيل الصوتي لرسائل النور؟

ربما يحتاج الجواب إلى استطلاع للمستمعين أنفسهم، ولكن من فضل الله أنني أجد في كل لقاء له علاقة برسائل النور من يحدثني عن ذلك التسجيل واستفادته منه، أجد ذلك من بعض الإخوة الأوقاف المنتشرين في أنحاء العالم، ووجدته من أساتذة كرام من طلاب النور في تركيا الذين قال لي أكثر من واحد منهم بأنني أصحبه على مدار الأسبوع وهو يستمع إلى التسجيل، كما أن بعض الإذاعات أخذت تبث مقاطع من التسجيل، أخبرت أنّ ذلك وقع في ساحل العاج وفي كردستان العراق. وأشير هنا إلى جهد طيب قامت به ابنتي وفاء بإعداد أفلام شملت حتى الآن الكلمات الست الأولى من كتاب الكلمات دمجت فيها التسجيل الصوتي مع مشاهد ذات صلة بالمضمون باستخدام البوربوينت وافتتحت قناة على اليوتيوب، وهذه الطريقة مفيدة جدا وتقرب المعاني من خلال المشاهد المصاحبة، وهذا هو رابط القناة: saidalnorsee

ما تقييمك لتجربة التسجيل الصوتي لرسائل النور؟

تجربة أحمد الله أن أعان عليها ويسرها على ما فيها من النواقص، وأنا كما قلت من قبل على استعداد لإعادة التجربة ربما بصورة أكثر إتقانا إنْ يَسَّر الله تعالى الظروف التي تعين على ذلك.

شهدنا حضوركم لقاء الأكاديميين الشباب المهتمين بدراسة رسائل النور، ما تقييمك لتجربة اللقاء مع الأكاديميين الشباب.

بدأ حضوري لقاء الأكاديميين من اللقاء الثالث عام ٢٠١١، وأذكر أنّ ذلك اللقاء كان أكثرها ''حزما'' إلى درجة أحس فيها الباحثون بقسوة الأساتذة عليهم، وتلك القسوة هي قسوة المحب:

فَقَسا لِتَزدَجِروا وَمَن يَكُ حازِماً فَليَقسُ أَحياناً وَحيناً يَرحَمُ

وكانت الندوة الرابعة في عام ٢٠١٢ دون ما كان في الندوة الثالثة، ربما غلب عليها الود والحنان أكثر من الحزم العلمي، واللقاء الخامس ٣٠١٣ كان وسطا بين اللقاءين!

وهذه اللقاءات مفيدة، وتكون أكثر فائدة لمن هم في المرحلة الأولى من الدراسة، أولئك الذين يمكنهم أن يعدلوا الخطط ويعيدوا النظر فيها، وقد وجدت في اللقاءات الثلاث من يأتي وقد استكمل أو كاد رسالته، مما يجعل استفادته من الندوة بعيدة المنال. وقد أعجبني في اللقاء الخامس التنبه إلى ضرورة أن يواكب الجهد الأكاديمي في توجيه الباحثين في الرسائل جهد آخر يربط الباحثين بالرسائل ليرقى بهم من باحثين فيها إلى طلاب للنور، وهذا أمر ألححت عليه في الندوتين الثالثة والرابعة، كما أن عقد اللقاء الخامس في المؤسسة في إسطنبول وفي بورصة أبعد المشاركين عن الأجواء غير الشرعية في الفنادق، مما كان يسوء بعض المشاركين لما يرونه من مخالفات من نزلاء الفندق أو زواره.

بيّن لنا تجاوب الأكاديميين عموما والشباب منهم على الخصوص مع رسائل النور؟ وما درجة حضورها في البحوث الأكاديمية في الأردن الشقيق؟

ما يحزنني وأنا أنظر في علاقة بعض الأكاديميين برسائل النور، وأخشى أنْ أقول إنّ كثيرا منهم يشملهم قولي أنه يتعامل مع رسائل النور تعاملا ''استشراقيا'' أو أكاديميا، فبعض من أعرف ممن شاركوا في المؤتمرات العلمية يكون هدف بعضهم أن يضيف

إلى سجله الأكاديمي مشاركة جديدة وبحثا جديدا، أقول هذا وأنا أنظر في واقع عدد ممن شاركوا من الأردن في مؤتمرات رسائل النور الكبرى التي تعقد كل ثلاث سنوات، لم أجد منهم تقدّما نحو رسائل النور، أو سعيا ليكونوا طلاب نور، وهذا يجعلني أتساءل: إن كانوا قد اكتشفوا حقيقة الرسائل أم أنهم ما زالوا محجوبين عن أنوارها؟!! لرسائل النور في بعض الجامعات الأردنية حضور محدود، فقد أنجزت بعض الرسائل في جامعة آل البيت وفي الجامعة العالمية الإسلامية، وسبب قلة الحضور أن أكثر الأكاديميين في الأردن لم يكتشفوا الرسائل بعد، وتلك مسؤولية كبيرة نسأل الله أن يعين عليها.

نصيحة للأكاديميين الشباب؟

أقول لهم موجزا: من فضل الله عليكم أن يسر لكم أن تكونوا باحثين في رسائل النور، والشهادة أو الدرجة العلمية ستحصلون عليها، وستكون زادا لكم في الدنيا، وأهم من ذلك أن تكونوا طلاب نور تتعاملون مع الرسائل تعامل طالب الحق والهداية، وبذلك تنالون خير الدنيا والآخرة بإذن الله.

* * *

الإصدارات

١- قراءة في كتاب: رسالة ماستر.

الكتاب: الإمام سعيد النورسى وجهوده فى نشر قيم التواصل المؤسسة لعلم مقارنة الأديان.

إعداد: الباحثة كوثر الوليدي المرزن.

بإشراف: أ.د. محمد البنعيادي.

دار النشر: منشورات جامعة محمد بن عبد الله فاس - المغرب.

الطبعة: الأولى، سنة ٢٠١٢.

أصدرت جامعة محمد بن عبد الله بكلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس سايس وحدة ماستر الدراسات السامية ومقارنة الأديان كتابا من الحجم الصغير هو عبارة عن رسالة لنيل شهادة الماستر في الدراسات السامية ومقارنة الأديان تحت عنوان: ''الإمام سعيد النورسي وجهوده في نشر قيم التواصل المؤسسة لعلم مقارنة الأديان'' من إعداد الطالبة الباحثة كوثر الوليدي المرزن بإشراف أ.د. محمد البنعيادي، للسنة الجامعية ٢٠١١ -٢٠١٢.

ويقع الكتاب في ٢١٨ صفحة، اشتمل على مقدمة اشتملت على إشكالية البحث، و أسباب اختيار الموضوع وأهميته ومنهجه، أردفتها بخطة البحث، المكوّنة من أربعة فصول، بحسب ما يأتي:

عنونت الفصل الأول بعلم مقارنة الأديان، عرضت فيه الباحثة النشأة والتطور والأهمية، ويتكون الفصل من أربعة مباحث، خصصت الأول لتحديد المفاهيم، و قسمته إلى مطلبين، أفردت الأول لتحديد مفهوم الدين وجعلت الثاني لتحديد مفهوم مقارنة الأديان، أما المبحث الثاني فأشارت فيه إلى نشأة علم مقارنة الأديان، وتفرّع عنه ثلاثة مطالب، أما الأول، فبيّنت فيه أثر القرآن الكريم والسنة النبوية في النشأة حيث أشار الكتاب الحكيم إلى كثير من الأديان السماوية والوضعية، فكما تحدّث عن

اليهودية والمسيحية وعبدة الأصنام والطاغوت، ولا يمكن أن تكون مقارنة دون تعدد، ولن يتسنى ذلك إلا في ظل علم مقارنة الأديان، كما أن السنة النبوية الشريفة فيها كيفية التعامل مع المحرفين من الأديان الأخرى وذلك بدعوتهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلتهم بالتي هي أحسن، مراعيا حسن الجوار واحترام شخصية من يخالفونه في العقيدة، فلا فرض ولا قهر ولا إخضاع بل ترك أهل الأديان وما يدينون.

وأما المطلب الثاني فعرضت فيه انتشار الإسلام وتعدد الفرق الإسلامية، فإن انتشار الإسلام بسبب الفتوحات الإسلامية ساهم في اتساع رقعة الدولة الإسلامية لتشمل أمما متعددة ذات ديانات مختلفة، فنتج عن ذلك احتكاك ثقافي وعقائدي بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى، مما دعا المسلمين إلى محاولة التعرف على تلك الأديان.

وفي المطلب الثالث أشارت إلى العلوم التي ساعدت على نشأة علم مقارنة الأديان وهي: علم التفسير من حيث إيضاح المفسرين وبيانهم للأديان التي ورد ذكرها في القرآن، وكذا أدب الرحلات باعتباره ساهم في التأسيس لهذا العلم، وذلك من خلال كتابات الرحالة عن الأديان التي كانت منتشرة آنذاك في البلاد التي يزورونها، ثم التاريخ حيث تعرض المؤرخون للحديث عن الأديان في إطار حديثهم عن الشعوب والأمم التي كانوا يؤرخون لها، ثم علم الكلام من خلال المجادلات القائمة آنذاك.

وأشارت في المبحث الثالث إلى تطور علم مقارنة الأديان وقسمته إلى أربعة مطالب، أشارت في المطلب الأول إلى مرحلة ازدهار وتدوين علم مقارنة الأديان خلال القرن الرابع وكثر فيه الكتاب وكان أشهرهم النوبختي والمسعودي والمسبحي والبيروني وابن حزم وغيرهم... وعرضت في المطلب الثاني مرحلة اختفاء علم مقارنة الأديان لأسباب عدة من بينها ازدحام قصور الملوك في عصور الضعف بزوجات كتابيات وبعدد من الأطباء والوزراء من غير المسلمين وكذا زحف الصليبيين على الشرق الإسلامي مما فرض الصمت عن الأديان، أما في المطلب الثالث فأشارت فيه إلى مرحلة انتقال علم مقارنة الأديان إلى الغرب، ومما ساعد علماء الغرب على السير قدما في هذا العلم هو حرية الفكر التي وصلوا إليها، وأما في المطلب الرابع فتحدثت

عن عودة مقارنة الأديان للساحة الإسلامية وتم القيام بتدريسه في المعاهد والجامعات وعيا منهم بأهميته في إنجاح الحوار مع الآخر.

وأشارت الباحثة في المبحث الرابع إلى أهمية علم مقارنة الأديان وفوائده وضمنته ثلاثة مطالب، ففي المطلب الأول أشارت إلى أهميته لجميع الأديان فهو يمكن الفرد من معرفة الحق من الباطل في مجال الاعتقاد، وفي المطلب الثاني أشارت إلى أهمية علم مقارنة الأديان عند المسلمين وتتلخص في كون هذا العلم يكشف للباحثين مدى التناقض والزيف في العقائد غير الإسلامية ومدى ما يتجلى في القرآن من حق جلي، وأما في المطلب الثالث فقد بيّنت أهمية هذا العلم بالنسبة لعلوم أخرى وتتجلى في أنها تكشف جوانب الاتفاق أو مواضع الاختلاف مما يؤدي إلى استفادة الباحثين والدارسين.

وفي الفصل الثاني عرضت الباحثة جوانب من حياة بديع الزمان النورسي وذلك في ثلاثة مباحث، ففي المبحث الأول تناولت جوانب من حياة سعيد النورسي وقسمتها إلى مطلبين أساسيين، أما الأول فخصصته لمولده ونسبه ونشأته العلمية، وأشارت في الثاني إلى جهاده السياسي والفكري، ثم انتقلت إلى المبحث الثاني الذي تناولت فيه جوانب من حياة سعيد الجديد وسعيد الثالث، فقسمته إلى مطلبين اثنين، ففي الأول تناولت بالعرض سعيد الجديد بين النفي والاعتقال والاقامة الجبرية، وفي الثاني ذكرت مرحلة سعيد الثالث، أما المبحث الثالث فخصصته لوفاته ومصنفاته. وجعلت ذلك في مطلبين، مطلب لوفاته وآخر لتراثه.

وعنونت الباحثة الفصل الثالث بالدعوة للتشبث بقيم الحوار والمشترك الإنساني، قسمته إلى مبحثين فجعلت الأول لدور القيم الإنسانية المشتركة في التمهيد للحوار وضمنته ثلاثة مطالب، ناقشت في الأول الفطرة والإخاء الإنساني من حيث إن الله عز وجل جعل الفطرة الإنسانية أول شيء مشترك بين الجنس البشري، فأشارت الباحثة إلى أن النورسي قد حصر الروابط الإنسانية التي تجمع البشر كلهم وحرر حقائق الحياة البشرية التي يسلم بها العقل البشري مهما اختلفت العقائد وتنوعت النحل، وتناولت في المطلب الثاني المحبة والتعاون بحيث إن المحبة من أسمى القيم الروحية، فالإنسان لا يعيش بمفرده في هذا الكون ففرض عليه ذلك لكي نتحدث عن المحبة أن يتعايش في علاقاته مع كل الكائنات حتى يتحقق الكمال الإنساني، وأما التعاون فإن

الله تعالى يأمرنا به من خلال الآية الكريمة فيما فيه المصلحة العامة، أما المطلب الثالث فخصصته للأمن والسلام وأن الأستاذ النورسي أكّد على ضرورة إقرار الأمن والسلام العالمي، كما أسهم في هذه القضية، أما في المبحث الثاني فعرضت فيه الدعوة إلى التعارف والحوار وجعلت منه ثلاثة مطالب، فتناولت في الأول التعارف والتعايش السلمي، وأشارت إلى أن النورسي تشبّع من خلال القرآن والسنة بفكرة بناء مجتمع إنساني قائم على تعارف الشعوب وتعايشها رغم اختلاف ألسنتها وألوانها وتعدد ثقافاتها انطلاقا من مبدإ العالمية الذي نادى به القرآن، وتناولت في المطلب الثاني الحوار الإسلامي المسيحي من خلال دعوة الأستاذ النورسي إلى التعرف على الغرب من خلال الحوار الذي يمهد لبدء التعاون إذ لابد للمتحاورين من الفهم المتبادل للمعتقد فيقرب ذلك من وجهات النظر المختلفة فيوحد في الأمور الكلية، وأما في المطلب الثالث فعرضت فيه الحوار من منظور رسائل النور من خلال استحضار الجانب الروحي في الدعوة له فقد نبّه النورسي كثيرا إلى أنّ الحوار فلسفة من جوهر الايمان بأن الله خلق البشرية لحكمة وغاية تتمثل في التآلف والتساكن لتحقيق الأمر الرباني للوصول إلى السعادة الخالدة، ويجب أن يكون للحوار آدابا كاللين والموعظة الحسنة والدفع بالتي هي أحسن، وأن للحوار أهدافا يجب أن يحققها وهي تحقيق المحبة والوئام بين الناس لأنه من خلاله يتم اكتساب المعرفة وتبادل الأفكار في جميع مناحي الحياة.

أما الفصل الرابع فعنونته الباحثة بمدخل لمقارنة الأديان تناولته في مبحثين، فأما الأول فقد ضمّنته بعض نقط الاتفاق بين الأديان وقسمته إلى مطلبين، عرضت في الأول الايمان باليوم الآخر من خلال الكتب المقدسة، فهي صدقت هذه الحقيقة رغم أن بيانها كان مختصرا وموجزا، فهي تصرح بوجود الحشر ولا تعطي فكرة واضحة عنه، وأنا هناك جنة ونارا وحياة أبدية، والحكمة الإلهية اقتضت تأخير التفصيل هذا الموضوع إلى القرآن الكريم، وأما الثاني فاشتمل على الايمان بوجود الملائكة حيث إن التصديق بوجودهم هو أحد أركان الإيمان، وقد اتفقت جميع الأديان السماوية على صحة هذه الحقيقة، وأما في المبحث الثاني فقد تطرقت إلى بعض نقاط الاختلاف بين الأديان وبيّنت ذلك في المطلب الأول فتناولت فيه عقيدة التوحيد وعقيدة التثليث، فعقيدة التوحيد هي العقيدة الأصلية لجميع الأديان السماوية إلا أن هذه الأديان

باستثناء الإسلام لم تحافظ على هذه العقيدة نقية صافية، فنجد النصرانية اتبعت عقيدة الوثنيين في هذا، وفي المطلب الثاني بيّنت التحريف في الأسفار والتصحيح من القرآن فكان القرآن الكريم يصحح مواضع الاختلاف ويصدق مظان الاتفاق في الكتب السماوية، وبذلك ختمت رسالتها بقولها إن رسائل النور قد جسدت منبعا صافيا لتذوق حلاوة الايمان، فقد كرس حياته ليجعل الناس يتذوقون القرآن ويفهمونه حق الفهم مهما اختلفت أديانهم ولكي يجعلوه أساس حياتهم، كما ضمنت الباحثة بعض النتائج في ختام بحثها منها أن الرسائل مثلت حقلا معرفيا زاخرا بالمبادئ السامية التي تؤصل لمنهج الحوار بين الأديان والثقافات، كما أن النورسي أسدى خدمات جليلة بدعوته لقيم الحوار والتعارف بين الشعوب ونشر المحبة وغيرها.

٢- قراءة في كتاب: رسالة ماستر.

الكتاب: الإمام سعيد النورسى متكلما جديدا؛ قضية الآخر أنموذجا.
إعداد: فاطمة الزهراء العوان.
بإشراف: أ.د. محمد البنعيادي.
دار النشر: منشورات جامعة محمد بن عبد الله فاس - المغرب.
الطبعة: الأولى، سنة ٢٠١٢.

أصدرت جامعة محمد بن عبد الله بكلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس سايس وحدة ماستر الدراسات السامية ومقارنة الأديان كتابا من الحجم المتوسط يحتوي رسالة لنيل شهادة الماستر في الدراسات السامية ومقارنة الأديان تحت عنوان: ''الإمام سعيد النورسي متكلما جديدا قضية الآخر أنموذجا'' من إعداد الطالبة الباحثة فاطمة الزهراء العوان تحت إشراف أ.د. محمد البنعيادي، للسنة الجامعية ٢٠١١ -٢٠١٢.

ويتضمن الكتاب الذي يقع في ١٣٨ صفحة مقدمة أشارت فيها الباحثة إلى علم الكلام بصفة عامة وتطرقت إلى أسباب اختيار الموضوع والهدف منه والمنهج الذي اتبعته مشيرة إلى إشكالية البحث وانتقلت بعد ذلك إلى تقديم خطة البحث الذي يتكون من ثلاثة فصول.

ففي الفصل الأول ذكرت الباحثة لمحة عن سيرة الأستاذ النورسي تضمنت

التعريف به من حيث المولد والنشأة ثم أشارت إلى ما تعرض له من سلسلة المحاكمات والسجون والمنافي، كما تطرقت إلى الأحداث الكبرى التي وقعت في المرحلة الزمنية التي عاشها إلى حدود وفاته.

وفي الفصل الثاني التي عنونته بعلم الكلام بين القديم والجديد فقد قسمته إلى ثلاثة مباحث تناولت في المبحث الأول التعريف بعلم الكلام القديم من خلال مطلبين، ففي الأول عرضت نشأة علم الكلام القديم وتطوره وتأثير الفلسفة اليونانية عليه، حيث إن الصحابة رضوان الله عليهم تلقوا مبادئ العقيدة من المصدر الأساسي للعقيدة وهو القرآن الكريم، فلم تكن الحاجة في عصرهم إلى أي تأويل أو البحث في الآيات المتشابهات بأسئلة تثير شبهة التشكيك، وبعد التوسع الذي شهده العالم الإسلامي على إثر الفتوحات تأثر هذا المفكرون المسلمون بالمناهج الجديدة لاختلاف الأفهام، فظهرت أمور لم تكن فيما قبل وأثيرت مشكلات لم تثر مما قبل، فتسربت الفلسفة اليونانية إلى الثقافة الإسلامية، ومن هنا ظهر علم الكلام الجديد، ثم أشارت الباحثة إلى الفرق بين علم الكلام الإسلامي الذي هو المعرفة الوسيطة بين الوحي وأذهان المخاطبين وبين اللاهوت المسيحي الذي يختلف بعده تماما عن الكلام الإسلامي، وفي المطلب الثاني ذكرت بعض أعلام علم الكلام ومن بينهم أبو الحسن عبد الجبار الهمداني وأبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي، ثم أشارت إلى كيفية تناوله لقضية الآخر بحيث استعان بالعديد من المناهج الفكرية المختلفة وخاصة الفلسفة والمنطق اليوناني، واضعا نصبه على طبيعة العلاقة التي يجب أن ينتهجها المسلم بمن يخالفهم عقديا.

وتطرقت في المبحث الثاني الذي عنونته بعلم الكلام الجديد إلى تعريفه في المطلب الأول باعتباره بوابة مهمة للاطلالة على القضايا الفكرية الراهنة برؤية علمية حديثة لم تنسلخ عن الأصل، وانتقلت إلى إبراز أعلامه في المطلب الثاني ومن بينهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومصطفى صبري وغيرهم...

وفي المبحث الثالث تطرقت الباحثة إلى الحديث عن النورسي باعتباره متكلما في العصر الحديث وذلك بتقسيمه إلى مطلبين، فخصصت المطلب الأول لصفة الكلام في عصر النورسي، فقد تميز عصره بظهور جهات تسعى لتخريب الدين وتمزيق أوصاله وهدم المعتقدات وإفساد أحوال الناس، واكتشف النورسي أن غزوا فكريا

منظما يشن على العقيدة الإسلامية وشريعتها ابتداء من الدوائر الأجنبية وانتهاء بالدوائر الرسمية للدولة نفسها والتي يقودها الملاحدة والمتأثرون بالأفكار الغربية، معتمدين في ذلك على نشر المادية وتشكيك الناس في الأمور الغيبية، وخصصت المطلب الثاني لمنهج النورسي في تحليل القضايا المعاصرة، فقد أنتج الأستاذ رؤية جديدة لقضايا العصر وتتبع طريقا في منهجه توخى فيه الجمع بين العلوم الدينية والعلوم المادية لإنتاج خطاب جديد مفاده أنهما لا يتعارضان، فكان بعلمه الغزير ووعيه الحضاري الشامل متكلم العصر بامتياز.

ثم انتقلت إلى الفصل الثالث الذي كان موضوعه: من قضايا علم الكلام الجديد عند بديع الزمان، خصصته لقضية الآخر وذلك في مبحثين، وقد كان موضوع المبحث الأول هو الآخر بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي قسمته إلى ثلاثة مطالب، عرضت في الأول الآخر في الفكر اليهودي الذي يطلق على المخالف في الديانة وهي نظرة عدوانية لا علاقة لها بموقف التوراة منها، عكس المسيحي الذي ينظر للآخر بحب واحترام ونبذ العنف ضده، أما في الثاني فتناولت الآخر في الفكر الإسلامي وهو المختلف عنا في جانب من الجوانب، وفي القرآن الكريم تفاضل على أساس التقوى، وقد أوصى الرسول الكريم بحسن معاملته وعدم الاساءة إليه. وفي المطلب الثالث عرضت الباحثة، الآخر عند بديع الزمان النورسي فقد اهتم كثيرا بتحديد طبيعة الصلة التي يجب أن تربط المسلم بغيره معتمدا في ذلك على مرجعية القرآن الكريم والسنة النبوية.

وفي المبحث الثاني تطرقت إلى موقف بديع الزمان من الآخر أدرجت تحته ثلاثة مطالب، فضمّنت الأول: الآخر المسلم عند الأستاذ النورسي، وبيّنت أنّه يزن نظرته للآخر بالميزان الشرعي وسيرته تشهد على مواقف عكست حرصه الشديد على إحقاق الحق مع إخوانه أو مخالفيه. ثم أشارت في المطلب الثاني إلى موقفه من الفرق الإسلامية من صوفية ومعتزلة وغيرهم جاعلا الحق مسلكه، فما منها بعد عن الحق فهو ضال وما اتبع الحق منها فهو مهتد، وفي المطلب الثالث بينت الباحثة موقفه من الآخر المخالف في الإطار العقدي، فقد كان النورسي واعيا وهو يبني خطابه النقدي لأوربا على أساس الانصاف وحسن التمييز، ودعا الأستاذ النورسي إلى حرية العقيدة فليس من أحكام الشريعة ولا منهجها في دعوة الناس إكراههم على الدخول في الإسلام.

وفي المبحث الثالث تطرقت الباحثة إلى خلاصة فلسفة الآخر في الفكر النوري فقد شكلت فلسفة النورسي في عدة قضايا تصورا يهدف إلى الدفاع عن بيضة الإسلام، وكانت قضية الآخر تشكل مدخلا مهما لفتح مجال لاصلاح شامل، وقد تناولها الأستاذ بشكل موسع من مختلف الجوانب، وقد فصلت الباحثة هذا المبحث إلى مطلبين: المطلب الأول كان عن بناء علاقة التعارف عند النورسي على أسس أخلاقية أشارت من خلاله إلى النورسي دعا في رسائل النور إلى فتح سبل التعارف مع الآخر، وفي المطلب الثاني بينت فيه اعتراف النورسي بإيجابيات الآخر وموقفه مما يخالف مصلحة الإنسان مع نبذه للتبعية وهذا مما تميز به ديننا الحنيف حيث امتاز عن سائر الأديان بالانفتاح، ثم وضعت خاتمة للموضوع ذكرت فيها أهم النتائج والخلاصات التي توصّلت إليها مع بعض التوصيات التي تفتح آفاق البحث، أما النتائج فهذه بعض منها: إن علم الكلام القديم كان نتيجة للحاجة التي فرضتها طبيعة الأحداث التي واكبت انتشار الإسلام، وأن الاختلاط بالمخالفين للعقيدة ولد اصطدامات فكرية شكلت تهديدا للانحراف عن العقيدة الإسلامية، وهذا استدعى تدخل علماء مسلمين للدفاع عن العقيدة بأساليب متأثرة بالمنطق والفلسفة اليونانية، ما أفرز علم الكلام الإسلامي.

* * *

المؤتمرات والحلقات الدراسية

ندوة الفكر الإصلاحي عند بديع الزمان بالجامعة الأردنية

استضافت الجامعة الأردنية بعمان بتاريخ ٢٠١٣/٠٤/٠٢، بمركز الثقافة الإسلامية، حيث عقدت فعاليات ندوة دولية بعنوان: ''منهج الإصلاح في رسائل النور'' بتعاون بين الجامعة الأردنية ومؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم، وقد حضر هذه الندوة مجموعة من الأساتذة قدموا من جامعات مختلفة عبر العالم العربي من الأردن ومصر والعراق واليمن وتركيا، وانعقدت ندوات استمرت لمدة ثلاثة أيام عقدت خلالها ست جلسات.

يوم الثلاثاء ٢ أبريل (نيسان) ٢٠١٣ بالجامعة الأردنية:

ألقت دة. هالة الخيمي الحوراني الكلمة الافتتاحية نيابة عن رئيس الجامعة، أوضحت فيها دور الأستاذ النورسي في الإصلاح، كما ذكرت أيضا أن بديع الزمان سعيد النورسي التزم طريقة فريدة من نوعها في ممارسة الإصلاح، كما وضع نموذجا فريدا للإصلاح، وربى أجيالا من طلاب النور قاموا على تتبع نفس المنوال وهم ينتشرون في جميع أنحاء العالم وينشرون هذا النموذج الرائع.. وأضافت بأن سعيد النورسي نموذج للعالِم المعتدل من خلال ما سطره في مؤلفاته رسائل النور وأنه مثال يحتذى به للعالم كله وأن المجتمع الإسلامي في حاجة له ولرسائله.. وأعربت عن سعادتها وامتنانها لتنظيم هذه الندوة ورحبت بالضيوف في كلمتها وختمت بتقديم الشكر لكل من ساهم من قريب أو بعيد في تنظيم هذه الندوة التي ستساهم في التلاقح الفكري والاستفادة العلمية.

أخذ الكلمة رئيس جمعية المحافظة على القرآن الكريم التابعة للجامعة الأردنية

أ.د. أحمد شكري، وذكر في كلمته أنه على الرغم من أن الرسائل كتبت في ساحات الحرب والسجون المنافي فإنها نورت العالم ولبت حاجات هذا العصر، ولقد لاقى طلبة النور من الظلم والتعذيب الكثير ولكنهم صبروا وصمدوا حتى حققوا غايتهم، فأما الظالمين فقد تجاوزهم التاريخ وأما طلاب النور ورسائل النور فقد خلدها التاريخ وأصبحت رسائل النور بكلماتها وشعاعاتها ولمعاتها... بلسما لجروح شباب هذا العصر وشفاء لقلوب الحيارى في هذا العالم.. ولم ينته الإصلاح في رسائل النور بعد وفاة النورسي بل استمر وزاد على ذلك وانتشر في سائر البقاع خارج تركيا بعد أن كان مقتصرا عليها دون غيرها.. وفي ختام كلمته قدم شكره وامتنانه لمؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم على تعاونها وتنظيمها لهذه الندوة العلمية.

وألقى مدير مركز النور للبحوث والدراسات ذ. إحسان قاسم الصالحي كلمةً شكر فيها الجامعة التي لبت دعوة التعاون والتشارك وتنظيم هذه الندوة العلمية خدمة للعلم ومساهمة في نشره، كما تقدم بشكر للأساتذة والحضور، وقام بدوره بإهداء كليات رسائل النور باسم مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم للجامعة الأردنية.

بعد الإفتتاح أقيمت جلستان، وقد ترأس الجلسة الأولى: أ.د. محمد ريان من الجامعة الأردنية، وترأس الجلسة الثانية: د. مأمون جرار، وقدم كل من الأستاذ إحسان قاسم الصالحي مدير مركز النور للبحوث والدراسات الحضارية ورقة بعنوان: ''منهج الإصلاح في رسائل النور'' أشار فيها إلى الأهمية الكبرى التي أولتها رسائل النور لإنقاذ البشرية... ثم تلاه د. إسحاق أوزكيل من جامعة سليمان دميريل بتركيا ببحث بعنوان: ''التفسير الشهودي من خلال رسائل النور'' أشار فيه إلى كون سعيد النورسي مجدد في التفسير، فقد جمع بين النظر إلى كتاب الكون المنظور والكتاب المسطور الذي هو القرآن الكريم، وقدم د. مأمون جرار رؤية موضوعية حول رؤيته الإصلاحية من زواياها المختلفة، ثم تلاه د. راجح الكردي أستاذ العقيدة والفلسفة في الجامعة الأردنية بمداخلة حول مفهوم الإصلاح عند بديع الزمان النورسي مقارنة بالمجددين الآخرين أمثال الإمام الشيخ حسن البنا في مصر والمودودي في الهند، بعد ذلك ألقى د. رعد الكيلاني من جامعة العلوم الإسلامية بالعراق بحثه حول فلسفة الإصلاح عبر رسائل النور، وقدم أ. د. نجيب السودي من جامعة تعز باليمن ورقة حول مراحل الإصلاح في حياة النورسي محللا المراحل المختلفة، ثم تلاه د. جمال رجب سيدبي

بورقة تحت عنوان: ''المنهج القرآني لإصلاح النفس الإنسانية عبر رسائل النور'' حيث ذكر فيها أن إصلاح النفس الإنسانية هو المدخل الصحيح لإصلاح المجتمع.. وقدم بعده د. جمال سيد باي ورقة حول الإصلاح النوري ودور بديع الزمان سعيد النورسي في الإصلاح بتركيا.

وفي نهاية المداخلات تقدم الأساتذة الحاضرون والطلبة بطرح أسئلتهم، فأضاف ذلك جوا من المناقشات الفكرية المفيدة.

يوم الأربعاء ٣ أبريل (نيسان) ٢٠١٣ بمقر جمعية المحافظة على القرآن الكريم:

بمقر جمعية المحافظة على القرآن الكريم التابعة للجامعة الأردنية أقيمت مائدتان مستديرتان، شارك فيها كل من:

ذ. إحسان قاسم الصالحي من مركز النور للبحوث والدراسات.
أ.م. د. إسحاق أوزكيل من جامعة سليمان دميريل بتركيا.
أ.د. نجيب السودي من جامعة تعز باليمن.
د. راجح الكردي من الجامعة الأردنية.
د. محمد ريان من مركز الثقافة الإسلامية.
د. جمال سيد باي من جامعة السويس بمصر.
د. رعد الكيلاني من جامعة العلوم الإسلامية بالعراق.
د. مأمون فريز جرار من الجامعة الأردنية.

يوم الخميس ٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٣ بالجامعة العالمية الإسلامية:

أقيمت مائدة مستديرة بالجامعة العالمية الإسلامية بطبربور في عمان، وقد حضر كل من مستشار رئيس الجامعة د. عبد المقصود حميد عبد المقصود وعميد كلية أصول الدين أ.د. محمد زغول وقد شارك العديد من الأساتذة وطلاب الجامعة بالحضور، وقد تمت زيارة رئيس الجامعة أ.د. عبد الناصر أبو البصل مباشرة بعد إنتهاء أشغال المؤتمر وخلال اللقاء تم تبادل الهدايا.

موقع: بارلا بلات فورمو
مقال د. جمال سيد باي بتصرف كبير

ندوتان دوليتان حول بديع الزمان في الهند

الجامعة العثمانية بحيدر آباد:

نظمت مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم بالتنسيق مع جمعية أساتذة اللغة العربية لعموم الهند، وقسم اللغة العربية بالجامعة العثمانية حيدرآباد، ندوة دولية ليومين في قاعة ماكيستار برحاب الجامعة العثمانية خلال (٤-٥ فبراير/شباط ٢٠١٣م الإثنين والثلاثاء) حول العنوان: "بديع الزمان النورسي: رسول الأمن والسلام".

وقد شارك فيها العلماء والأساتذة والباحثون من مكة المكرمة، ومن تركيا، والمملكة الأردنية الهاشمية، ومن الجامعات الهندية الحكومية المعاصرة، والجامعات الإسلامية العربية الخاصة من أقاصي بلاد الهند، وعلى رأسهم الشيخ سلمان الحسيني الندوي عميد كلية الشريعة وأصول الدين، ومدير قسم الإعلام والبحوث بدار العلوم ندوة العلماء لكناؤ، ورئيس جامعة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، والأستاذ إحسان قاسم الصالحي مترجم رسائل النور بالعربية، والأستاذ الدكتور إبراهيم أوزد مير رئيس جامعة حسن كليونجو بغازي عينتاب تركيا، والأستاذ الدكتور فارس قايا، أمين عام مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم، بتركيا، والأستاذ الدكتور مأمون جرار الكاتب والباحث الإسلامي بعمان في الأردن، والأستاذ نبيل الباز، المسئول المالي برابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، والأستاذة الدكتورة مايا بندت، من جامعة اللغة الإنكليزية واللغات الأجنبية، حيدرآباد، والأستاذ الدكتور محسن العثماني الندوي عميد كلية اللغات الأجنبية سابقا، بجامعة اللغة الإنكليزية واللغات الأجنبية، والأستاذ عبد الباسط الندوي، مدير المعهد العالي لتدريب القضاة والمفتين، بباتنا، والدكتور أشفاق أحمد رئيس قسم اللغة العربية بجامعة آسام.

وقد تضمنت الندوة ست جلسات أكاديمية لعرض البحوث والمقالات، ثلاث بالعربية وثلاث بالإنكليزية ماعدا الجلستين الافتتاحية والختامية، وقد شارك الباحثون والأساتذة ببحوث ومقالات عن محاور مختلفة حول الموضوع الرئيسي للندوة تمثيلا لأكثر من خمس عشرة من الجامعات والكليات والمعاهد والمراكز التعليمية الهندية، وعالجوا المواضيع من التفسير، وإعجاز القرآن، والعقيدة، والإيمان، والتصوف،

والإصلاح، والتجديد، والدعوة الإسلامية، والتعليم، والتربية، والخلافة، والحضارة، ورسالة الأمن والوئام، والفكر الإسلامي في ضوء ما خلفه الأستاذ بديع الزمان النورسي في أعماله التجديدية والإصلاحية المستلهمة من معاني القرآن الكريم التي قامت ولاتزال تقوم بدور عظيم في تأصيل وتعميق جذور الإيمان والعقيدة واليقين، وتوليد جو الأمن والسلام.

الجامعة الملية الإسلامية بنيودلهي:

نظّم معهد ذاكر حسين للدراسات الإسلامية، بالجامعة الملية الإسلامية، نيودلهي عاصمة بلاد الهند بتعاون مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم ندوة دولية لثلاثة أيام خلال (٧-٩ فبراير/ شباط ٢٠١٣ الخميس والجمعة والسبت) في حرم الجامعة الملية الإسلامية حول العنوان: ''الإسلام والحداثة: في منظور رسائل النور''، شارك فيها ثلة من العلماء والأساتذة والباحثين والوزراء الحكوميين، وعلى رأسهم معالي الوزير ك رحمن خان الوزير المركزي للأقليات، والسيد إي أحمد الوزير المركزي للشئون الخارجية، والسيد طارق أنور الوزير المركزي للزراعة والأغذية، والسيد براق أقجافر سفير الجمهورية التركية لدى الهند، والأستاذ الدكتور س م راشد مساعد نائب رئيس الجامعة الملية الإسلامية، والسيد عارف محمد خان الوزير المركزي الهندي سابقا، والأستاذ الشيخ المفتي محفوظ الرحمن العثماني رئيس جامعة القاسم بولاية بيهار، والأستاذ الدكتور فارس قايا أمين عام مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم، والأستاذ إحسان قاسم الصالحي، والأستاذ الدكتور إبراهيم أوزدمير من تركيا، والأستاذ الدكتور مأمون جرار من الأردن، والأستاذ يونس جنكال من جامعة عدنان مندرس بتركيا، والأستاذ الدكتور أختر الواسع رئيس معهد ذاكر حسين للدراسات الإسلامية بنيو دلهي.

وقد كانت الندوة المستغرقة ثلاثة أيام متضمنة إحدى عشرة جلسة ماعدا الجلستين الافتتاحية والختامية، سبع جلسات بالإنكليزية، وجلستان بالعربية، وجلستان بالأردية، التي هي أكثر لغات الهند شيوعا، وهي لغة العلم والأدب والصحافة وخاصة للمسلمين في الهند، وقد شارك فيها سبعون مشاركا بكلمات، وورقات، وبحوث علمية حول مختلف محاور الموضوع.

لقد أكد المشاركون في هاتين الندوتين على إفادة مثل هذه الندوات حول جهود

الإمام النورسي التي نفعها ليس محصورا في الأمة الإسلامية فحسب، بل هي مفيدة للإنسانية جمعاء بدون تمييز بين الديانات والجنسيات والثقافات والحضارات.

بدأت الندوتان بتلاوة آي من الذكر الحكيم رتلها المقرئ التركي الفاضل الأستاذ علي قاتيوز، وختمت بالدعاء والابتهال إلى الله تعالى قام به الأستاذ نبيل باز من مكة المكرمة.

تقرير أعده: د. قمرشعبان الندوي

* * *

الندوة العالمية الخامسة للأكاديميين الشباب

الندوة العالمية الخامسة الإنجليزية للأكاديميين الشباب

نظمت مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم الندوة الدولية الخامسة للأكاديميين الشباب باللغة الإنجليزية، كعادتها منذ ٢٠٠٩، أيام ٨–١٠ من يونيو ٢٠١٣، وعقدت الندوة بفندق ''أق كون'' بإسطنبول، بمشاركة مجموعة من الأساتذة ذوي الخبرة العالية وممن لهم باع طويل في رسائل النور وهم:

أ.د. إيان ماركهام من جامعة فيرجينيا بكلية الإلهيات بأمريكا.
أ.د. كولن تورنر من جامعة دورهام بإنجلترا.
أ.د. محمد سعيد أوزر وارلي من الجامعة التقنية بتركيا.
أ.د. فريد العطاس من الجامعة الملية بسنغافورة.

وشارك في الندوة مجموعة شباب من مختلف الجنسيات، وهم طلبة شباب مسجلين باللغة الانجليزية لنيل الماجستير والدكتوراه حول رسائل النور وسعيد النورسي.
واستهلت أعمال الملتقى بمحاضرة لأحد الأستاذة في جلسة صباحية، تلتها جلسات توزعت على سائر الأيام الثلاثة الملتقى.

في يوم السبت ٨ حزيران (يونيو):

بدأ البرنامج على الساعة التاسعة صباحا بالمحاضرة الأولى من تقديم أ.د. إيان ماركهام من جامعة فيرجينيا تحت عنوان: ''طرق قراءة رسائل النور: علم اللاهوت النظامي''، بعدها مباشرة بدأ النقاش إلى حدود العاشرة والنصف، وبعد الاستراحة عقدت جلسة أخرى ترأسها أ.د. إيان ماركهام، تدخل فيها الباحث شرف الدين بكطاش من جامعة لوفين كاثوليك ببلجيكا بورقة عنوانها: ''إعادة النظر في الايمان: قراءة في فكر كل من سعيد النورسي وكانطويل سميث'' قدم فيها ملخصا لرسالته

والخطة التي اتبعها فيها، وبعدما ختم الباحث مداخلته بدأت فترة النقاش، تلت ذلك مداخلة الباحث صالح صايلغان من الجامعة الأمريكية الكاثوليكية قدم فيها بحثه المعنون بـ: ''خريطة تأمل سعيد النورسي في القرآن'' وأعقبتها مناقشة ما قدّم الباحث.

بعد الظهر ألقى أ.د. إبراهيم أوزدمير من جامعة حسن كاليونجو بتركيا المحاضرة الثانية تحت عنوان: ''الإسلام في العصر الحديث: إعادة النظر في الحركات الإسلامية''، أثارت المحاضرة مناقشات معمّقة، وبعد الاستراحة قدم الباحث نور الفادي جوهري من الجامعة الملية بسنغافورة ملخص رسالته الموسومة بـ: ''النورسي وخطاب الآخر: باراديغما بديل على العلاقة بين المعتقدات والطوائف ''وقد ترأس الجلسة أ.د. إبراهيم أوزدمير، تلتها مناقشة ما ورد في المداخلة. أتبعتها ورقة الباحث محمد زين يوسف من الجامعة الملية بماليزيا بورقة عنوانها: ''العوامل التي تؤثر في ريادة الأعمال الإجتماعية في المجتمع، حالة جماعة النور'' أعقبتها مناقشة ما ورد في الورقة.

وفي يوم الأحد ٩ حزيران:

عقدت المحاضرة الثالثة من تقديم أ.د. سعيد أوزر وارلي بعنوان: ''قراءة سعيد النورسي على ضوء شروط العصر الذي عاش فيه: الإطار السياقي''، تلتها استفسارات وتعقيبات، وبعد الاستراحة مباشرة تدخل الباحث الثالث علي بدر من جامعة أرتوكلو -بماردين- تركيا، وكانت ورقته بعنوان: ''الحياة اليومية في علم اللاهوت لسعيد النورسي''، وقد ترأس الجلسة أ.د. محمد سعيد أوزروارلي، والمعادة أعقبتها مناقشات، ثم تلته الباحثة زينب صايلغان من جامعة جورج تاون بأمريكا بتقديم مختصر رسالتها: ''تكوين أجنبي قرآني: دراسة منهجية على ضوء رسائل النور حول المهاجرين المسلمين في ألمانيا والهجرة''، وقد اثار الموضوع نقاشات وتعقيبات. قدم بعد ذلك أ.د. فريد العطاس محاضرة تحت عنوان: ''تكوين المفهوم وتطور اللاهوت الإجتماعي عند النورسي''. وبعد المناقشة تلاه الطالب الرابع أويس نوراني من الجامعة الملية الإسلامية بالهند، بتقديمه لخطة رسالته: ''الغصن الثاني من الكلمة الرابعة والعشرون وعلاقته بمنهجية الحديث في رسائل النور''، وقد ترأس الجلسة أ.د. فريد العطاس. بعدها تلته محشد فاطمة تورنر من جامعة دورهام بإنجلترا بإلقاء محاضرة تحت عنوان: ''حزن الأنبياء''. وبهذا انتهت جلسات يوم الأحد.

وفي يوم الإثنين ١٠ حزيران (يونيو):

بدأت الجلسات على الساعة التاسعة صباحا كما هي العادة، وقد ألقى د. كولن تورنر وهو من جامعة دورهام بإنجلترا المحاضرة الخامسة المسومة بـ: ''قراءة سعيد النورسي قراءة نقدية، مفتاح لطلبة الماجستير''، وبعد فترة الاستراحة تقدمت الطالبة الباحثة طوبى نور يشيل هارك أوزكان من جامعة دورهام بإنجلترا بإلقاء عرضها تحت عنوان: ''مساهمة النورسي في مشكلة النفس والشيطان، ماهو الجديد في هذا الخطاب؟'' وكان رئيس الجلسة هو د. كولن تورنر، وبعد الاستراحة تقدم الطالب الباحث ساجد بوتنبيديكايل من الجامعة الملية الإسلامية بالهند بعرضه المعنون بـ: ''الاقتصاد الإسلامي والتغلب على الفقر، من منظور بديع الزمان''، وبعد فترة الغذاء ألقى الطالب الباحث حسن شريف من الجامعة الملية الإسلامية بالهند تعريفه بموضوعه الموسوم بـ ''مدرسة الزهراء: عرض التجديد الشامل على نظام المدارس الدينية''، وقد ترأس الجلسة أ.م.د. إسماعيل حاجي نبي أوغلو.

ثم تلاه الطالب دوسمامات كريموف من جامعة دورهام بإنجلترا بعرض عن: ''مفهوم العدل في الخلق من وجهة نظر سعيد النورسي: موازنة''. بعد ذلك ختمت الندوة بكلمات لكل من أ. د. إيان ماركهام ود. كولن تورنر وأ. د. سعيد أوزر وارلي وأ. د. فريد العطاس برئاسة أ. د. فارس قايا.

* * *

الندوة العالمية الخامسة للأكاديميين الشباب باللغة العربية

عقد في الفترة الممتدة من ٢٢ إلى ٢٧ من حزيران (يونيو) ٢٠١٣، الملتقى الخامس للباحثين الشباب المسجلين لنيل درجات الماجستير والدكتوراه عن رسائل النور باللغة العربية، وقد عقدت أيام الملتقى في جلسات متنوّعة موضوعا ومنهجا ومكانا.

فعاليات اليوم الأول: السبت ٢٢ حزيران (يونيو) ٢٠١٣

الجلسة الاولى: ترأسها أ.د.مأمون فريز جرار، استهلت بكلمة افتتاحية لرئيس مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم أ.د.فارس قايا، وافتتحت الجلسة بتلاوة ندية لآيات كريمة بصوت الطالب الباحث جمال الدين من أندونسيا.

بيّن رئيس الجلسة في المستهل مقاصد الندوة العلمية الخامسة، وأنّ من أهم مقاصد رسائل النور تذوّق حلاوة الإيمان من خلال خدمة القرآن ومدارسة رسائل النور من خلال منهج النور.

وقد أكّد رئيس المؤسسة أد فارس قايا، بأسلوب بارع على الالتزام بخريطة معرفية في منهجية البحث العلمي في رسائل النور، وهذا يتطلّب أن يكون البحث علميا ورائدا وأصيلا، مركّزا على التحليل بعد التدقيق والتحقيق بدل تكديس المعلومات، ومما أكّد عليه المقارنة بين العلماء المفكرين في قضايا محددة، ولتقويم بحث ما لابد من التركيز على جانب الجدوى المعرفية والاجتماعية لما تقدم عليه، بعدها فتح باب النقاش أمام الحضور، فعمّقت بعض القضايا وكمّلت أخرى، وخلص الجميع أن هذه المداخلة تصلح لأن تكون دليلا منهجيا وإطارا مرجعيا للبحث في رسائل النور.

جاء بعدها دور العروض فاستهل بعرض الباحث محمد ظافر أدنان، المقدم لنيل درجة الماجستير، والموسوم بـ: الآراء التربوية عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي دراسة تاريخية وتحليلية.

ركّز الباحث على بيان مكونات النظام التربوي للأستاذ بديع الزمان، وحددها في خمسة عناصر:١- المدخلات ٢- العمليات ٣-المخرجات ٤- بيئة النظام ٥- التغذية الراجعة، انتقل بعدها إلى عرض خطة بحثه بعد توجيه منهجي من رئيس الجلسة،

نوقش الباحث من قبل الأساتذة، فكان له حظ وافر من التوجيهات المنهجية والتدقيقات العلمية.

تلتها بعد ذلك الجلسة الثانية برئاسة دة. زينب عفيفي شاكر، حاضر في هذه الجلسة أ.د. سليمان عشراتي في موضوع النبوة وأهميتها في حياة البشر، أكّد المحاضر فيها على ضرورة الإبحار في الزمن التساؤلي حول مركزية النبوة في حياة البشر، وذكر بأن سبب البحث في موضوع النبوة وليد ظرفين: الأول محاور المؤتمر العالمي المزمع تنظيمه في شهر سبتمبر ٢٠١٣، أما الظرف الثاني فيتعلق بالحياة التي تعيشها البشرية، ليخلص إلى أنّ الرسول ﷺ يمثّل التتميم والاختتام لمشروع الترشيد لرسالة النبوات، التي خرجت من إشكال النصرانية التي جعلت النبوة أقرب إلى الأسطورة، واليهودية التي جعلت النبي أقرب إلى شيخ قبيلة، وختم مداخلته بانتقاد لاذع للغرب، مما ولد حاجة البشرية إلى انتفاضة نبوية لتخلصها من فتك الرأسمالية بالفرد والمجتمع. فسح المجال بعدها للتفاعل والتحاور، حيث أكّدت التدخلات على ضرورة التفاؤل في نهوضنا المرتقب بالرغم من النكبات والمثبطات والعقبات، وهو ما يستشف من رسائل النور، إذ هي غنية باستشراف المستقبل، إذ كما يعيش المؤمن فصل الشتاء، فإنّ الأجيال القادمة ستعيش فصل الربيع، وتضمن تدخّل آخر التساؤل عن العصمة ومحاولات استبعادها من حياة البشرية، وورد في التساؤل الثاني كيفيات تفعيل الوظائف الأربعة للنبوة (التلاوة-التزكية-التعليم-الحكمة)، في واقعنا المعاصر.

انتقل بعدها إلى عرض زين العابدين كوكانتشيري، من قسم اللغة العربية وآدابها جامعة كاليكوت، الهند، وعنوان مشروعه المقدم لنيل الدكتوراه بـ: ''الحفاظ على أمن البلاد وعدم الإخلال بالنظام في ضوء أفكار الشيخ سعيد النورسي والسيد فضل بن علوي''، دراسة مقارنة، ثم فسح المجال للمناقشة، التي تأكّدت أنّ المقارنة بين علمين لا ينتميان إلى نفس الحقبة الزمانية في نوع من التعسف والتكلف.

فعاليات اليوم الثاني: الأحد ٢٣ حزيران (يونيو):

عقدت الجلسة برئاسة أ. د.محيي الدين عفيفي، وحاضر فيها د.عبد الحكيم الأنيس استهل كلمته بحمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله الكريم، ثم افتتح عرضه بأبيات شعرية في موضوع: القواعد الثلاثون للتعامل مع رسائل النور ونقتصر على بيت واحد حيث يقول الشاعر:

ولي قلم في أناملي إن هززته فما ضرني ألا أهز المهندا

وقد كان العرض متنوّعا نقتبس منه بعض ما ورد، أكّد المحاضر على التثبت والتأني في البحث العلمي، والتفرغ التام للعمل والتقلل من العلائق، والتقيّد فيما يقرأ، والعزم على الإفادة والاستمرار في البحث، وكلّ ذلك بعد القراءة الكاملة لرسائل النور حسب تسلسلها الزماني، فضلا عن قراءة تاريخ تركيا عموما والمرحلة التي عاصرها الأستاذ على الخصوص، وقد نوه كثير من المتدخلين بالعرض ودعوا إلى طبعه بالإضافة إلى الرسائل الخمسين وتوزيعه على الباحثين لتعم الفائدة، أما عروض الشباب الأكاديميين فاستهل بعرض ياسين العمراني الإدريسي من المملكة المغربية، وهو مشروعه المقدّم لنيل درجة الماجستير، والموسوم بـ ''منهاج الدعوة عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي''، استهله ببيان الدواعي الذاتية والموضوعية لاختيار مشروع رسالته، وأهمية البحث وأهدافه، ومنهجية الدراسة والدراسات السابقة، عرض بعده الباحث تصميم البحث، وانتهى إلى أهم الخلاصات والنتائج التي وصل إليها. وبعد مناقشة علمية متينة من قِبل المشاركين أكّدوا فيها على مقترح إجراء بعض التعديلات قبل تقديم النسخة النهائية.

تلتها الجلسة الثانية برئاسة أ.د سليمان عشراتي، وحاضر فيها أ.د. محيي الدين عفيفي، ببحث عنوانه: ''مشاكل الشباب وحلها في ضوء رسائل النور''، استفتح المحاضر ورقته أنّ من مظاهر الأزمة في الأمة غياب دور الشباب، بصرفه إلى الانحراف واستنزاف قدراته وطاقاته فيما لا ينفع، وعرج في المقدمة على أهمية مرحلة الشباب في حياة الإنسان عموما وفي حياة الأمم على وجه الخصوص مستشهدا بما رآه مناسبا من الحجج والأدلة، وخلص بعد مقدمته إلى تحديد مشاكل الشباب التي لخّصها في أربع مشاكل رئيسة هي: ضياع الوقت وعدم الاستفادة منه، واليأس، والاختلاف والتفرقة، واتباع الهوى، مؤيّدا ما مال إليه بنصوص من رسائل النور، وبعد المناقشة المستفيضة للمحاضرة كُرِم المحاضر من قبل مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم، وسلّمه الدرع الأستاذ محمد فرنجي أحد تلاميذ الأستاذ النورسي.

حاضرت بعده أ.دة. زينب عفيفي شاكر باقتدار في موضوع: الإنسان كائن محير يبحث عن الحقيقة: قراءة في كليات رسائل النور، استهلت كلمتها بالتأكيد على أن الإنسان باحث عن الحقيقة منذ عهده الأول، وتجسد ذلك أساسا في البحث في مفهوم

الألوهية، الذي جاء إجابة عن تساؤلات وجودية فلسفية حيرت العقل البشري، وقد كانت الكتب الإلهية مصدر وطريق هداية البشرية، وقد كانت رسائل النور غنية بإرشاد الإنسان الحائر الباحث في الإجابة عن أسئلة الوجود، من أين المبتدأ، وما هو المنتهى، وما هو المصير؟ فكانت رسائل النور لارتباطها بالقرآن الكريم، متضمنة لإجابات شافية كافية، لأنها شمس معنوية لا يخبو ضياؤها ولا ينطفئ شعاعها، وقد كان الموضوع مثار نقاش مثمر.

عرض بعدها الباحث جمال الدين بن كولاو من قسم أصول الدين بكلية الدراسات الإسلامية والعربية، الجامعة الأمريكية المفتوحة، مصر، وتقدم الباحث بمشروع مقدم لنيل الماجستير، ببحث عنوانه: ''مقاصد القرآن الكريم عند بديع الزمان سعيد النورسى في كليات رسائل النور مقصد الحشر نموذجا''، أشار في المستهل إلى الإطار العام والسياق المعرفي لرسالته، والمتمثل أساسا في بحث مقاصد القرآن الكريم في رسائل النور، مبيّنا أسباب اختياره وأهميته وأهدافه، وتساؤلات البحث، ومنهجية الدراسة، متوقفا في السياق عند الدراسات السابقة، وختم العرض ببيان تصميم الخطة، وهي مكونة من ثلاثة أبواب ومقدمة وخاتمة، وقد سجّل للباحث بالرغم من أنّه من أندونيسا سلامة لسانه وجمال تعبيره باللسان العربي، ونال الباحث حصة يسيرة من الملاحظات.

فعاليات اليوم الثالث: الاثنين ٢٤ حزيران (يونيو):

رأس الجلسة الأولى أ.د. عبد الحكيم الأنيس، واستمع فيها الحضور لمحاضرة أ.د. عمار جيدل الموسومة بـ ''الشباب في رسائل النور''، بيّن فيها المحاضر أنّ الشباب هم أساس صناعة المستقبل، لهذا اعتنت بهم رسائل النور، ولاسترداد الشباب دوره في الحياة تؤكّد رسائل النور على وجوب حمل همّ تحوّل الشباب إلى مركز الكون، لأنّ الأمم التي لا يحمل الشباب همّها ومهمّتها لا مستقبل لها، وفي السياق نفسه نبّه على وفق إشارات رسائل النور إلى أنّ حكمة الشيوخ تختلف عن حكمة الشباب، لأنّ (لكل زمان حكمة)، وأنّ عهد الشباب نفيس حقا وثمين جدا وهو نعمة عظمى، لا يعرف قيمته إلا من افتقده، لهذا ففترة الشباب أمانة استأمن عليها الإنسان فترة عمره، فمن استعملها في الطاعة انتفع بها في الحاضر والقابل العاجل والآجل، ومن مقتضيات هذا الأمر معرفة الواجب والعمل بمقتضاه، مذكّرا أنّ لذّات الشباب

زائلة لا محالة كما تزول جميع الأشياء، وإذا كانت بدايتك محرقة فنهايتك تكون مشرقة، ولتيسير القيام بهذه المهمّة، فإنّ الشباب لاستجلاب الخيرية ملزم أن يكون جامعا بين التوثّب الشبابي مع تشبه بالكهول من جهة الحكمة والتأني، وفي ذلك تجاوز للمتداول المقلوب، كهول يرغبون في استرجاع مرحلة الشباب ليستعيدوا للتفلّت والتملّص من أحكام الدين، وهذا عمدته الصبر: صبر على التحصيل وصبر على أدائه، وصبر على المناقشات التفصيلية المتعلقة بالبحث والحياة، مع النفس ومع الأسرة والمجتمع والدولة والإنسانية، وقد ورد المحاضر تعقيبات وتساؤلات، أثرت البحث.

عرضت في الجلسة الثانية ورقة الباحث ابراهيم يوسف دياه من جامعة عثمان بن فودي صكتو، كلية الدراسات العليا قسم اللغة العربية، النيجر، وهي مشروع دكتوراه بعنوان: ''ظاهرة التكرار في كتاب المثنوي العربي النوري دراسة أسلوبية حديثة''، وقد نال الباحث نصيبا وافرا من الملاحظات المنهجية والمتعلّقة بموضوع البحث، كما سجّل الحضور إعجابهم بلغة الباحث، ووضوح منهجيته في معالجة الموضوع.

فعاليات اليوم الرابع: الأربعاء ٢٦ حزيران ٢٠١٣:

ترأس الجلسة الأولى أ.د عمّار جيدل، وتناول فيها الكلمة د. مأمون فريز جرار محاضرا عن ''صورة الموت في رسائل النور'' افتتحها بعدّة قضايا أهمها، إن التفكر في الموت سبب ميلاد سعيد الجديد، لهذا كان الحديث عن الموت (في ظلال رسائل الموت سيشرق الموت ويصير أمرا محبوبا)، وذكر أنّ الأستاذ يقدم الحديث عن الموت في ثلاث طرق، فهو إما يؤدي إلى أن الموت بوابة الخلود في الجنة، إما يوصل إلى أن الموت باب لسجن العصاة، أو هو في نظر من لا يومن بالله واليوم الآخر يعتبر القبر مشنقة تفنيه وتوصله إلى العدم، ومما خاض فيه المحاضر ''الموت فصل الروح عن الجسد''، وقد بيّن أنّ الموت في نظر الأستاذ نعمة عظمى من أربعة أوجه. وقد ورد على المحاضرة تعقيبات وإثارات وتساؤلات، فمن قول د. عثمان غريب الهاشمي ذلك فكرة تجاهل الموت عند الغربيين لأنها تثبط عن العمل، ومنه أيضا قول الأستاذ إحسان أن النورسي يسعى إلى تزيين وتحسين ما هو قبيح في أعين الناس، ومقترح د. عبد الحكيم في مسألة تمني طول العمر عند النورسي ومقارنته بابن الجوزي، ثم جاء دور أ.د عشراتي أشار فيها إلى الأفغاني وحديثه عن الدهريين في سياق مواجهة

الملحدين المعاصرين، منبّها إلى أنّ المسلم يتجاوز الطرح العبثي لمسألة الوجود عند الغربي للوجود.

عرض بعدها الباحث محمد فائز من الجامعة الوطنية بماليزيا مبيّنا خطة بحثه الذي يتمحور حول التصوف عند النورسي، وعرض بهذا الصدد منهجية بحثه وحدوده، موضّحا المصطلحات التي عليها مدار البحث، مع إطلالة على الدراسات السابقة. وقد أثري المشروع من زوايا مختلفة، فذكر أ.د عشراتي أنّ التصوف هو بديل بيداغوجي لما بعد التحديث والافلاس، أما د. عبد الحكيم فأشار إلى إشكالية هل النورسي صوفي أم لا؟ ثم حسم الإجابة بقوله: إنّ النورسي صوفي سلفي وليس طرقي، وتساءل بعض الطلبة عن موقف النورسي من وحدة الوجود، ومما هو معلوم بهذا الصدد أنّ النورسي بالرغم من كونه مجازا في ثلاث عشرة طريقة صوفية، إلاّ أنّه كان صاحب مسلك الجمع لا التفريق، فسعى إلى إشباع حاجة العقل والقلب والبذل العلمي للدين في شعاب الحياة.

الجلسة الثانية ترأسها د. عثمان غريب، وافتتحت بتقديم الباحث جابر حسين عبدي من العراق عرضا عن مشروعه الموسوم بـ ''نصوص تفسيرية من رسائل النور''، بيّن فيه الصعوبات التي اعترضت طريق الإنجاز، ولخّصها في اختلاف تفسير النورسي عن أنماط التفاسير المتداولة، فضلا عن اختلافها عنها من جهة العرض، فليس تفسيرا تحليليا، وفي هذا تكمن أهمية الموضوع، ولخّص الباحث أسباب اختياره في أنّها دراسة متعلقة بكتاب الله، والنورسي إمام من أئمة العصر المعتبرين في التفسير، كما سيكون البحث تعريفا بجهود علماء الكرد في خدمة التفسير والعلم الشرعي، وكلّ ذلك نافع في معرفة منهجه في التفسير.

وعرض خطّته في أربعة فصول: الأول حياة الأستاذ، والثاني: اهتمام الأستاذ بمباحث علوم القرآن، أما الثالث: منهج الأستاذ في التفسير، والرابع خصصه لجمع ودراسة النصوص تفسيرية، ثم انهى البحث بخاتمة، وقد كان حظ الباحث وافرا من التعقيبات والإثراء، فاقترح عليه أ. د عشراتي حذف ترجمة النورسي، واقترح أ.د جيدل تعديل العنوان فيصبح نصوص في التفسير، لأنّ العنوان يوحي بأن الدراسة ذات طبيعة قانونية، أما الأستاذ إحسان، فعلّق على بعض التعقيبات مؤكّدا استحالة ترتيب الرسائل لأن الأستاذ أمر بوضعها هكذا، وأشار د. عثمان إلى تقصير المشرفين في الضبط موضوعا ومنهجا وعنوانا.

ثم جاء دور الباحثة مي سعيد مصطفى في مشروعها الموسوم بـ ''الاخلاق من وجهة نظر الأستاذ سعيد النورسي''، وعرّفت بفكرة مشروعها بطريقة أثارت استغراب كثير من الأساتذة والطلبة، سواء في تصور المشروع أو لغة الباحثة أو منهجيتها في العرض، ولهذا كانت الملاحظات متنوّعة وفي الصميم، تساءل د. عثمان عن نوع الدراسة، هل الدراسة اجتماعية، أما أ.د. عبد الحكيم فحثّ من خلال الباحثة الباحثين على تعلّم علوم اللسان، وأشار لها أ. إحسان إلى ندوة مطبوعة حول الأخلاق عند النورسي، كما نصحت بملازمة الأساتذة والأخذ عنهم، وعرض عن الدراسات السابقة.

فعاليات اليوم الخامس: الخميس ٢٧ (حزيران) يونيو

ترأّس الجلسة: د. عبد الحكيم الأنيس، واستهلت بمحاضرة أ.م.د. عثمان محمد غريب من جامعة صلاح الدين بالعراق، الموسومة بـ ''كيف نجعل من القرآن الكريم حياة لحياتنا''، بيّن في مقتبل العرض إعجابه بالنورسي وقال إنه شخصية استوقفته منذ سن مبكر، لأنه يخاطب في رسائله العقل و يدغدغ الشعور ويثير العاطفة ويفيض على الروح في الوقت نفسه، وبعد إسهاب في الحديث عن النورسي، تطرق المحاضر إلى علاقة النورسي بالقرآن، فأكّد أنه رحمه الله ألّف الرسائل دفاعا عن القرآن والايمان، ثم تساءل المحاضر كيف نجعل من القرآن حياة لحياتنا من خلال رسائل النور؟ استهل الجواب بتعريف النورسي للقرآن الكريم، ركّز على تعريف وظيفي للقرآن لخّصه في كونه الترجمة الأزلية لهذه الكائنات والترجمان الأبدي لألسنته التاليات التكوينية ومفسر كتاب العالم، هو كذلك الكشاف لمخفيات كنوز الأسماء المنتشرة لصحائف السموات والأرض، وهو مفتاح لحقائق الشؤون المضمرة في الشعور وسطور الحادثات، و لسان الغيب في عالم الشهادة...

إن القرآن مهما كان محتواه فإنه ليس من صنعة البشر، فإذا أنكرنا أنه من الله وادعينا أنه من كلام محمد، فمعناه أننا اعتبرنا محمدا هو الإله لأن هذا القرآن لا يمكن إلا أن ينزل من عند إله، ثم جاء دور التعقيبات، فتدخل مجموعة من الأساتذة منهم من أشار إلى أن اللين يجب أن يكون مع المؤمنين وليس مع الكافرين.

وبعد الاستراحة تقدمت الباحثة وهيبة تومي بورقتها المعنونة بـ ''خطوات التربية الروحية عند بديع الزمان سعيد النورسي من خلال رسائل النور''. عرضت فيها

الخطوات التي اتبعتها في رسالتها، وأشارت إلى أهمية الموضوع، وطريقة عرض النورسي للتربية، انتقلت بعدها إلى أسباب اختيار بحثها، وخطة البحث، تلتها الباحثة إسراء أحمد صالح من جامعة الخرطوم بالسودان، فقدّمت تقريرا عن بحثها الموسوم بـ ''أهمية الايمان بالغيب وفق منهج رسائل النور''. أشارت فيه إلى أهمية البحث، ثمّ بيّنت فصول المشروع ولخّصتها في: مفهوم الغيب عامة، مفهومه عند النورسي، مواضيع الإيمان (الله، الملائكة)، انتقلت إلى العقل عند النورسي، وختمت مشروعها بتوصيات منها: أثر الايمان في النفوس وتحقيق الأمور الغيبية وسهولة المنهج النورسي بضرب الأمثال، وأثر الايمان بالغيب في الواقع والمجتمع واستثمار الانسان أن الله لم يخلقه عبثا وأن مهمته في الأرض العبادة واستخلاف الأرض.

فعاليات اليوم السادس: الجمعة ٢٨ حزيران (يونيو) ٢٠١٣

ترأست الجلسة أ.دة. زينب عفيفي شاكر، كان أوّل المتدخلين الباحث إبراهيم أوتسلا من جامعة ابن زهر بالمغرب، عن بحثه المقدم لنيل الماجستير، والموسوم بـ ''مصدرية السنة في فكر الأستاذ سعيد النورسي''، تطرق فيه إلى أهمية البحث، وأسباب اختياره، أعقب العرض بتعقيبات د. مأمون جرار الذي أثنى على موضوع الطالب وأسلوب العرض، تبعه أ.د. سليمان عشراتي وبعد الثناء على البحث أشار إلى أن موضوع السنة في هذا البحث سيكون هو المحرك وختم بأن الأستاذ النورسي يعطي رؤية وقراءة جديدة للسنة. ثم تدخل د. عبد السميع الأنيس وأشار إلى الموضوع جيد جدا وممتاز أن يبحث فيه، ثم إن اللافت للنظر أن الباحث عندما ذكر مشكلة البحث، ما مدى حضور السنة في مشكلة البحث؟ ثم اقترح على الباحث أن يأخذ قضية معينة في الرسائل ويعمق فيها النظر حتى يخلص إلى نتائج يستفيد منها المجتمع.

بعد ذلك تدخلت أ.دة. زينب عفيفي وأشارت إلى أن هذا الموضوع فيه إشكالية في تحديد المفاهيم والعنوان يحتاج إلى تعريف المصطلح، وكلمة مصدرية ماذا تعني؟ وماهي تقسيمات الرسالة والأبواب والفصول؟

ثم ختم المداخلات ذ. إحسان قاسم بقوله: إن الأستاذ سعيد النورسي يذكر في المثنوي مشبها السنة بحبال نورانية نازلة من السماء ومن تمسك بها استصعد واستسعد، والسنة كالبوصلة للحلول من المشكلات والهموم.

ثم جاء الدور على الباحث عبد العزيز الإدريسي من الجامعة الإسلامية بماليزيا قام في مداخلته بالحديث باختصار عن رسالته للدكتوراه التي تحمل عنوان: ''بناء الإنسان عند الأستاذ بديع الزمان النورسي؛ رؤية تربوية''، تكلم فيها عن الأسباب التي دعته لهذا البحث وأهميته ومشكلة التي واجهته أثناء بحثه.

بعد انتهاء المداخلة تدخل د. مأمون جرار وأشار إلى أهمية هذه الرسالة وذكر للباحث أنه إذا استطاع أن يجد سر فاعلية رسائل النور وخصوصا إذا تم التنبيه إلى ماهية رسائل النور وماهي الظروف التي كتبت فيها؟ أما د. عثمان غريب فقد أشار إلى إشكالية مفهوم مصطلح ''الإنسان''. وبعد الاستراحة فسح المجال للباحث هارون جاسم حمدي من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان، فقدّم تقريرا عن مشروعه المقدّم لنيل الماجستير، والموسومة بـ: ''بديع الزمان سعيد النورسي، إشارات الاعجاز من خلال رسائل النور؛ سورة الفاتحة أنموذجا''، ذكر فيها باختصار المنهج الذي اتبعه، وأسباب اختياره، والمشاكل التي واجهته، وختم مداخلته بذكر خطة رسالته، أعقب ذلك المداخلات التي تضمنت أسئلة الأساتذة وردود الباحث.

الجمعة ٢٨ حزيران بعد الظهر:

استهلت الجلسة بتقرير الباحث عبدول سنان من جامعة دار الهدى الإسلامية بالهند، عن رسالته الموسومة بـ: ''حياة رئيس العلماء محمد مسليار كالمبدي وتأثير الاخلاص في نجاح الدعوة بمنظور رسائل النور''، عرّف في تقريره بخطة البحث، ومنهجه، وأسباب اختياره، والصعوبات التي واجهها أثناء البحث، تلته ورقة الباحث حافظ سيد مبشر حسين كاظمي من الجامعة الإسلامية منهاج القرآن لاهور بباكستان، قدّم فيها تقريرا عن رسالته المقدمة لنيل الماجستير، والتي عنوانها: ''المنهج التربوي عند بديع الزمان سعيد النورسي''. بيّن فيه أسباب اختيار بحثه والمشاكل التي اعترضت سبيله، وبعد العرض عُقّب على البحث من قبل الأساتذة الكرام.

* * *

إخبار عن المؤتمر العالمي العاشر الذي تنظمه مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم في أيام ٢٢-٢٤ / ٩ / ٢٠١٣ بإسطنبول، تحت عنوان:

"دور النبوة ومكانتها في البحث عن الحقيقة من منظور رسائل النور"

الغاية:

إن الإنسان خُلق في أحسن تقويم، ولديه ميولٌ عديدة ورغباتٌ شتى وأهدافٌ يريد تحقيقها، وقد أُوتي قوةً عقلية ليميز الصحيح من الخطأ والحسن عن السيء. غير أن القوى واللطائف والأحاسيس النفسانية والأنانية والغضب والحقد عند الإنسان واستعماله العقل سوءاً لم تحدد، فظهر التجاوز في المعاملات والظلم بين العباد والفساد في الأرض. والإنسان غاية مناه تحقيق العدالة والسلام، إلا أنه من ناحية أخرى وبتأثير حظوظه النفسانية يحاول حلّ قضاياه بالظلم والاعتداء. وما الجوع والفقر والمسكنة والحروب والمظالم والفوضى والعنف بشتى أنواعها وما إليها من السلبيات التي ظهرت في كثير من المجتمعات البشرية على مدى التاريخ إلا انعكاسات هذا الواقع.

وللحيلولة دون وقوع هذه السلبيات اقتضت الحاجة اعتباراً من أول إنسان على الأرض إلى الإرشاد الإلهي. وبما أن عقل الإنسان محدودٌ ومعرّضٌ لكثير من التأثيرات والتوجيهات الخارجية، فيتقاصر ويتعاجز عن الوصول إلى الصواب. وذلك أن الخالق بإرشاده وهدايته السبيل يحفظ الإنسان من الوقوع في الأخطاء لدى بحثه عن الصحيح وترجيحه الصواب. فقد قام الأنبياء بوظيفة الإرشاد بأفضل وجه. هذا ما نراه عندما نتصفّح التاريخ. فقد بُعثوا لهداية البشرية ولإخراجها من الجور والفساد الى العدل والاستقامة فابدعوا في أخطر المنعطفات التاريخية أروع نماذج التحولات الكبرى. وهذه التحولات التي تتحقق تحت إرشاد الخالق تتميز عن بقية التحولات بالاستمرارية والفاعلية من حيث قدسية المصدر ورفعته. بينما العقل يحاول وحده تقييم المسائل والحوادث ضمن حدود الزمان والمكان، فيعجز الوصول إلى الحقيقة، ولا يبدي كفاءة في تأسيس نمط حياةٍ تليق بالإنسان وتُديم كرامته. وبهذا الوضع فالعقل في حاجة لفهم الوحي وإدراكه. ولقصر عقل كل فرد عن إدراك الحقيقة فلابد من مرجعٍ وصاحب إرشاد في أوج الكمال يشير إلى ذلك. لذا أنار وسينير الأنبياء والوحي الذي يستقون منه درب الإنسانية على مدى التاريخ وإلى يرث الله الأرض ومن عليها.

وهكذا ففي هذا المؤتمر العالمي العاشر لرسائل النور سيتناول الأساتذة الباحثون موضوع "دور النبوة ومكانتها في البحث عن الحقيقة من منظور رسائل النور" بأسلوب مقارن وفق المحاور المدرجة أدناه. ونأمل من خلال هذا المؤتمر أن تُوضع لبنة أخرى في صدد تحقيق ما لم يتم تحقيقه سابقاً في إنشاء مستقبل زاهر وإعمار عالم أفضل.

* * *

معلومات عن النشر في المجلة

١. تنشر المجلة البحوث الأصيلة (تنشر أول مرة) المنجزة في الدراسات الحضارية والفكرية بمعناه العام.
٢. تسعى المجلة إلى نشر البحوث والدراسات المتوافقة مع العمل العلمي الجدي المتجلي في وضوح المقاصد والأهداف، ودقة المنهجية.
٣. لا ترى المجلة مانعا من نشر الدراسات التأصيلية في ميادين الدراسات الفكرية والحضارية، وخاصة إن حازت عناصر الجدة والدقة.
٤. ترحب المجلة بالبحوث المقارنة سواء تعلّقت بالدراسات المقارنة في ذات الفضاء الفكري أو من فضاءين مختلفين أو من فضاءات متعددة.
٥. تعمل المجلة على تشجيع الدراسات والبحوث النقدية الواضحة المقاصد الملتزمة بآداب الحوار والنقاش، المتقيّدة بالمنهجية العلمية.
٦. تشجع المجلة على التعريف بأعلام الفكر والدراسات الحضارية، لهذا تتبنى خدمة هذا الهدف بنشر الدراسات المعرّفة برجالات الفكر ولاسيما الشخصيات العلمية التي لم تحظ بالتعريف بالقدر الكافي.
٧. تخدم المجلة الباحثين الناشئين وتشجّع دراساتهم المنجزة، وتقدّم ملخصات مركّزة عن أعمالهم المقدّمة لنيل الدرجات العلمية الأكاديمية.
٨. تنشر المجلة بعنوان المقالات المحكّمة التغطية الجيّدة لأعمال المؤتمرات والورشات أو الأيام الدراسية العلمية الحضارية والفكرية.
٩. تنشر المجلة بعنوان الدراسات الأكاديمية، البحوث المنجزة في التعريف بالكتب النوعية في ميدان الدراسات الحضارية والفكرية، يقدّم فيها الباحث أهم عناصر الكتاب وأهم النتائج التي خلص إليها، مع بيان المآخذ التي سجّلها على الكتاب.
١٠. تعرض الدراسة أو البحث المقدم للنشر على محكّمين من أهل الاختصاص، تختارهم إدارة المجلة، ويُلْزَم صاحب العمل المقدّم بإعادة النظر في بحثه أو دراسته في ضوء الملاحظات المقدّمة له.
١١. يمنح صاحب البحث نسخا (عدة مستلات) من بحثه المنشور، فضلا عن عدد من المجلة التي نشر بها بحثه.
١٢. تحتفظ المجلة بحق نشر العمل المنشور في كتاب أو بشكل مستقل، بلغته الأصلية أو مترجما.
١٣. البحوث والدراسات التي وصلت المجلة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
١٤. ترسل البحوث والدراسات على العنوان الإلكتروني للمجلة editor@nurmajalla.com بشرط أن لا يزيد حجمها عن ٤٢٠٠٠ حرف (مع الهوامش والفواصل).

الإشتراك السنوي (عددان)

الإشتراك في تركيا: .....٢٠ ليرة تركية

الإشتراك في الأقطار الأخرى للأشخاص: .....١٥ دولار أمريكي

الإشتراك في الأقطار الأخرى للمؤسسات: ....٣٠ دولار أمريكي

العنوان للاشتراك

عبد الكريم بابارا kerimbaybara@gmail.com
شركة سوزلر للنشر
٣٠ شارع جعفر الصادق – الحي السابع
مدينة نصر– القاهرة – جمهورية مصر العربية
تلفون + فاكس: ٩٣٨ ٦٠٢ ٢٢ (٢٠٢+)

Kalendarhane Mahallesi, Delikanli Sk.
No: 6, VEFA 34134 Fatih
ISTANBUL – TURKEY
Tel: +90 212 527 81 81 (pbx)
Fax: +90 212 527 80 80
info@nurmajalla. com
www. nurmajalla. com

Contents

Editorial

- Prof. Dr. Amar Djidel: Introductory Note 3

Miscellaneous Studies

- Prof. Dr. ‘Abd al-Karim ‘Akkiwi: Badi‘uzzaman al-Nursi’s Outlook and View of the Future 7
- Dr. Bu ‘Azza ‘Abd al-Qadir: The Problem of Culture and Civilization in the Islamic World from the Viewpoint of Malik ibn Nabi 25
- Prof. Dr. ‘Abdullah al-Bukhari: Manifestations of Divine Beauty Within Trials and Tribulations With Respect to Conduct 47

Dossier

- Prof. Dr. al-Shafi‘ al-Mahi Ahmad: al-Nursi’s Method of Elucidating Almighty God’s Most Beautiful Names 65
- Prof. Dr. ‘Aziz Muhammad ‘Adman: Towards a New View of the Psychological Proofs Afforded by Repetition in the Qur’an: Badi‘uzzaman Said al-Nursi’s Approach 87
- Muhammad Bakkur: al-Nursi’s View of History: A Study of Parabolic Comparison and Qur’anic Interpretation 113
- Prof. Dr. Mash‘an Su‘ud ‘Abd: al-Nursi’s Views on Laws and Precepts in Qur’anic Interpretation as Enunciated in His *Isharat al-I‘jaz fi Mazann al-Ijaz* 133

Interviews, Publications and Conferences

- Interview with Dr. Ma’mun Fariz Jarrar 153
- Publications: A reading of the book: *Risala Master* 165
- Conferences and Study Circles:
  1. Conference in Jordan 173
  2. Two International Conferences in India 176
  3. The Fifth International Conference for Young English-Speaking Academicians 179
  4. The Fifth International Conference for Young Arabic-Speaking Academicians 182
- Call for articles for forthcoming issues 192
- Information about publication of articles and papers in the Journal, al-Nur 192
- Annual subscriptions / Contents 193